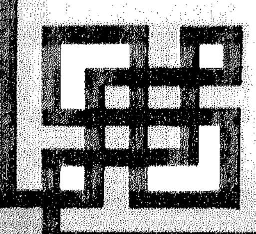
نايف زهر الدين

مناهل الحكماء والأولياء

ومآثر الأعلام الموحدين

مراجعة وتقديم

الدكتور صالح زهر الدين



المركز العربي للأبحاث والتوثيق

مناهل الحكماء والأولياء
ومآثر الأعلام الموحدين

نايف زهر الدين

مناهل الحكماء والأولياء
ومآثر الأعلام الموحدين

مراجعة وتقديم :
الدكتور صالح زهر الدين

الطبعة الأولى
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٧

بيروت - شارع مار الياس - مقابل ثكنة الحلو - تلفون: ٣٠٥١٥٨ - ص.ب: ١٤/٥٠٦٨

إهداء

إلى روح رفيقة حياتي، رحمها الله،

إلى أولادي،

وإلى أبناء وطني وأمتي وعشيرتي،

أقدم هذا الكتاب، نوراً للعقول وتنويراً للبصائر، غذاء للروح وذخراً للنفوس.

... والنفس أمّارة بالسوء إن جنحت
بالمرء نحو الهوى ضاقت به السبلُ
فلا تغرّك دنيا لا مفاتنها
تغني، ولا عيشها بالرغد يكتملُ
«إزرع جميلاً ولو في غير موضعه»
إن شئت ذكراً حميداً بعدما ترحلُ
فالذكر يبقى بأعمال مشرِّفة
والجسم يفنى إذا ما الروح تنتقلُ...

ن. ز

شكر وتقدير

إلى صهري العزيز الدكتور صالح زهر الدين، الذي وضع مكتبته الخاصة تحت تصرّفي، وما أبداه من ملاحظات قيّمة، وإرشادات كانت لي دليلاً هادياً في جمع وإعداد هذا الكتاب وتنسيقه. ولم تقتصر جهوده على هذا وحسب، بل إنه قد صرف قسماً كبيراً من وقته في مراجعة الكتاب وتنقيحه. وكانت له «كلمة وفاء بمثابة تقديم»، فجاءت جوهرة توّجت هذا الكتاب، ودرّة رصّعت صفحاته.

فله مني خالص المودة وجزيل الشكر والتقدير. كما أخصّ بالشكر أيضاً المركز العربي للأبحاث والتوثيق الذي أخرج هذا الكتاب إلى حيّز النور.

المؤلف

كـلمة وفاء بمثابة تقديم

بقلم:

الدكتور صالح زهر الدين

أن أقدّم لكتاب في الحكماء الروحانيين واعلام الموحدّين، لهو عندي رغبة كبرى، فكيف إذا كان هذا الكتاب هو ثمرة جهد وبحث وتنقيب في بطون المؤلفات والمراجع، أعدّه على مدى سنوات طوال الاستاذ نايف زهر الدين؟ فهو بالنسبة إليّ جزء من الواجب والوفاء تجاه إنسان علّمني الحرف، ودفع بي في معارج الحياة العلمية كأحد أبنائه، منذ الأيام الأولى لدخولي المدرسة.

تتلمذت على يديه أعواماً، كان خلالها - ولا يزال - في اللغة العربية ضليعاً، وفي التربية والتعليم خير مربٍّ ومرشد، باعتراف جميع من تخرّج على يديه ممن أصبحوا أطباء ومهندسين وأساتذة وموظفي دولة، الخ . . .

حمل الرسالة بأمانة، وسلّمها كما استلم، وبقي مخلصاً للقلم وللكتاب إخلاصاً عميقاً، لقناعته أن «تقاعد المهنة» لا يستلزم تقاعداً في طلب المزيد من العلم والمعرفة. فكانت المطالعة جزءاً من روحه، وقبل الماء والخبز، وكثيراً ما كان يردد عبارة الكاتب الروسي الشهير «مكسيم غوركي» القائلة بأن «المطالعة تكنس الغبار من خلايا المخّ». إذ أن الأفكار تكون في رؤوس الرجال كما المعادن الثمينة في باطن الأرض، وإن لم يبذل الجهد لاستخراجها وتجييرها لصالح البشرية، تبقى دون قيمة ودون فائدة. على هذا الأساس قال فيثاغورس الحكيم : «الأخلق بالانسان أن لا يفعل ما يريد، لكن ما ينبغي».

وهكذا وجد نايف زهر الدين ما ينبغي أن يفعله، ليكلل به سنوات عطائه السابقة فكان هذا الكتاب حصيلة التجربة الحلوة والمرّة، من خلال الرسالة التي أعطاها نور عينيه، وكل قلبه وعقله وجوارحه لأكثر من اربعين عاماً، لإيمانه بأن

العلم هو قوت القلوب، ولكن الحكمة هي قوت القلوب والنفوس والعقول مجتمعة. ولا تكمل الحكمة إلا بالتوحيد. فأراد أن يكمل الرسالة دون أن يقول، اللهم اشهد أنني نفّذت . . فكان هذا الكتاب :

«مناهل الحكماء والأولياء، ومآثر الأعلام الموحدين».

«فالروحانية تديّن والتوحيد تديّن». وإنهما يتجهان نحو الخلاص الديني، وعندما كان الهدف هو الله عزّ وجلّ، فإن السفر إليه لا يقتضي أن نخرج من الوجود ومن نفوسنا، وإنما يقتضي، على العكس، أن ندخل أكثر واكثر في الوجود وفي نفوسنا. والإنسان الروحي المتعبّد يتعطش دائماً إلى الوحدة ـ الخلوة، والى الذوبان في المعبود. إنه أسمى وأرفع ما يشتهي.

في هذا الصدد يقول أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني في كلامه عن أصل التوحيد : «أما موضوعه فهو الذات العليّة، لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها، إما بالبرهان، أو بالشهود والعيان. فالأول للطالبين والثاني للواصلين. وأما واضع هذا العلم فهو النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم-، علّمه الله له بالوحي والإلهام، فنزل جبريل عليه السلام أولاً بالشريعة، فلما تقررت نزل بها ثانياً بالحقيقة، فخصّ بها بعضاً دون بعض. . ». وعندما يحدّد الفرق بين الشريعة والطريقة والحقيقة يقول: «الشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهده».

هذا، وكم كان شيشرون على حق عندما قال : إن السيرة الحسنة كشجرة الزيتون، لا تنمو سريعاً لكنها تعيش طويلاً. وإني أعجب بالشباب الذي يزدان بحكمة الشيوخ. وبالشيخ الذي يزدان بنشاط الشباب. ومن عاش بمقتضى هذا المبدأ فقد يشيخ بالجسم وأما عقله فلا يشيخ. وهكذا هو نشاط الشيخ الشاب نايف زهر الدين.

ومرّة سألني عنه أحدهم قائلاً : طبعاً لقد كبر عمّك وخَتْيَرَ. . . فقلت له : نعم، لكنه لا يزال يعطي. . . وإذا كان عطاؤه السابق من فضة، فعطاؤه الحالي من ذهب. . . وهو كما قال شيشرون، كزيتونة معنيّة كلما أعطاها الزمن سنة من سنواته، بادلته بأحسن ما عندها من عطاء نوعيّ، يحمل نكهة لا يعرف قدرها إلا

أصحاب الذوق الرفيع، وطعماً لا يتلذذ به إلا أصحاب الألسنة الدافئة والعارفة وظيفتها، ورائحة هي ذاتها رائحة المسك والعنبر . . . ذلك أن ابناء الزمان الحقيقيين يبرهنون دائماً أن كرمهم لا يتوقف عند حدود زمانهم فقط، بل هو حركة دائمة وفق دورة الزمن ذاته . . . وليس للكرم حدود . .

والحقيقة، إنك وأنت تطالع صفحات هذا الكتاب، المزدان بلؤلؤ الحكَم والوصايا والمواعظ والمآثر، تشعر وكأنك في بيت عبادة. في حضرة رؤساء وحكماء وفلاسفة ورجال علم، تشرب من مياه حكمتهم وتطلب المزيد، تستمع إلى إرشاداتهم وتوجيهاتهم ومواعظهم فتبتهل إلى الله أن لا يلجم ألسنتهم عن النطق بدرر الكلام وجواهره، ولا تشعر بالجوع إلا لمثل هذه الحكم والمآثر والمواعظ.

لن نغوص في التفاصيل، لأن صفحات الكتاب خير معبّر عن ذلك . . ويبقى القارئ في النهاية هو القاضي الذي سيصدر الحكم بالمصداقية أو البطلان . . .

مقدّمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على سيد المرسلين وآله وأصحابه أجمعين.

«وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور». (صدق الله العظيم).

تتجاذب الإنسان- في معترك حياته- عوامل نفسية وأخرى جسدية، تجعل منه كائناً يميل إلى الخير فيفعله، أو إلى الشر فيتبعه، وفقاً للبيئة التي يعيش فيها والمجتمع الذي ينشأ بين أحضانه. وفي الحالتين، إن لم يكن له من رادع يردعه، أو وازع يمنعه، مستسلماً لشهواته، غارقاً في ملذاته، فقد خسر الدنيا والآخرة، «وذلك هو الخسران المبين». قال أفلاطون الحكيم: «إذا أردت الغنى فاطلبه بالقناعة، واحذر الشهوات الدنيئة لأنها شائنة لعرضك، شاغلة لك عن جميع أمورك».

ليست الحياة الدنيا مجرد لهو وعبث، وتنعّم بالمأكل والمشرب، وانقياد وراء الشهوات والرغبات الجسديّة، إنما هي «عقيدة وجهاد» تضحية وعمل. الحياة هي التحلّي بالفضيلة ومكارم الأخلاق، هي خشية الله سبحانه وإطاعة أوامره ونواهيه، هي الصدق والإخلاص والمحبة . . . هي الأعمال الصالحة التي ترضي رب العالمين والناس أجمعين. «لو كانت الدنيا لرجل واحد، لما كان غنياً، لأنها تفنى» (رابعة العدوية). وكما قال الإمام علي كرّم الله وجهه: «إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

والأديان السماويّة ليست مجرد كتب منزلة، أو مزامير للمطالعة والإنشاد فحسب، بل إنها لهداية الانسان نحو مبدعه وخالقه، ولتزويده بما يُصلح به دنياه وآخرته. لهذا وجب العمل بروحية هذه الأديان-مهما اختلفت اسماؤها وعقائدها-لأنها في النهاية جميعها ذات أهداف نبيلة واحدة-وإن اختلفت الأساليب- فهي تصبّ في خانة التوحيد وتحثّ على التمسّك بالفضائل والابتعاد عن الرذائل، كقوله عزّ وجل: «أوحينا إليك ما وصّينا به ابراهيم وعيسى وموسى

أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا به، كبُر على المشركين ما تدعوهم إليه» (سورة النور / ٣٥).

وما كان الأنبياء والرسل الكرام إلا دعاة خير وصلاح وإصلاح، أرسلهم الله سبحانه لهداية خلقه وعباده، يرشدونهم إلى معرفته وطاعته، يأمرونهم بالمعروف وفيه خير الإنسانية جمعاء، وينهونهم عن المنكر وفيه شر العاقبة وبئس المصير. كقوله عزّ وجلّ «وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا» (الاسراء/ ١٥). وكذلك قوله تعالى في كتابه الكريم «وما من أمة إلا خلا فيها نذير» (فاطر/ ٢٤).

«ومع تقادم الأزمان، وتعاقب العصور والأدوار، كانت الأضاليل تنتشر، وتمسك الناس بقشور الدين وظواهر الأمور، مبتعدين عن جوهره وحقيقته»، فكان من نعم الله سبحانه على عباده أن نشأ في كل عصر وزمان حكماء وعلماء ذوو تقوى وعلم وإيمان، وخير وصلاح، فكانت لهم اليد الطولى في إحياء التراث الديني الصحيح، الذي يرتكز على الحقيقة الجوهرية لمفهوم الدين ومعانيه وأهدافه. و «الحقيقة وحدها هي التي تنتصر، لا الضلال» - على حد قول بوذا-. كما أنهم كانوا، في الوقت نفسه دعاة خير يرشدون الناس إلى نهج الصراط المستقيم، والاعتصام بحبل الله، «واعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا»، وإلى التمسك بالقيم الروحية والأدبية التي تُعلي شأنهم وتخلّد ذكراهم، وتقيهم شر الدنيا وعذاب الآخرة.

من هؤلاء «الدعاة الحكماء» كان الأولياء الصالحون، والأئمة والموحدون التّقاة، والنسّاك. . . الذين جعلوا من أنفسهم ومن أفعالهم مثلاً يُقتدى، ومن مواعظهم وإرشاداتهم وأقوالهم نوراً به يُهتدى. يرشدون ويَهْدون، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، خلاصاً لنفوسهم وتطهيراً لها، وهداية لسواهم ممن اهتدى واقتدى. وكان من جراء ذلك أن ظهرت في جميع الأدوار المتعاقبة جماعات من أهل الورع والتوحيد، لكل منها عقائدها ومرتكزاتها، وإن اختلفت في الظاهر وتنوّعت، فقد اتّحدت لبّاً وجوهراً. «لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» (صدق الله العظيم). تلك سنّة الله في خلقه، وحكمته ومشيئته، و «لن تجد لسنّة الله تبديلا».

قال أحد العبّاد الورعين : «الغذاء الحقيقي بأربعة : غذاء النفس بالدين، وغذاء القلب باليقين، وغذاء الجسم بالرزق الحلال، وغذاء العين بمراقبة ذي الجلال».

لذا، فلا شيء يمنع الإنسان أن يكون رجل خير وإصلاح وتقوى، تعمر المحبة قلبه، مرتدياً ثوب الطاعة والفضيلة، متحلياً بالمناقب الحميدة، باذلاً جهده، في إصلاح نفسه أولاً ومجتمعه ثانياً، منزّهاً نفسه عن كل ما يشينها أو يعيبها، متبعاً طريق الهداية ومتجنباً كل فاحشة ورذيلة. وهذا يقوم على ترويض النفس ترويضاً مستمراً، وحملها على الانقياد لما يمليه العقل السليم والضمير الحيّ للقيام بصالح الأعمال. إن في ذلك السعادة الحقيقية في الدارين : دار الفناء ودار البقاء. «من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها».

وكما ورد على لسان سقراط الحكيم : «واجب النفس أن تتهيأ للعالم الآخر بممارسة الفضيلة، إذ أن الفضيلة هي خيرها الحقيقي. والفضيلة علم والرذيلة جهل، وما أن تعلّم الانسان الفضيلة وتبصّره بالخير حتى يتوجه إليهما، أما الشرير فرجل جهل نفسه وخيره» أو كما قال «لاوتسي» : «أن ننتصر على الآخرين هو الفوز، أن ننتصر على أنفسنا هي الإرادة».

من هذا المنطلق، كان انصرافي إلى مطالعة أخبار هؤلاء الحكماء والأولياء من روحانيين وموحدين وعبّاد أتقياء ورعين، عبر العصور، وتقصّي آدابهم وأخبارهم ومواعظهم في ما تيسّر لي في هذا الشأن من مراجع وكتب، وقد تجمعت لديّ مخطوطات عديدة، مستقاة كلها من بطون المؤلفات والكتب، وكان -بالتالي- هذا الكتاب الذي جعلت عنوانه :

«مناهل الحكماء والأولياء، ومآثر الأعلام الموحدين».

وقد ضمّ بين دفّتيه خلاصة مطالعاتي، مقسمة إلى ثلاثة فصول مع خاتمة :

الفصل الأول : دعاة التوحيد عبر العصور -الحكماء الروحانيون- سِيَرهم وآدابهم ومواعظهم الروحية، الدعوة التوحيدية والأقوال الحكيمة.

الفصل الثاني : الأولياء الصالحون والتقّاة الورعون، والعبّاد الزاهدون والمتنسكون.

الفصل الثالث : الموحدون المسلمون الدروز. نشأتهم ومآثر بعض أعلامهم ومشاهيرهم، نساءً ورجالاً، دنيا ودين، أعمالاً وأقوالاً.

وإني إذ أضع هذا الكتاب بين أيدي القراء الكرام، فلا أتوخّى سوى نشر المعرفة وإتمام الرسالة التي نذرت نفسي لها كل حياتي، ولكي يبقى أثراً متواضعاً من بعدي، سيما وأنني «بدأت أترنّح على دروب خريف الحياة» و «لم يبقَ في روزنامتي إلا الورقة الأخيرة».

ن . ز

الفصل الأول

الحكماء الروحيون :
"دعاة التوحيد عبر العصور"
سيرَ ومواعظ وأقوال حكيمة.

فهرس الفصل الأول

الحكماء الروحيون، دعاة التوحيد

«الله سبحانه وتعالى معلّ علة العلل. العلّة هو العقل الكلّي، والعلل هي المخلوقات. وعقولنا هي جزء من العقل الكلي، وبقدر صلاحنا يتنامى هذا الجزء، حتى يصل إلى حدّ الإمامة، وإن يبلغها أبداً».

«كل شيء في الأديان يكتسب قداسة مع الزمن، فينسى الناس الجوهر، ويتمسكون بالمظاهر، مبتعدين عن المبدع، لأنه بعيد عن حواسهم القاصرة»[1].

«ودامت الحال هكذا حتى جاء «أخناتون»، وهو أخنوخ عند العبرانيين، وإدريس عند العرب، وأمحوتب عند المصريين، وهو هرمس الهرامسة. فنشر دعوة التوحيد بالدعوة إلى «أتوم» الإله المتجلّى قبل عشرات القرون. كما أن امحوتب قبل أخناتون بزهاء عشرين قرناً، كان قد دعا إلى توحيد «أتوم» نفسه.

وامحوتب هو هرمس الهرامسة عند اليونانيين ويلقب بإله الحكمة»[2].

«والتوحيد عمّ الدنيا على يد دعاة، منهم «زاما» الذي جاء من اوروبا إلى المشرق، ونزل في الهند مبشراً بالتوحيد. كما فعل في بلاد فارس «إيما»، وكلاهما مع «كريشنا» نادوا بالصدق والحق وخلود الروح والتقمص.

. . . «كما أن الموحدين في مصر أيام العبرانيين كان مثالهم الأعلى هرمس الهرامسة، وقد جمع بين عبقرية الدنيا وقداسة الدين. وهو أول من نادى بالتوحيد في وادي النيل قبل شريعة موسى -عليه السلام-، وكان يعتبر الفرعون «أتوم» هو المبدع متجلياً لهداية المصريين (٢٤٢٠ ق.م)، متبعاً دعوة «شطنيل» و «راما» في الهند. وكانت الأضاليل قد شاعت بعد «أتوم» في مصر، فجاء هرمس بعد أربعة عشر قرناً وكشف التوحيد المرتكز على العقائد التالية :

أ- إيمان بإله واحد متأنّس متجلّ بالناسوت، هو «البّار» عند شطنيل، و «أتوم» لدى هرمس.

ب- التقيّة في الدين.

ج- جوهرية النفس وعدم تجزئتها ولا تعدّدها، وخلودها ومقاضاتها.

د- العبث بما كان سائداً من تكاليف ونبذ زخارف الحياة، والسعي لإدراك الحق بالمطالعات الروحية، وبمشافهة الخالق المبدع والتضرع إليه» (٣).

«وفي عهد موسى، كان «شعيب» و «أشعيا» و «أمليخا» و «أرميا»، كانوا من أصدق الدعاة. وكان أمليخا يقول لجماعته من اليهود: ابتعدوا عني يا كفرة. ألم تُدعوا إلى الميثاق المنتظر، ميثاق قبة الزمان، فكفرتم به وأنكرتموه، ؟ فأنزلت عليكم اللعنة والمذلّة والتفرقة والتشريد. ونشأ بينهم فريق الصدق الذين كانوا يسمّون «الأسينيّين»، وهم أهل التوحيد، إلتجأوا إلى شاطئ البحر الميت هرباً من الفجور، ليعتصموا بالعفة والزهد. وشجاعتهم أمام الموت تعود إلى إيمانهم بالتقمص، ولكنهم تشردوا قبل ظهور دعوة المسيح»

... «أما أهم المذاهب الباطنية العرفانية فهي «الديونيسية» نسبة إلى الفيلسوف ديونيس الذي لُقّب بإله الخمرة عن حمق وغيّ، وهو بالحق إله الخمرة الإلهية، نظراً لسموّ نفسه ونزعته الألوهية المتناهية شفافية وقداسة» (٤).

«كما أن «أورفوس» الحكيم الروحي، انتظمت حوله جماعة باطنيون، أُطلقت عليهم «الأورفيّة» والتي كانت من تعاليمها:

- التنقلات المستمرة للروح حتى تطهر وتصفو وتلحق بعالمها.

- الزهد في الدنيا، وقِدَم الانسان على الأرض.

- الإيمان بإله متأنس، هو «ديونيس» (٥).

ثم طوّر هذا المذهب وهذّبه «فيثاغورس». أما أسس عقيدتهم فهي: خلود الروح، إله متأنس، زهد بالدنيا، تقمص مستمر حتى يوم الحساب».

... «ومن هؤلاء الحكماء الروحيين، أيضاً، سقراط الذي جاء بعد فيثاغورس، وكان فيثاغورس يعتمد الرموز والألغاز، وقد هاجر إلى مصر وبقي

فيها اثني عشر عاماً يحلل المخطوطات في الأهرام، ويحلّ رموزها المستعصية، حيث ذهل به الكهنة والعرّافون.

- افلاطون، تعلم على يد سقراط، ثم هاجر الى مصر للاطلاع على آثار «هليوبوليس» (مدينة عين شمس، اليوم)، وبلدة «أتوم» ثم على تلّ العمارنة بلدة أخناتون.

-«بارمينيد» أحد تلامذة فيثاغورس الصادقين. كان يؤكد أن العالم يقوم على مبدأين: النور والظلمة، الخير والشر، وأن الواحد الأحد هو حقيقة الكون.

أما سقراط، فلقّب (أبو الفلاسفة)، وهو مؤسس علم الأخلاق. كان يلبس رداءً واحداً صيفاً وشتاء، ويتحدث عن نفسه كخادم لله تعالى. عاد بعدها إلى اليونان ينشر الفضائل. ومن مؤلفاته الشهيرة (المدينة الفاضلة).

- «طاليس» -ارسطوطاليس- تتلمذ على يد أفلاطون، وكان من جملة الحكماء السابقين.

- «الاسكندر الكبير» كان عملاق فكر وخُلُق، إفتتح البلدان ونشر الدعوة الى عبادة الله الواحد، داعياً لترك عبادة الأصنام، التي كانت سائدة آنذاك.

وهكذا فإن المدارس الروحية اليونانية: الديونيسية والأورفية والفيثاغورية والأفلاطونية، تدل على متانة الصلة بينها وبين مدرسة الامام حمزة، إمام الموحدين الدروز»[٦].

. . . «وفي الهند، كان قديماً (بوذا) الذي قال: لم يكن ثمّة ليل ولا نهار، ولم يكن إلا الواحد الأحد ولا شيء سواه. وكان يؤمن بأن الحقيقة وسط بين طرفين، إنها الاعتدال، وهل مسلك التوحيد إلا وسطاً بين طرفين؟ والمسلك الوسط يعني التوحيد: أي المذهب القائم بين التنزيل والتأويل. فالتنزيل شرح حرفيّ لما أنزل الله تعالى من كتب، والتأويل الغوص في الغيبيات من الكلمات والركون إلى مدلولاتها. فالمسلك الوسط هو عدم الإفراط في الغيبيات وتحكيم العقل في الآيات دون تحريف معانيها»[٧].

«وكان أيضاً في الهند «لاوتسي» كان يعتقد بقدم العالم، وأن الله هو مبدع كل شيء، وقادر على كل شيء، وهو غامض لأنه فوق الصفات والأسماء.

- «أسوكا» ملك بوذي وفاتح كبير، وصلت فتوحاته إلى اليونان ومصر وسوريا. ومن أقواله الشهيرة: «إن الفتح الصحيح ما تفتحه الشريعة لا السيف».

- «شومار راجبال» الأمير الهندي الذي جهر بالتوحيد إبان نشاط الداعي الفاطمي «بهاء الدين المقتنى».

«بعد هؤلاء انبثق في بيت لحم نور السيد المسيح وحوارييّه الأربعة الأطهار: يوحنا، متى، مرقس ولوقا. فوطدوا دعائم التوحيد ونشره قبل أن تلعب به أيدي الغلوّ والاجتهاد والزخارف، وهم مصابيح المسيحية الأولى» [8].

«أخيراً ظهر في مكة النبي محمد (صلعم)، فبشر بالتوحيد وأنزل عليه القرآن الكريم. وكان حوله جماعة أطهار، منهم: سلمان الفارسي ورفاقه، «المقداد» أول من عدا به فرسه في سبيل الله، و «أبوذر الغفاري» الذي خاصم الخليفة عثمان لطمعه في مال الأمة. وكذلك معاوية الذي أوعز للخليفة عثمان فطرده، حيث مات وحيداً في الصحراء. و «عمار بن ياسر» الذي بذل دمه في ساحة الجهاد تعزيزاً للاسلام، والذي قال فيه الامام علي- رضي الله عنه-. يوم وفاته: «كل حرير الدنيا وديباجها ما يصلح أن يكون كفناً لشهيد جليل وقدّيس عظيم من طراز عمار»[9]. ثم «عثمان بن مضعون» الذي أرسله الرسول الكريم على رأس وفد عربيّ إلى الحبشة لنشر دعوة الاسلام فيها، ولقّب لذلك بالنجاشي»، إضافة إلى العديد العديد من الصحابة الكرام - مهاجرين وأنصار-.

«وهكذا رافق التوحيد الاسلام لأنه من صميمه وآمن بقرآنه» [10]

«وبهذا توضحت مسالك عمدة التوحيد عبْر كل شريعة ظاهرة، بلسان أقطاب زمنيين وروحيين. فليتعظ الضالون، وليتفتحوا على خمائل الحقائق الناصعة، ويكفّوا عن المتاجرة بالمقدسات» [11].

«إن دعوة التوحيد على عمق زهدها بالدنيا تدعو الى حسن التعايش والحب

والوداد، لأنها تعتبر كل ذي صلاح وإصلاح أخاً. ومن شذّ من أبناء هذه العقيدة عن هذا الخلق وهذا المبدأ فليس موحداً قط»[١٢].

المراجع :

١- د. سامي ابو شقرا : «عقيدة الدروز في عميق جذورها ومقوماتها وأعلامها».

منشورات مكتبة ناصيف. عماطور-الشوف. ١٩٨٧ . ص ٣٨و٣٩

٢- المرجع نفسه ص: ٤٠ . وكذلك «الانسان روح لا جسد» للدكتور عبيد. ص ٥٤و٥٥ وما بعدهما.

٣- ابو شقرا : المرجع السابق ص ٨٣ .

٤- المرجع نفسه. ص ٩٢ . مستشهداً بأقوال :

٥- جعفر ياسين : «الفلسفة اليونانية» ص: ٢٠ وما بعدها. دون تاريخ، ولا دار نشر.

٦- ابو شقرا : ص ١٠٣

٧و٨ : نفس المرجع، ص ١٠٦-١١٨

٩- المرجع نفسه ص: ١٤٣ عن كتاب : «رجال حول الرسول» (صلعم) للعلامّة السبيتي ص ٢٨٧ دون ذكر التاريخ ولا دار النشر.

١٠-١١-١٢: ابو شقرا. نفس المرجع السابق ص ١٣٦-١٤٣-١٦٦ .

من أقوال النبي شيث ـ عليه السلام ـ *

«يجب على المؤمن أن يتحلّى بست عشرة خصلة :

١ – السمع والطاعة للملك الرحيم الذي استخلفه الله في الأرض، وملّكه أمر العباد .

٢ – المعرفة بالله تعالى وملائكته من السمائيّين والروحانيين وحملة العرش وأهل طاعته .

٣ – معرفة الخير والشر . أما الخير فليرغب به، وأما الشر فليحذر من فعله .

٤ – برّ الوالدين .

٥ – اصطناع المعروف بقدر الطاقة .

٦ – المؤاساة للفقراء .

٧ – التعصب للغرباء .

٨ – الشجاعة في طاعة الله تعالى .

٩ – العصمة من الفجور .

١٠ – الإنابة بالصبر واليقين .

١١ – صدق اللهجة واللسان .

١٢ – العدل بالإيمان .

١٣ – القنوع في الدنيا .

١٤ – الشكر لله تعالى على ما أولى خلقه من نِعَم .

---

* شمس الدين الشهروزي : «تاريخ الحكماء» . تحقيق عبد الكريم شويرب . منشورات جمعية الدعوة الاسلامية العالمية، ليبيا، ١٩٨٨ . (ص: ٥٧ و ٥٩) ـ بتصرّف ـ .

١٥ - الحلم، وحمد الله على مصائب الدنيا دون اعتراض.

١٦ - الحياء وقلة المماراة.

«ومن أقواله: صديق في الله يودّك خالصاً، خير من أخٍ شقيق يتمنى ميراثك»

- أفضل أمر الدنيا الثناء، وفي الآخرة النجاة في المعاد.

- الحكمة تورث صاحبها فراش التواضع، وبها ينال المعرفة الحقيقة، ويحسن الثقة، وتنزل الرحمة بعدل السلطان، ويكثر البرّ ويظهر الأخيار، وتقلّ الذنوب».

هرمس الهرامسة

سيرته :

هو أخنوخ عند العبرانيين، وإدريس عند العرب، وإله الحكمة عند اليونان، ويسمى عندهم «طرسمين». كان أول من تكلم بالأشياء العلويّة، وأول من بنى الهياكل ومجّد الله فيها، وأول من أنذر بالطوفان. كان مسكنه بمصر (الصعيد)، ولد في مدينة منف وكانت دار الحكمة فيها. بنى الأهرام وصوّر فيها جميع الصناعات نقشاً حتى لا تضيع من بعده، وأشار فيها إلى العلوم برسوم لمن بعده.

خرج هرمس من مصر ودار الأرض كلها، ثم عاد إلى مصر فرفعه الله تعالى بعد اثنتين وثمانين سنة قضاها في دعوة الخلائق من سائر أهل الأرض إلى دين التوحيد وعبادة الخالق وتخليص النفوس، والحضّ على الزهد بالدنيا وطلب الخلاص في الآخرة. وكان حسن الوجه، برّاق العينين، متأنيا في كلامه، كثير الصمت، إذا مشى نظره إلى الأرض.

وقد نقش على خاتمه الذي يلبسه كل يوم «الصبر مع الايمان يورث الظفر»، وعلى خاتمه الذي يلبسه في الأعياد «تمام الأعياد الأعمال الصالحة»، وعلى خاتمه الذي يلبسه إذا صلى على ميت «الأجل حصاد الأمل، والموت رقيب غافل».

وكتب على المنطقة التي يلبسها دائماً «حفظ الفروض تمام الدين، وتمام الدين كمال المروءة والشريعة»، وعلى المنطقة التي يلبسها وقت الصلاة «من نظر نفسه فاز وشفاعته عند ربه الأعمال الصالحة».

وانتهت دعوته إلى توحيد الباري تعالى إلى مشارق الأرض ومغاربها، وشمالها وجنوبها، حتى لم يبقَ على وجه الأرض آدمي إلا تديّن بها»[1].

ولعل «امحوتب» العلاّمة الذي اختصر الحكمة المصرية، فرفعه المصريون إلى مصاف الآلهة، كان أقدم «معلم» رجع إليه عقلاء التوحيد، واعتبروه الاعتبار الأسمى حتى التقديس. ولقب اليونانيون أمحوتب بهرمس الهرامسة، (أي عالم

العلماء)، وغلب اللقب على الاسم الأصيل حتى صار علماً لصاحبه. وفي بعض الكتب أن هرمس المثلّث بالنبوّة والحكمة والملك، هو الذي أمر بالدعوة إلى دين الله، والقول بالتوحيد وعبادة الخالق، وتخليص النفوس من العذاب، والحضّ على الزهد بالدنيا»[٢].

مواعظه وآدابه :

قال عليه السلام : «لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام بها على خلقه. ولم يكن البشر ليهتدوا إلى معرفة عظمة الخالق لولا أن عرّفهم بنفسه، وهداهم إلى عبادته بالوسائط من حملة وحيه المختارين المرشدين إلى تقوى الله وسُبل طاعته، الموقفين لنا على حدود أوامره وزواجره، والسلوك في مسالك رضاه المؤدية إلى الحياة الأبدية والنعيم المتصل».

. . . «لا ترفعوا دعاكم إلى الله تعالى بالجهالة، ولا بالنيات المدخولة، ولا تتعدوا حدوده ونواميسه. ثابروا على الصلاة جماعة بنيّات خالصة صافية، وتأدية فروض الله بالتمام والكمال، والخشوع والخضوع، من غير عُجب ولا استكبار. وإياكم والتفاخر وعليكم بالتواضع. واعلموا أن تقوى الله سبحانه هي الحكمة الكبرى والنعمة العظمى، لأن الله سبحانه أحبّ عباده ووهب لهم العقل، وكشف لهم عن السرائر الربانية وحقائق الحكمة. فارفعوا إليه صلواتكم ودعاءكم بصفاء من ضمائركم، لأنكم إن تناجوه بقلوب سليمة خاشعة يسمعْ منكم ويستجب لكم، ويفتح لكم أبواب الرشد، ويردّ عنكم المخاوف. إن الله يستبعد القلوب الملطخة والنيات المدخولة».

. . . «عوّدوا نفوسكم الوقار والسكينة، وتحلّوا بالآداب الحسنة، وإن تكن من أحدكم زلّة، أو ارتكب منكراً، فليقلع عنها، فإنها وإن سُترت في الدنيا فانها تفضح يوم الدين. ولتكن شهواتكم مصروفة إلى طلب الحمد، ولا تصرفوها إلى الشرور ومقابح الأمور».

. . . «أهربوا من المآكل الخبيثة والمكاسب الدنيئة، فإنها وإن ملأت أكياسكم من

المال فإنها تفرغ قلوبكم من الإيمان. وليكن مقامكم في هذه الدنيا مصروفاً إلى محبة الدين والحكمة، وإن شرف الفضيلة أنفع من ذخائر الذّهب والفضة، فإن هذه تفنى وثواب الله لا يفنى».

... «ساووا بين ظاهركم وباطنكم في المخاطبات، وليكن الفقر مع الاستقامة أحب إليكم من الثروة مع الإثم، لأن المال يفنى وأعمال البرّ والخير تبقى. وإن جادلكم المخالفون لكم في الدين بسوء القول، فلا تقابلوهم بالمثل، بل بالهداية واللطف في المخاطبة، وقولوا: اللهم أصلح بريّتك، واجْرِ عليهم من فضائلك ما يقودهم إلى الإلفة والهدى».

... «لتصُمْ جوارحكم عن المآثم والفواحش. واظبوا على بيوت الله واعمروها بالصلاة والدعاء. وإذا أدّيتم فرائضكم، وعيّدتم أعيادكم، وعدتم إلى منازلكم وعيالكم، فاذكروا الفقراء المساكين من إخوانكم، ومدّوا إليهم أيديكم بالسرّ، وعالجوا المرضى منهم وأطعموا الجياع. عزّوا أهل المصائب وآسوهم بالقول الحسن والفعل الجميل. ومن آتاه الله فضلاً في دنياه فلا يفتخرنّ على أخيه، فإن الله سبحانه خلق الفقراء والأغنياء، وهم عنده سواء».

... «لا ينبغي لطالب الحكمة أن يكون طلبه لها ذريعة فيها ليُثاب عليها، لكن ينبغي أن تكون له رغبة في طلبها لفضلها على كل شيء. فمن فضّل العلماء، وقصد العدل، واستفاد من العمل الصالح، واجتهد في طلب الحكمة، وتزيّن بالأدب، أصاب ما يرغب فيه من خير الدنيا والآخرة».

... «أفضل ما خلق الله في هذا العالم الناس، وأفضل ما في الناس العقل، وأفضل أمور العقل تدبير صاحبه والكفّ له عن الذنوب، وأحمد الأشياء عند أهل الأرض والسماء لسان ناطق صادق بالحق والعدل. ولا يستطيع أحد ان يجد الخير والحكمة إلا أن تكون فيه ثلاثة أشياء: وزير، ووليّ، وصديق: فوزيره عقله، ووليّه عفّته، وصديقه عمله الصالح. ولكل شيء حيلة إلا الموت، وكل شيء فان إلا الإثم، وكل شيء يبيد إلا العمل الصالح، وكل شيء يطاق تغييره إلا الطباع، وكل شيء يُقدر على إصلاحه إلا الخلق السوء، وكل شيء يستطاع دفعه إلا القضاء» [٣]

. . . وقال أيضاً : «إن الحقائق العظيمة مستورة تحت حجاب السرّ، ولا يكاشَف بالمعرفة إلا من جاز في التجارب التي جُزنا فيها . فالحقائق تعطى على قدر مبلغ العقول، ولا يجوز إفشاؤها لئلا يتهوّسون بها، ولا للأشرار لئلا يسخّروها لعمل الشر، فاحفظها في صدرك، وانشرها بلسان أعمالك، وليكن العلم قوّتك، والناموس سيفك، والصمت ترْسك» (٤)

ومن أقواله في مخاطبة النفس :

. . . «يا نفس، لا تذميّ الدنيا ثم تتهمينها بالخديعة والغرور. لا يا نفس !! الدنيا ليست هي المخادعة الغرورة، وإنما أنت المخادعة لذاتك، لأن الدنيا أظهرت لك يا نفس جميع ما في طبعها من نعيم وبؤس، فاغتبط الانسان الضعيف بنعيمها واعتقده دائماً، وأُنسيَ بؤسها . ثم يقول : خدعتني الدنيا . ولو رجع إلى حقيقة حاله لوجد أنه هو المخادع نفسه والمخدوع» .

. . . «يا نفس، لا تكن أخلاقك في هذه الدنيا كأخلاق الصبيّ الذي لا إدراك له : إن أُطعم ورُفق به رضي وضحك، وإن شدّد عليه بكى وغضب، فهو بينما يكون ضاحكاً حتى يكون باكياً . وليست هذه هي أخلاق الذات الوحيدة في ظلمة العقل، بل هي أخلاق مشتركة مذمومة» .

. . . «واعلمي يا نفس علم اليقين، أن مهلكات الأمور ثلاثة أجناس : أولها كفر الشرك وسائر أنواعه، والظلم وسائر أنواعه، والتلذذ وسائر أنواعه، وجامع هذه الأجناس وسائر أنواعها هو حب الدنيا . واعلمي أن الإنسان لم يخلق لمعنى من المعاني إلا للعلم والعمل به، فمن منع ما عنده من العلم عن مستحقيه منعه الله منفعته في الدنيا والآخرة . وإن عالَم الطبيعة صفْو وكدر، فتجرّعي، يا نفس، كدره قبل صفوه، واعلمي أن شرب الصفو بعد الكدر خير من شرب الكدر بعد الصفو . إن الماء الصافي النقي يهدي ويؤدي بالبصر إلى سائر ما في ذاته، فإن شابَهُ الكدر والوسخ حجب النظر عن إدراك سرائر الأشياء المستكنّة فيه . وكذلك نور الشمس، إذا أشرق على الأشياء كان النظر مدركاً لها بالحقيقة، فإذا اعترضته البخارات والغبار والدخان حيل بين البصر وإدراكه تلك الأشياء» .

. . . «يا نفس، إن أهل الدنيا مظلومون ظالمون، ذلك أنهم يستقبلون النفس الواردة إلى دار الهموم والأحزان بالطرب والسرور، ويشيّعونها إذا صدرت عنها بالبكاء والعويل. وكفى بهذا، يا نفس، ظلماً ومخالفة للحق والعدل. يا نفس، إن القمر نيّر ما دام نور الشمس وارداً إليه، فإذا عرض أن يحول بينهما ظلّ الأرض انخسف وأظلم. فكذلك النفس، ما ورد إليها من نور العقل فهي مضيئة منيرة، فإذا توسّطت أسباب الكون والفساد حيلَ بينهما فعدمت النفس نورها، وانكسفت وأظلمت. يا نفس، إستمعي ما أقول: لقد تأملت للّذات كلها، فلم أجد ألذّ من ثلاثة أشياء: الأمن والعلم والغنى. فمن طلب العلم فليذهب إلى معنى التوحيد، فإنه بالتوحيد تكون المعرفة والعلم والتحقيق، وبالإشراك-الشرْك- يكون الجهل والشك. ومن طلب الغنى فليذهب إلى رتبة القنوع، فإنه حيث لا قنوع لا غنى. ومن طلب الأمن فليعتقد التمني لمفارقة عالم الطبيعة، وهو الموت الطبيعي».

. . . «يا نفس، أنت صافية فلا تصبحي كدراً. وأنت نيّرة منيرة بذاتك فلا تصبحي مظلماً. وأنت حيّة ناطقة فلا تصبحي ميتاً أبكم. أنت طاهرة نقية فلا تصبحي نجساً دنساً. هذه دار المحسوسات ودار المعقولات، فتخَيّري، يا نفس، أيهما شئت، واحذري أن تضلي وتتوهي»

. . «يا نفس، من غرس طيباً أكل طيباً، ومن غرس خبيثاً أكل خبيثاً. إن ثمرة العمل الصالح كأصلها، وثمرة العمل الردئ كأصلها، وقليل من العلم والعمل به أنفع بكثير من العلم مع قلة العمل به. فرحم الله من عَلمَ وعمل وعلّم، وقرأ وفهم وفهّم، وكان وسيطا بالحق، ناطقاً بالصدق مقترنا بالتوفيق. إن ذلك النور الذي أودعه مولاكم في قلوبكم هو الحق والهدى بصفائه، والرأفة والرحمة والشفقة برمّته، والشدّة والصلابة والغلظة بهذا الصفاء وتلك الرقة، تنصبّ هذه على أعداء الحق. ولكن الموحدين أشداء على المرتدّين الجاحدين، رحماء فيما بينهم»[٥].

المراجع :

١ – الشهرزوري : «تاريخ الحكماء» . مرجع سابق . ص ٦٠و٦١ .

٢ – يوسف ابراهيم يزبك : من مقدمة كتاب «الدولة الدرزية» تأليف «بيجيبه دي سان بيير» ترجمة حافظ ابو مصلح . المكتبة الحديثة . بيروت . ط . ١ . ص ١٢و١٣ .

٣ – المواعظ والأقوال من كتاب الشهرزوري–مرجع سابق . من الصفحات ٦٦–٧٨ (بتصرف)

٤ – محمد خليل الباشا : «التقمص» دار النهار للنشر . بيروت . الطبعة الأولى ١٩٨٢ .

٥ – عن كتاب «الشريعة الروحانية» مجهول المصدر من حيث المؤلف والتاريخ ودار النشر . من الصفحات ٢٩–٣٣–٤٨–٥١–٥٤–٥٨–١٣٤ – (بتصرّف) .

من وصايا لقمان الحكيم لولده تاران

«يا بني»

«عليك بالصبر واليقين ومجاهدة نفسك، أؤمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر، واصبر على ما أصابك، وحاسب نفسك قبل أن تسبق إليها، أكثر من ذكر الله فإن الله ذاكر من ذكره. عليك بالخير واحذر من الشر، فإن الخير يطفئ الشر. لتكن ذنوبك بين عينيك، وعملك خلف ظهرك. فرّ من ذنوبك إلى الله ولا تستكثر عملك. أطع الله فإن من أطاعه كفاه. جالس الحكماء فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما تحيا الأرض بماء السماء. إلزم الرجل العالم تستفد من علمه، ولا تصحب الجاهل فتصير مثله. إذا سمعتَ كلمة أمِتْها في قلبك ولا تكشفها لئلا تصير جمرة فتحرقك».

«يا بني: إذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك. من عاملك بالقبيح فعامله بالمليح، وكل يلقى عمله. باقة بَقْلٍ على مائدتك خير من خروف على مائدة غيرك. الموت على الطاعة خير من تملّكٍ المملكة بالمعصية. من لم يعظ نفسه لم ينفعه وعظ غيره. إحذر النميمة فإنها تفرق بين المحبين والأحباب. أدّب ولدك وهو صغير تفرح به وهو كبير. إذا رأيت إنسانا رزقه الله تعالى فلا تحسده حتى لا تكون بضدّ خالقه تعالى».

«يا بني: إني أوصيك بخلال إذا تمسكت بها لم تزل سيداً: إبسط خلقك للقريب وللبعيد، وامسك جهلك عن الكريم واللئيم. واحفظ إخوانك، وصلْ أقاربك وأمّنهم من قول ساعٍ أو سماع باغٍ يريد فسادك ويروم خداعك، وليكَن إخوانك إن فارقتهم أو قاوموك لم تُعبْهمٍ ولم يعيبوك. إحذر المزاح فإنه سبب الخصومة وإخراق الهيبة. إغلب غَضبك بحلمك، ونزفك بوقارك، وهواك بتقواك، وشكّك بيقينك، وباطلك بحقك، وشحّك بمعروفك. كن في الشدّة وقوراً، وفي الصلاة متخشّعاً، وإلى الصدقة مسارعاً».

«يا بني : لا تهن من أطاع الله، وتكرّم من عصى الله، ولا تدّع ما ليس لك، ولا تجحد ما عليك. لا تتعرض للباطل ولا تستحِ من الحق، ولا تقل ما لا تعلم، ولا تتكلف ما لا تطيق، ولا تتعظّم، ولا تذع السّر.

إن أُسيء إليك فاغفر، وإن أُحسن إليك فاشكر وإن ابتليت فاصبر، إنصح المؤمنين وعُدْ مرضاهم واشهد جنائزهم وعزّ فقراءهم. أقرض خلطاءك، وانظر غرماك. إلزم بيتك، واقنع بقوتك، تخلّق بأخلاق الكرام، واجتنب أخلاق اللئام. إجلس بحلم وانطق بعلم، وقلّل من الكلام تدخل الجنة بسلام».

«يا بني، إن المقام في الدنيا قليل، والركون إليها غرور، فكن سمحاً سهلاً قريباً أميناً، وكلمة جامعة. إتّق الله في جميع أحوالك ولا تعصه في شيء من أمورك»[1].

ومن وصاياه أيضاً :

«حذار، حذار يا بنيّ أن تزدري أي إنسان من الناس، فقد يستنسر البغاث وقد تستأسد الثَعالب. والبغاث إذا استنسر كان أحدّ مخلباً وأقوى منسراً من النسور. والثعالب إذا استأسدت كانت أشد بطشاً من الأسود. وأنت في الواقع لا تعرف أي الناس من البغاث وأيهم النسور والأسود أو الثعالب، لذلك أوصيك برحابة الصدر تجاه الأقوياء والضعفاء بالسواء..

واحذر يا بني الذين يغالون في مدحك قبل أن تحذر الذين يغالون في قدحك. واحذر أكثر من المادحين والقادحين أولئك الذين لا يمدحون ولا يقدّحون، فسلاحهم أقوى من سلاحك، لأن صدورهم أرحب من صدرك. وهم يعرفون أن مادح السلطان كاذب ولو صدق، وأن قادح السلطان صادق وإن كذب. لذلك تراهم لا يمدحون ولا يقدحون».

«واعلم يا بني أن لكل ما في الدنيا نقيضاً : فحياة وموت، نور وظلمة، حرارة وبرودة، حركة وسكون، رجاء ويأس، إيمان وشكّ، فرح وحزن، عدل وظلم، حق وباطل... إلى ما هنالك من متناقضات لا تقع تحت الحصر، فهي في الأكوان حجر الزاوية، ومحور الدائرة، ونقطة الانطلاق»[2].

المراجع :

١ - «التربية التوحيدية» منشورات المجلس الدرزي للبحوث والانماء. إعداد اللجنة الثقافية في مدرسة «العرفان» التوحيدية (بدون تاريخ) ص ٤-٢٧ (بتصرّف)

٢- ميخائيل نعيمه : «في مهب الريح» مؤسسة نوفل . بيروت. ط ٧/ ١٩٨٢ . ص ٥٢و٥٤

الحكماء اليونانيون

«الحكماء الفلاسفة هم من أرفع الناس طبقة، وأجلّ أهل العلم منزلة.

وأعظم هؤلاء قدراً عند اليونانيين: أنباذقليس، فيثاغورس، سقراط، أفلاطون وأرسطوطاليس.

أول الحكماء-قديماً- «لقمان» تلميذ داود عليه السلام، وكان أنباذقليس تلميذه، ووصفه اليونانيون بالحكمة حيث لقبوه بالحكيم الربّاني، ثم وُصف بعده فيثاغورس الذي جالس بمصر أصحاب سليمان بن داود-عليهما السلام- وتعلّم العلوم الطبيعية والإلهية، ثم أخذ عنه الحكمة سقراط الذي اقتصر على المعالم الإلهية وأعرض عن ملاذّ الدنيا، داعياً إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام. ثم أفلاطون تلميذ سقراط، وقد تخلّى عن الناس لعبادة ربه تعالى. ومن بعده كان أرسطوطاليس-تلميذ أفلاطون-، وكان يسمّى في حداثته «الروحاني». وفي أيامه استتبّ الملك للاسكندر المقدوني-ذي القرنين- وانقمع به الشرك في بلاد اليونان.

فهؤلاء كانوا يوصفون بالحكمة، وليس بعدهم حكيم يسمّى بها. مات سقراط بعد أن مَهَر أفلاطون بالحكمة والفلسفة، فقام مقامه، ولما بلغ أرسطوطاليس السابعة عشرة من عمره سلّمه أبوه إلى أفلاطون يعلّمه نحو عشرين سنة. وكان أرسطو بدوره معلماً للاسكندر الكبير، الذي أصبح فيما بعد ملكاً على بلاد اليونان». *

خصائص الفلسفة اليونانية:

«لقد كان المصريون والبابليون، وغيرهم من القدماء، إذا أرادوا تعليل ظواهر الكون، يخلطون أحكام العقل بأوهام الخيال. فلما جاء اليونانيون حاولوا أن يتقيدوا بالعقل في حكمهم على الأشياء. يدلّ على ذلك قول أفلاطون الحكيم:

* الشهرزوري: «تاريخ الحكماء» - مرجع سابق. (ص: ٦٣)

«إن الفلسفة هي العلم بالحقائق المطلقة المستترة وراء ظواهر الأشياء»، وقول أرسطو «إن الفلسفة هي العلم بالأسباب القصوى، أو العلم بالموجود من حيث هو موجود».

. . . «فالفلسفة اليونانية لا تقتصر إذاً على إدراك الأمور الحسّية الظاهرة، بل تغوص على الحقائق العميقة، وتتحرّى الحقيقة بذاتها، وتتعرض للكشف عن غاية الوجود.

. . . «ونستطيع أن نلمس صفة أساسية تتميز بها الفلسفة اليونانية عن غيرها، وهي الجمع بين الخير والحق والجمال، في وزن واحد من الإتّساق. إن الحقيقة التي لا تكون جميلة فهي مموّهة أو ناقصة، والنظام الذي لا يكون جميلاً هو نظام مشوش فاسد. إن صفات الوجود المطلق أن يكون كاملاً، وإنها لم تسلك طريق الشك للوصول إلى اليقين.

. . . «ومن مبادئ هذه الفلسفة الاعتقاد أن كمال الشيء مقياس وجوده. وكلما كان الكمال أعظم كان الوجود أصدق وأثبت، ومن خصائصها تحرّرها من سلطان التقاليد. نعم، إن الدولة اليونانية كانت تراقب كل من يخالف عاداتها وتقاليدها وعقائدها، وتعاقبه على خروجه على عادات المجتمع، ولكن هذه القيود الخارجية لم تستعبد ضمائر الفلاسفة، ولم تجعل عقولهم ملكاً للدولة تسيّرها كما تشاء»[١]

. . . «ليس في الحضارات القديمة حضارة تثير الدهشة والإعجاب كالحضارة اليونانية، لأنها جمعت آثار الحضارات البابلية والفارسية والمصرية والفينيقية، ثم أضافت إليها آثاراً فنية رائعة، ومذاهب فكرية مبتكرة، ومبادئ خلقية سامية، يتجلّى فيها الإبداع بأقوى مظاهره. . .

ولكن حضارتهم ليست حصيلة الحضارات السابقة فحسب، إنما هي حضارة أصيلة أطلقت حرية العقل، وجاوزت حدود الزمان والمكان، حتى وصلت آثارها إلى الحضارة الأوروبية الحديثة . . . وقد انتقلت الثقافة اليونانية إلى الشرق بفضل فتوحات الاسكندر التي أدّت إلى تأسيس مدرسة أنطاكية، ومدرسة الإسكندرية»[٢].

لئن كان هذا رأي الدكتور صليبا في الفلسفة اليونانية، من حيث تأثيرها على الحضارة الأوروبية والشرقية، فإنه يُفهم منه-ولو بصورة غير مباشرة-طمس الفلسفة العربية وتشويه دورها وفضلها على الغرب. وبهذه الحالة يكون «إرنست رينان» الفرنسي على حق بقوله : «ليس هناك فلسفة عربية وإنما هي الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية»، بينما-على العكس-هناك الكثير من اعترافات الغربيين التي تؤكد أهمية الفلسفة العربية والحضارة وفضلها على الحضارة الغربية. بَيْدَ أن الأمانة العلمية اقتضت التقيد بالنص الحرفيّ-كما ورد على لسان الكاتب- في كتابه وإن كنا لا نشاركه رأيه كاملاً في هذا الشأن [٣]. من هذه الاعترافات ما ورد على لسان الكاتب الشهير: لويجي رينالدي، «إذ يقول: من فضل العرب علينا أنهم هم الذين عرّفونا بكثير من فلاسفة اليونان، وكانت لهم الأيدي البيضاء على النهضة الفلسفية عند المسيحيين . . وكان الفيلسوف ابن رشد اكبر مترجم وشارح لنظريات ارسطاطاليس، ولذلك كان له مقام جليل عند المسلمين والمسيحيين على السواء. انه مبتدع مذهب "الفكر الحر" . . وهو الذي قال عند موته: «تموت روحي بموت الفسلفة». [٤]

المراجع :

١- د. جميل صليبا : «تاريخ الفلسفة العربية». دار الكتاب اللبناني. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٧٣ . من الصفحات ٢٠-٢٣ . -بتصرف-

٢- المرجع نفسه ص ٣٩ .

٣ -التعليق للدكتور صالح زهر الدين، بعد اطلاعه على البحث.

٤- «تاريخ الفلسفة العربية» تأليف حنا الفاخوري والدكتور جميل جبر . منشورات بدران. بيروت-لبنان . ص ٦٨٦

الحكيم الربّاني :أنباذقليس

«هو من الكبار عند الجماعة الحكماء، وعى الحكمة عن لقمان بالشام، وعاد إلى اليونان. وهو بالجملة، جليل القدر، عظيم الشأن، كثير الرياضة والتألّه، تاركاً الدنيا ومقبلاً على الآخرة. وكان ماهراً في معرفة النفس والمجرّدات وأحوالها وتراكيبها، وهو أول من ذهب إلى الجمع بين معاني صفات الله تعالى، وأنها كلها تؤدي إلى شيء واحد، وليس ذا معان متمايزة، بل هو الأحد بالحقيقة ولا يتكرر أصلاً، بخلاف الأشياء الموجودة. فذات الله سبحانه منزهة عن الصفات والأسماء» [1].

مختارات من أقواله :

«إن العنصر الأول، لما صوّر في العقل ما عنده من الصور العقلية الروحانية، وصوّر العقل في النفس ما استفاد من العنصر، وصورت النفس الكلية في الطبيعة الكلية ما استفادته من العقل، حصلت قشور في الطبيعة لا تشبهها ولا تشبه العقل الروحاني اللطيف. فلما نظر إليها العقل وأبصر الأرواح واللبوب في الأجساد والقشور، ساح عليها من الصور الحسنة اللطيفة الشريفة، وهي صور النفوس المشاكلة للصور العقلية، حتى يدبّرها ويتصرف بها بالتمييز بين القشور واللباب، فيصعد باللّبوب إلى عالمها، فكانت النفوس الجزئية أجزاء للنفس الكلية. وخاصّة هذه المحبة، لأنها لما نظرت إلى العقل وحسنه عشقته، فطلبت الاتحاد به وتحركت نحوه...».

... «ليس لأحد أن يعرف النفس، إلا من كانت نفسه طاهرة زكية، مستولية على بدنه، فعندئذ يعرف ما النفس ويراها رؤيا حسنة لأنها روحانية غير نجسة. ويعرف أنها جوهر لا أكرم ولا أشرف منه، دائم باق لا يموت ولا يفنى. وإن معظم الناس نفوسهم ناقصة كأنها بدن مقطوع الأعضاء، فينكرون شرفها وحسنها وعدم

موتـهـا . وهذا خطأ لا ينبغي لأحـد أن يقع فيـه ، قبل أن يفـحص عنه ويعـرف عَلَنَه وباطنه وظاهره ، فلا يلقي نظرة على القـشور الظاهرة ، بل يحرص أن يلقيـه على روحانية الشيء الباطن ، الذي هو الجوهر الخالص بعينه» .

. . . «هذه الجواهر الخمسة أنوارها متصلة بنور صاحبه ، يستمدّ الذي هو أدنى من صاحبه الذي هو أعلى بوَصْلة واحدة ، لا فرق بينهما إلا أنه يصل إلى الأول قبل الثاني ، وهكذا . . . والوصلة بينهما غير منقطعة إلى أن يصل إلى الطبيعة فتنقطع ، لأن فلك النفس لا يحيط بفلك الطبيعة ، والطبيعة محيطة بفلك الهيولى الثابتة ، والعقل يمدّ النفس بنور الهيولى الأولى فيفيضه على الطبيعة»[٢] .

المراجع :

١- الشهرزوري : «تاريخ الحكماء» . مرجع سابق . ص ٨٠

٢- المرجع نفسه . من الصفحات ٨٤-٨٦-بتصرّف-

فيثاغورس الحكيم *

سيرته :

«كان لفيثاغورس أب اسمه «مينسارخوس» من أهل صور، وكان له أخَوان، واسم أمه «يوثانين» من سكان «ساقوس». ولما غلبت على صور ثلاث قبائل واستوطنوها وجلا أهلها، جلا والده وسافر إلى أنطاكية وأخذ ابنه معه، حيث سافر هذا إلى بلدان شتى طلباً للعلم والحكمة. فَوَرَدَ على المصريين والكلدانيين وغيرهم، ورابط الكهنة بمصر وتعلم منهم الحكمة، وبها وجد السبيل إلى هداية العالم والأمم وردّهم عن الخطايا الكثيرة، لكثرة ما اقتنى من العلوم من كل أمة ومكان. ثم ورد على أهل مدينة الشمس، التي تعرف اليوم بمدينة «عين شمس» فقبلوه قبولاً كريهاً وأخذوا في امتحانه، فلم يجدوا عليه نقصاً ولا تقصيراً، فرحبوا به. ثم مضى من مصر إلى بلاده وبنى له بمدينة أبويه في ساقوس منزلاً للتعليم، فعظم مجده وكبر شأنه، حتى أن عامة ملوك البربر وَرَدوا إليه ليسمعوا حكمته ويستوعبوا من علمه.

لقد كان فيثاغورس من العلماء الزهاد، أخذ الحكمة من أصحاب سليمان الحكيم بمصر، حين دخلوا إليها من بلاد الشام.

. . . «ويقول فيثاغورس : إن فوق عالم الطبيعة عالماً روحانياً نورانياً، لا يدرك العقل حسنه وبهاءه. والأنفس الزكية تشتاق إليه، فمن قوّم نفسه وبرّأها من العجب والتجبر والرياء والحسد، وغيرها من الشهوات البدنية، فقد صار أهلاً للّحوق به والإطلاع على جواهره، والانغماس في لذاته».

مواعظه وآدابه :

«إن الباري تعالى واحد لا كالآحاد، ولا يدخل في العدد، ولا يُدرك من جهة

---

* الشهرزوري : مرجع سابق. ص ٨٧ .

الفكر العقلي ولا المنطق النفسي بصفة، فهو فوق الصفات العقلية، غير مدرك من نحو ذاته، إنما يدرك بآثاره وصنائعه وافعاله. فالموجودات في العالم الروحاني خُصَّت بآثار روحانية، فتنعته من حيث تلك الآثار. والموجودات في العالم الجسماني خصّت بآثار جسمانية، فتنعته من حيث تلك الآثار».

. . . «الوحدة تقسم إلى وحدة غير مستفادة من الغير، كوحدة الباري تعالى، وهي وحدة الإحاطة بكل شيء، ووحدة الحكم على كل شيء، وعنها تصدر الآحاد في الموجودات.

والوحدة تقسم مطلقاً إلى: وحدة ما قبل الدهر، ووحدة مع الدهر، ووحدة بعد الدهر وقبل الزمان، ووحدة مع الزمان. فالأولى وحدة الباري تعالى، والثانية وحدة العقل الأول، والثالثة وحدة النفس، والرابعة وحدة المركبات. والوحدة إما بالذات كوحدة الباري تعالى، أو بالعَرَض كوحدة المخلوقات».

. . . «ولما كانت خلقتنا وبدء وجودنا من الله سبحانه وتعالى، فينبغي أن تكون نفوسنا منصرفة إليه. وإن أحببت أن تعرف الله فلا تصرف عنايتك إلى معرفة الناس، فإنه يمكنك أن تعرف الله باليسير من العلم عن الحكماء. والإنسان الحكيم المراقب لله سبحانه، هو عند الله معروف، فلهذا لا يندم إذا لم يكن معروفاً عند الناس».

. . . «لا تساعدنّ عينيك على النوم قبل أن تتصفّح الأعمال التي قمت بها في نهارك. فإن كنت أتيت مكروها فليذعرنّك، ولئن كنت أتيت رضاً فليبهجنّك، فإن ذلك يوطئ لك ويقربك إلى الفضيلة الإلهية. . . [1]

مقتطفات من أقواله :

«الحاكم الذي لا يعدل في قضائه، أهل لكل رداءة».

«إذا التمست فعلا من الأفعال فابدأ إلى ربك بالابتهال تنجح فيه».

«الأخلق بالانسان أن لا يفعل ما يريد، لكن ما ينبغي».

«من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء، فهو خليق أن لا ينزل به مكروه كغيره، وهي : العجلة، اللجاجة، العُجب والتواني. فإن ثمرة العجلة الندامة، وثمرة اللجاجة الحيرة، وثمرة العجب البغضة، وثمرة التواني المذلّة».

«إن من لا يصبر على طلب العلم، صبر على شقاء الجهل».

«إحذر أن تعمل قبيحاً لا في خلوة ولا مع غيرك. وليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من كل أحد. وليكن قصدك في المال اكتسابه من حلال، وإنفاقه في مثله، فلا تكن متلافاً بمنزلة من لا خبرة له بقدْر ما في يده، ولا شحيحاً فتخرج عن الحرية».

«معاتبة الانسان لنفسه أفضل من معاتبته لأصحابه. فلا تدّنس لسانك بالقذف، ولا تُصْغ إلى مثل ذلك».

«ينبغي أن تعرف الوقت الذي يحين فيه الكلام، والوقت الذي يحسن فيه السكوت».

«شرف النفس أن تقبل النّعَم والمكاره قبولاً واحداً. كما أنه من الأحمد للإنسان أن يحيا وهو على سرير من خشب، وحسن التوكل على الله، من أن يكون على سرير من ذهب وهو متشكك في الله».

«أربعة من البر : كتمان الفاقة، المصيبة، الوجع والصبر عند الممات. وليس بين الموت في الغربة والموت في الوطن فرق، ذلك أن الطريق إلى الآخرة واحد من جميع النواحي».

«ليس الحكيم من حُمل عليه بقدر ما يطيق فصبر واحتمل، ولكن الحكيم من حُمل عليه أكثر مما تتحمل الطبيعة فصبر واحتمل. وقيل له : ما أصعب الأشياء؟ قال : أن تعرف نفسك وتكتم الأسرار».

«من جعل زمانه مصروفاً في طاعة الله سبحانه، فرجاؤه ينبغي أن يكون دائماً لله ومع الله».

«نظر إلى رجل عليه ثياب فاخرة، يتكلم ويُلْحن في كلامه، فقال له : يا هذا، إما أن تتكلم كلاماً يشبه لباسك، أو تلبس ثيابا تشبه كلامك» (٢).

المراجع :

١- المرجع السابق ص ٩٥

٢- المرجع نفسه من ص ٩٦-١٠٦ -بتصرف

سقراط الحكيم *

سيرته :

«كان سقراط الحكيم من تلاميذ فيثاغورس. وكان كثير التوحيد، قليل الأكل والشرب، كثير التعبّد، ويكثر من ذكر الموت. مات بالسمّ وله من العمر مئة وبضع سنين. وذكر أنه مات عن اثني عشر ألف تلميذ وتلميذ تلميذ. له وصايا شريفة وآداب فاضلة، وحكم مشهورة، ومذاهب في الصفات قريبة من مذاهب معلمه فيثاغورس. إقتصر من الفلسفة على العلوم الإلهية والأخلاق. أعرض عن الدنيا وأقام في غار، واشتغل في الزهد ورياضة النفس. وقد خالف قومه في عبادة الأصنام، وقابل خصومه بالحجج والبراهين، مما جعل الكهنة يحقدون عليه، ويطلبون من الملك قتله، متّهمين إياه بالكفر والإلحاد.

وكان أهل زمانه لما سألوه عن الأصنام، صدّهم عنها ونهى الناس عن عبادتها وأمرهم بعبادة الإله الواحد الأحد الصمد، الباري الخالق والحاكم القدّوس، لا الحجر المنحوت الذي لا ينطق ولا يسمع، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر.

ولما علم الرؤساء، في وقته، من الكهنة ما أراده من دعوته، نقموا عليه وشهدوا عليه بالإلحاد ووجوب القتل، فحكم عليه بالموت. ولما سأله الملك، إخْتر أية ميتة تشاء، قال له: بالسمّ، فأجابه الملك إلى طلبه. وسُجن سقراط بانتظار تنفيذ الحكم، وقيّد بالأغلال.

دخل عليه يوماً أحد تلامذته، وهو بالسجن، وقال له: إننا ندفع عنك مالاً وتخرج سراً فتنجو بنفسك. أجابه سقراط: إن هذا البلد الذي فعل بي ما فعل هو بلدي، ولم يوجب عليّ ذلك لأمر استحققته، بل لمخالفتي الجور والعقيدة وعبادتهم للأصنام، وكفرهم بالباري سبحانه. والحال التي أوجبت عليّ القتل هي

* الشهرزوري «تاريخ الحكماء» مرجع سبق ذكره.

معي حيث توجهت، إني لا أدَع نصرة الحق أينما كنت، وهذا قضاء الله فلا مفرّ من قضائه.

ولما كان اليوم الموعود، دخل عليه القضاة، وبكّر تلاميذه بالمجيء إليه، فأزالوا الحديد عن رجليه، ونزل سقراط عن السرير وقعد على الأرض، ثم كشف عن ساقيْه ومسحهما وحكّهما، ثم قال: ليس هناك لذة إلا ويتبعها ألم، ولا ألم الا ويتبعه لذة. صار الحاضرون يتعجبون من صرامته وشدة استهانته بالموت، ثم دخل بيتا فاستحم فيه وصلّى. ولما خرج دعا بولده ونسائه، فقبّلهم وودعهم ووصاهم، وقال لامرأته وقد رآها تبكي: لماذا تبكين؟. قالت: لأنك تموت ظلماً. فقال لها-: أكنت تريدين أن أقتل بحق؟ثم أقبل الخادم وقال له: يا سقراط، إنك جريء مع ما يصيبَك، فاشرب الدواء بطيب نفس، وذرفت عيناه وخرج. قال سقراط: نفعل ذلك ان شاء الله. ثم سكت هنيهة وقال: من يأتيني بشربة موتي؟ فدخل الخادم ومعه كأس السمّ. فتناوله سقراط وشربه. عندئذ غلب البكاء على الحاضرين.

أخذ سقراط يمشي، ثم قال للخادم: لقد ثقلت رجليّ، فقال له: إجلس، فاستلقى ثم قال: سلّمت نفسي إلى قابض الأرواح وأنفس الحكماء. ومات، فأطبق تلاميذه عينيه. وقيل إن افلاطون لم يكن حاضراً لأنه كان مريضاً» [1]

مواعظه وادابه :

«ان الباري تعالى هو جوهر فقط، وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف والقول، لوجدنا أن العقل والمنطق متأخران عن اكتناه وصفه وإدراكه، لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره. فهو المدرك حقاً والواصف لكل شيء، والمسمي لكل شيء موجود إسماً. فكيف يقدر المسمّى أن يسميه أو يصفه؟ فيرجع ويصفه من حيث آثاره وأفعاله صفات واسماء، إلا أنها ليست من الأسماء الواقعة على الجوهر المُخبَر عن حقيقته. مثل قولنا: الباري تعالى واضع كل شيء وخالق، أي مقدّر كل شيء. وعزيز أي ممتنع أن يُضام. وحكيم، أي محكم الأفعال. وكذا سائر الصفات، وإن علمه وقدرته وحكمته بلا نهاية. فلا يبلغ العقل أن يصفها، ولو وصفها لكانت

متناهية. وإن أخصّ أوصافه تعالى هو «الحيّ القيّوم» لأن العلم والقدرة والجود والحكمة تندرج تحت الحياة التي هي صفة جامعة للكل. و «القيوم» تندرج تحته صفات البقاء والسرمد والدوام وحفظ النظام في العالم، وهو صفة جامعة للكل. وهو حيّ ناطق من جوهره هو لا من جوهرنا نحن» [٢].

وقال: «الحكمة طاهرة مقدسة، غير فاسدة ولا دنسة، فلا ينبغي لنا أن نستودعها إلا الأنفس الزكية، ونصونها عن القلوب المتمردة».

«وكان من عادة ملوك اليونان إذا حاربوا، أخرجوا حكماءهم معهم. فأخرج الملك يوماً سقراط معه، فكان يأوي إلى جبّ مكسور يسكن فيه من البرد، فإذا طلعت الشمس خرج يستدفئ. مرّ به الملك وقال له: ما يمنعك من المجيء إلينا؟ قال سقراط: الشغل أيها الملك. فسأله الملك: بماذا؟أجاب: بما يقيم الحياة. قال الملك: بلغني أنك تقول إن عبادة الأصنام ضارة. فقال سقراط: لم أقل هذا، بل قلت إن عبادة الاصنام ضارة لسقراط نافعة للملك، لأنه بها يصلح رعيته، وسقراط يعلم أنها لا تنفعه ولا تضره، لأنه مقرّ بأن له خالقاً يرزقه ويجزيه بما قدّم وأحسن. قال الملك: هل لك من حاجة؟ قال: نعم، إن شئت أن تصرف عني عنان دابتك فقد سترتني جيوشك عن ضوء الشمس. فدعا له الملك بكسوة فاخرة وجواهر ودنانير، فقال له سقراط: ليس سقراط بحاجة إلى حجارة الأرض وهشيم النبات، ولعاب الدود، والذي يحتاجه سقراط موجود معه حيث توجه» [٣].

مختارات من أقواله :

«إن الذي يريد أن يحيا حياة إلهية ينبغي له أن يميت نفسه في جميع الأفعال الحسية على قدر القوة التي مُنحها، فإنه حينئذ يتهيأ له أن يعيش عيشة الحق». (قتل النفس يكون بالزهد في الدنيا، والعبادة والخضّوع لأوامر الله).

«عجباً لمن عرف فناء الدنيا كيف تلهيه عما ليس فناء».

«النفس الزكية تحب الخير وتأمر به، أما النفس الرديئة فإنها تحب الشر وتأمر به.

النفس الخيّرة مجربة بقليل من الأدب، أما النفس الرديئة فلا ينجح فيها كثير من الأدب لسوء معرفتها. فمؤدّب النفس الرديئة كالرائض للفرس الجموح الصعب، إن غفل عن عنانها جمحت به. والنفس جوهرة لا قيمة لها إلا لمن عرفها وصانها»

«من مال إلى الدنيا تعجّل التعب فيها، وكان على يقين من فنائه عنها. ومن زهد فيها واستراح من عنائها أحبّه أهلها، وآمن خوف العاقبة بعد مفارقتها».

«قيل له: هل أصعب من الموت؟ قال: الحياة أصعب لأنها معها الغمّ والهمّ والمرض والفقر والتعب، ومع الموت الراحة من ذلك. الموت حق واجب لا يكرهه إلا من كثر جوره وقلّ عدله. فما أسهل الموت على من أيقن ما بعده، وما أصعبه على من شكّ في ما بعده. الموت محمود على كل حال للبرّ والفاجر، فأما البرّ فيلتقي مع محمودي إخوانه ويصل إلى ما قدّم من جميل أفعاله. أما الفاجر فيستريح الناس من فجوره».

«من حَسُن خلقه طاب عيشه ودامت سلامته، وتأكدت في النفوس محبته، ومن ساء خلقه تنكّد عيشه ودامت بغضته، ونفرت النفوس منه».

قال لرجل عيرّه بأنه من أهل بيت لا شرف له: «أهل بيتي عارٌ عليّ وأنت عارٌ على أهلك».

«راحة الحكماء بوجود الحق، وراحة السفهاء بوجود الباطل».

«من زرع الشر يحصد الشر، وحليف الصدق موفق، أما حليف الكذب فمخذول، ومصاحب العاقل مغتبط، ومصاحب الجاهل تعب».

«إذا زللت فارجع، وإذا أسأت فاندم، وإذا ندمت فأقلع».

«كتب إلى ملك زمانه، وقد مات ابنه: أما بعد، فإن الله عزّ وجلّ جعل الدنيا دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى. وجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبباً، وثواب الآخرة عن بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ما يأخذ بما أعطى ويعطي، ويُبلي إذا أبلى ليُجزي، والسلام».

«قال لأحد تلاميذه: يا بني، لا تغترّ بحسن شبابك وصحة جسمك، فإن عاقبة

الصحة السقم، وعاقبة السقم الموت. يا بني : إعمل في التخلّص من آفات الدنيا وغوائل الزمان فإن مع كل نعمة نقمة، ومع كل فرحة ترحة، ومع كل صفو كدر، ومع كل اجتماع تشتيت، ومع كل تواصل انقطاع. كن خادماً لنفسك يهدأ قلبك. إنك إن كنت حسن الصورة فجمعت إلى حسن صورتك حسن خلقك كنت كاملاً، وإن كنت قبيح الصورة لم تجمع إلى قبح صورتك قبح خلقك، بل حسن خلقك، يغطي ذلك قبح صورتك. تعلّم الحكمة تكن من أفضل أهل زمانك وتلحق بمن تقدم من محمودي إخوانك، واجعل العلم طلبتك، والعمل دأبك، واجعل نعليك مركبك، والأرض جهادك، والقمر والنجوم سراجك»[٤].

المراجع :

١- الشهرزوري «تاريخ الحكماء» مرجع سبق ذكره. ص ١١٠ - ١١٣ .

٢- المرجع نفسه. ص ١٠٧ .

٣- المرجع نفسه. ص ١٠٩ .

٤- المرجع نفسه. من الصفحات ١١٦-١٢٥ (بتصرّف).

أفلاطون الحكيم

سيرته :

«هو آخر الحكماء المقدّمين الأساطين، وهو معروف بالحكمة والتوحيد. تتلمذ على يد سقراط. ولما مات سقراط قام مقامه وجلس على كرسيه. صنّف كتباً كثيرة في الحكَم، وخرّج جماعة من التلاميذ كان أشهرهم «ارسطوطاليس». وفي آخر عمره تَخلّى عن الناس واشتغل بعبادة ربّه.

. . . ولد أفلاطون في أثينا، في أسرة عريقة الحسب، وتثقف كأحسن ما يتثقف أبناء طائفته. وفي سن العشرين تعرّف إلى سقراط فأعجب بعلمه وفضله ولزمه. وبعد موت سقراط - معلمه - بلغه أن في مصر قوماً من أصحاب فيثاغورس فسافر إليها وأخذ الحكمة عنهم، واتصل بمدرستها الكهنوتية واطّلع على علم الفلك ثم زار جنوب إيطاليا، فصقلّية، حيث حصل سوء تفاهم بينه وبين ملكها، فاعتقله وأرسله إلى جزيرة «أجينا»، وعُرض في سوق الرقيق فافتداه رجل من «قورينا». عاد إلى أثينا حيث أنشأ مدرسة ظلّ يعلّم فيها ويكتب أربعين سنة. توفي أثناء حرب فيليبوس المقدوني، فلم يشهد ما أصاب بلاده من انحطاط. وكان له من العمر احدى وثمانين سنة. وكان حسن السلوك والخلق، كثير الإحسان، كريم الأفعال»

تعاليمه :

«ركز أفلاطون جميع صفات الله على محور الخير، حتى أصبح الله عنده هو الخير المطلق الذي عنه تصدر المخلوقات كلها، وإن الله هو الكائن الذي عنه تصدر الكائنات». ومما قاله: «إن للعالم مبدعاً أزلياً، واجباً لذاته، عالماً بجميع المعلومات، كان في الأزل ولم يكن في الوجود رسم ولا ظلّ ولا مثال عبد الباري تعالى. ويعبّر عنه بالهيولي الأولى. فأبدع العقل، وبتوسّطه النفس الكلية المنبثقة عن العقل انبثاق الصورة عن المرآة»

وقال : «إذا كنا نستطيع أن نستخرج من أنفسنا معارف لم يلقنها لنا أحد، فلا بد أن تكون اكتسبتها في حياة سابقة على الحياة الراهنة، (إشارة الى التقمص). فكلما تذكرت أشباحها بالحواس تذكرتها وحكمت على تلك الأشباح.

والنفس إلهية يأتيها الخلود لامن طيب عنصرها بل من خيرية الصانع، تأبى عليه أن يعدم أحسن ما صنع (إشارة إلى خلود الروح). والنفس التي تولد في هذه الدنيا تأتي من عالم آخر ذهبت إليه بعد موت سابق. وإن الأحياء يبعثون من الأموات»

. . . وصّى الناس، فقال : «إسمعوا كلامي، واشكروا الله على نعمه عليكم. أسبغ عليكم النّعم للعامة أجمعين، وفيها ما أوجب عليكم الشكر ليلكم ونهاركم».

«لا تُنال الصحة بالمراتب، وكذلك الحواس هي لجميع الناس، فاصرفوا فكركم عن المشاحنات (دعوة إلى المحبة والتعايش). والطبيعة أعدت لكم ما يُصلح شأنكم في دنياكم وآخرتكم، فما الذي يدعوكم إلى أن تجمعوا وتكدّوا فيما يولّد بينكم البغض والعداوة والحسد؟ إدفعوا الشهوات فإنها ضد الفكر، ولا تطلبوا ما لا حاجة لكم به.

إياكم والفجور فإنه مهلك الأمم، وهو من الخواص الدنيئة. دعوا الذهب والفضة ولا تجمعوها فتشقون بها، وعليكم بالحكمة ضياء النفوس، ولا تطلبوا الإسراف في الأكل والشرب. تعاونوا على البرّ وارفعوا عنكم البغضاء. اعتبروا بمن مضى من خياركم وملوككم. ما الغنى بالذهب والفضة، فقد أعدّ الله لكم ما يحامي عنكم، وهو الحكمة والتقوى اللتين هما رأس النجاح، ومفتاح الفضائل والخلاص. فالفضيلة علم والفاضل هو الحاصل على العلم بالخير، يعرف ما يجب أن يعمله في كل حالة، لأن نظره شاخص دائماً إلى الخير المطلق - يعني الله سبحانه-».

مقتطفات من أقواله :

«سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الصبر العسل».

وقيل له : «من سَلِم من جميع العيوب وقبيح الأفعال ؟ فقال : «من جعل عقله أميره، وحذَرَه وزيره، والمواعظ زمامه، والصبر قائده، وذكر الموت أنيسه»

«إياك في وقت الحرب ان تستعمل النجدة وتترك العقل، فإن للعقل مواقف قد تتمّ بلا حاجة للنجدة، ولا نرى للنجدة غنى عن العقل»

«إن حياة النفس بأعمالها الصالحة، المحصّنة من الآفات، حتى لا يدنو منها شيء يميتها. فإنها إن لم يقتلها ذلك، لم يقدر أحد على قتلها، لأنها عالية على الجسد، ممتنعة بلطفها من أن ينظر الموت إليها كنظره إلى الجسد، فهو لا يراها وهي تراه بفضل لطفها عليه».

«لا ينبغي لك ان تختال عند الغنى، ولا تستجْدِ عند المصائب».

«من تعلّم العلم لفضيلته لم يوحشه كساده، ومن تعلّم لجدواه انصرف عنه بانصراف الحظ».

«إعرف الله سبحانه وحقّه، وأدمْ عنايتك بالعلم الصالح أكثر من عنايتك بذاتك. لا تسلْ الله ما لا يدوم لك نفعه، فإن كل المواهب منه، بل يجب ان تسأل النعمة الباقية معك أبداً».

«لا تهْوَ أن تعيش حياة صالحة فقط، بل موتاً صالحاً أيضاً. ولا تعدّ الحياة والموت صالحين إلا أن تكسب بهما أمراً، حيث تحاسب نفسك على ثلاث خصال : هل أخطأت في يومك ؟وما اكتسبت فيه من البرّ ؟وما كان ينبغي أن تفعله من الخير فقصّرت عنه. تذكر ما كنت وإلى أي شيء تصير».

سأله أحدهم : بمَ نلتَ ما وصلت إليه من العلوم ؟فقال : «أفنيت زيتاً في سراجي بأكثر من الشراب الذي شربته أنت».

«يجب علينا أن نعتقد على الدوام، وبالصدق، بالقول المقدّس الذي يخبرنا أن الروح لا تموت، وأن لديها أولئك الذين يقاضونها».

وسئل وهو يحتضر، كيف وجدت الدنيا؟ فقال : «خرجت إليها مضطراً، وعشت فيها متحيراً، وها أنا أخرج منها كارهاً، ولم أعلم فيها إلا أنني لا أعلم».

«إن الحكومة الصالحة تنشىء رجالاً صالحين».

«إن الانسان هو المخلوق الأكثر مخافة لله من كل المخلوقات الحية».

«إن روح الإنسان خالدة، وتصل إلى النهاية في وقت ما، يسمونه موتاً، وتولد مرة ثانية في وقت آخر، لكنها لا تفنى أبدا. ولذلك السبب ينبغي على الانسان أن يعيش حياته كلها بطريقة تقيّة قدر المستطاع».

... «قال أرسطو: قصدت أفلاطون فقيل لي إنه في المقابر، فجئته وقد عبّأ من العظام تلالاً عن يمينه وتلالاً عن شماله، وهو يروح ويجيء، ويضحك ويعبس. وقفت ساعة وهو لم يعرف، ولم يشعر بوجودي. ثم نظر إليّ، فسألته: ما يضحكك وما يبكيك؟ قال: إن ضحكي لاغترار الناس بهذه الدنيا، وعبوسي للفكر في تركيبها وانحلالها. كن في كل وقت تعدّ زاداً كما يعدّ زاده من يرتحل ليلته تلك، وخير الزاد التقوى وصالح الأعمال. كل ما في هذه الدنيا إلى زوال، ولا ينجي من العذاب والعقاب إلا خشية الله وطاعته وحميد الصفات. إن تقوى الله وكرم الأخلاق هي زاد للمرء في دنياه وفي آخرته»*.

.. «واذا جاءت الديانات التوحيدية من بعده لتعزّز العديد من أفكاره المتعلقة بالوجود والخالق والخلق وخلود الروح.. فإنه كان في هذا المجال وكأنه معبّد الطريق الذي خطته الديانات التوحيدية أمام البشرية. وقد قال عنه الفيلسوف «فيومينوس»: إن أفلاطون هو-موسى في ثوب يوناني»[1].

المراجع:

* الشهرزوري «تاريخ الحكماء» مرجع سابق. من الصفحات ١٤٥-١٥٠-بتصرف-

١- آدم فوكس: «افلاطون والديانات السماوية». ترجمة شوقي داود تمراز. منشورات الأهلية للنشر والتوزيع. بيروت ١٩٩٤. ص ١٧٢

«المؤلف هورثيس أساقفة وست منستر البريطانية».

فلسفة أفلاطون *

«لم ينقطع أفلاطون إلى التأمل الفلسفي إلا بعد اتصاله بسقراط، فافتتن بتعاليم هذا الحكيم، وأحبه بعقله وقلبه. وللدلالة على ذلك، قوله: «أشكر الله لأنني خلقت يونانياً، ولأنني ولدت في عهد سقراط»[1].

.. «هناك بالنسبة إلى افلاطون عالمان: عالم العقل، أو عالم الإله، وفيه المُثُل العقلية والصور الروحانية. وعالم الحسّ وفيه الصور الجسمانية والأشخاص الحسّية، فكأن عالم الحس عالم الظواهر المتغيّرة، وعالم العقل عالم الحقائق الثابتة.

والمعنى المشترك الموجود في جميع الأشخاص: هو الإنسانية. وفوق كل هذه مثالٌ أعلى هو الخير المحض، أي الله. وهو الصانع الذي يصنع نفسه، ويصنع كل ما تنبت الأرض، وكل ما هو موجود تحت سماء، أو في الجحيم تحت الأرض.

.. إن الخير الأعلى أساس العلم والمعرفة والحقيقة، وله عدة صفات، فهو خير بذاته، ومختلف عن كل ما في العالم. وهو مستعْصٍ على الوصف بلغة الكلام، وهو معشوق لذاته. (ما أسعد مصير الإنسان الذي يستطّيع أن يتأمل الجمال الإلهي في بساطته وصفائه، مجرداً من الألوان الزائلة).

وهو واحد كامل لا يتغير، وقديم أزليّ مفارق للزمان، وهو صانع نفسه وصانع العالم، وهو مدبّر حكيم يُنظّم أمور الخلق، ويلحظ كل شيء بعين عنايته. وهذا يدل على أن هنالك قوة إلهيّة عقلية، تهيمن على كل ما هو موجود وحادث في هذا العالم. فالخير عنده مبدأ العلم بالأشياء وعلة وجودها معاً»[2].

.. «الإنسان عند أفلاطون منسوب إلى عالم الحسّ وعالم المثال، فهو مؤلف من جوهرين. أحدهما وهو النفس منسوب إلى عالم المثال، والآخر وهو البدن منسوب إلى عالم الحسّ. وإذ كانت النفس في عالم المثال، وجب أن تكون إلهية

---

* د. جميل صليبا «تاريخ الفلسفة العربية» مرجع سبق ذكره. ص ٣٧

وأزلية وأبدية . ومعنى أزليتها وجودها قبل البدن ، ومعنى أبديتها بقاؤها بعد الموت وخلودها .

والنفس الإنسانية ثلاث نفوس : النفس الشهوانية ، والنفس الغضبيّة ، والنفس العاقلة . ولكل من هذه النفوس فضيلة خاصة بها . ولا يبلغ الإنسان سعادته إلا إذا سيطرت نفسه العاقلة على نفسه الشهوانية والغضبيّة .

. . . قد اقتبس أفلاطون فكرة وجود النفس قبل البدن من تعاليم فيثاغورس ، وآمن بها إيماناً حقيقياً . فإذا كان الموت والحياة ضدّين ، كان لا بد من أن يكون بعد الموت حياة ، كما كان بعد الحياة موت . كما أن جمال النفس أسمى من جمال الأجسام» [٣] .

. . . «إن صورة الخير ، الأعلى هو علّة سائر العلل والمُثل ، فهي إذاً ينبوع الحياة والحكمة ، ومبدأ الوجود والمعرفة . فما على الانسان إذا أراد الوصول إلى السعادة ، إلا أن يتوق إلى العالم الأعلى ، ويحنّ اشتياقاً إليه . وسبيل ذلك أن يعيش عيشة روحّية خالصة ، يمارس فيها الفضيلة والعلم ، وأن يزدري الأمور الزائلة ، ويحبّ الجمال المطلق والخير المطلق» [٤] .

المراجع :

١- المرجع نفسه . ص ٣٩ .

٢- نفس المرجع . ص ٤٣-٤٤ .

٣- نفس المرجع . ص ٥٢و٥٣ .

٤- المرجع نفسه . ص ٥٨ .

أرسطو طاليس الحكيم

سيرته :

«هو المعلم الأول، والحكيم المطلق عند اليونانيين. ولد في مدينة تسمّى «أسقليوس» من أعمال (مقدونيا). وكان أبوه طبيب «أفنطس»، والد «فيليبس» والد الاسكندر الكبير الملقب بذي القرنين. كان أرسطو تلميذاً لأفلاطون، الذي كان يجلس فيستدعى للكلام، فيقول : حتى يحضر الناس، فإذا حضر أرسطو، قال : تكلموا فقد حضر الناس» [1].

«وكان أرسطو في الوقت عينه يجلّ معلمه أفلاطون إجلالاً كبيراً، ويعتبره أباه الروحاني، مما جعله يقول لأهل بلده، بعد أن تمكن من اقناع الملك الذي أراد أن يخرب بلده، وقد جعل الناس يقدمون له الشكر ويدعون لأبويه، فقال لهم : إن أبويّ هما سبب وجودي في هذه الدنيا، ولا أنكر فضلهما، أما أبي الحقيقي فهو أفلاطون، الذي غذّى عقلي بالحكمة، وأكسبني المعرفة. وأمي الحقيقية هي تلك العلوم التي استقيتها منه، وكانت غذاء للعقل وللروح، ومنارة أضاءت أمامي سبل الحياة. فإن كان من واجب الشكر، فليكن الشكر والدعاء لأبي الحقيقي-أبي الروحانيّ-أفلاطون، فهو أحق بذلك مني ومن أبويّ الجسمانيّيْن» [2].

«وقال فيه الفيلسوف العربي «الفارابي» ما فرّط أرسطوطاليس في وضع المنطق، ولقد مَحَضَ النصيحة، وانفرد فيه بكمال الفضيلة، وبان من جلالة قدره وجزالة رأيه فيه على ما ذلّت له الرقاب، وخضع له ذوو الألباب، وأقرّت الألسن له بالعجز عن لطيف ما أتى، ودقيق ما أدّى، وبليغ ما ألّف، وغريب ما صنّف، حتى صار في الناس عَلَماً وعليهم حكماً.

كان لا يسجد للأصنام التي كانت تُعبد في ذلك العصر، فغضبت عليه الكهنة. ترك «أتينة» خوفاً من أن يفعلوا به ما فعلوه بسقراط. توفي وله من العمر ثمان وستون سنة، وكان جليل القدر، حتى أن تلاميذه جمعوا عظامه بعدما بليت،

وجعلوها في إناء من نحاس ودفنوها . وكانوا يجتمعون عند قبره للتشاور في جلائل الأمور .

كان أرسطوطاليس يعتبر أن الحكمة يجب أن تُمنح إلى أهلها وأبنائها ، وأما أعداؤها والزاهدون فيها ، فلن يصلوا إليها ، لجهلهم بما فيها ورغبتهم عنها»[٣] .

مختارات من أقواله وآدابه :

- «من لم يقدر على فضيلة فلتكن همته ترك رذيلة» .

- قال لأحد تلاميذه : «لا تعاشر في الناس إلا من عرف قدر نفسه ، فإن من عرف قدر نفسه فمعاشرته في طيب العيش . ومن لم يعرف قدر نفسه فلا خير في عشرته» .

- «إن الزهد باليقين ، واليقين بالصبر ، والصبر بالفكر . فإذا فكرت في الدنيا لم تجدها أهلاً لأن تكرمها ، لأنها دار بلاء ومنزل بليّة » .

- إذا أردت الغنى فاطلبه بالقناعة ، واحذر الشهوات لأنها شائنة لعرضك ، شاغلة لك عن جميع أمرك . وإن كان لا بد من اشتغال نفسك بلذة فلتكن في محادثة العلماء ودرس كتب الحكمة ، وطلب العلم» .

- «العدل ميزان الله في أرضه ، يؤخذ به الضعيف من القوي ، والمحقّ من المبطل ، فمن أزال ميزان الله في أرضه عمّا وضعه بين عباده ، فقد جهل أعظم الجهالة ، واغترّ بالله أشد اغترار» .

- «الحكمة رأس التدبير ، وصلاح النفس ، ومرآة العقل ، وبها تذلّ المكروهات وتعزّ المحبوبات . ما أحسن رأي من حقق في طلبها» .

- «صيّر دنياك وقاية لآخرتك ، ولا تصيّر آخرتك وقاية لدنياك . عاشر أهل التّقى المشهورين بالزهد ، والعلماء ، وقدّم مجلس من كان مشهوراً منهم بالورع ، واقض حاجة العامة منهم» .

- «أطلبوا الدنيا لتصلحوا بها الآخرة، فما أقلّ اللّبث فيها، وما أسرع الانتقال منها».

- «بالتأني تسهل المطالب، وبلين الكلمة تدرك المحبة وتدوم المودة، وبسعة الأخلاق يطيب العيش، وبالتواضع تكثر المحبة، وبالعفاف تزكو الأعمال، وبالحلم يكثر الأنصار، وبالرفق تستخدم القلوب، وبالوفاء تدوم الأحبّاء، وبالصدق يدوم الفضل».

- «من زاد علمه على عقله كان وبالاً عليه».

- «كنت أشرب فلا أرتوي، فلما عرفت الله ارتويت من غير شرب».

- «من أسرف في الشراب فهو من السَّفَل».

- «من خدم العدل وعبد الله عزّ وجلّ، وفعل فعله بالفضيلة، كانت له حالة جيدة حسنة. ومن أحب الله محبة خالصة وأحب العقل والفضائل الممجّدة، أكرمه الله تعالى وتعاهده وأحسن إليه».

- «إعلموا أن اللئام أصبر أجساماً والكرام أصبر نفوساً. وليس الصبر أن يكون جلْد الرجل وقاحاً على الضرب، وأن تكون رجله قوية على المشي، ويده قوية على العَمل، فإن هذا من صفات الدواب، ولكن أن يكون للنفس غلوباً وللأمور محتملاً، وفي الصبر جميلاً، وبالمشقة التي يرجو عاقبتها مستحقا، وعلى مجاهدة الأمور والشهوات الهوائية مواظباً».

- قال عند موته: «إبنوا لي بيتاً مثمّناً، واكتبوا على كل ثُمْن منه كلمة من هذه الكلمات: العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تؤيده الشريعة، الشريعة سياسة يسوسها الملك، الملك راع يعضده الجيش، الجيش أعوان يظللّهم المال، المال رزق تجمعه الرعية، الرعية عَبيد يستعبدهم العدل، العدل مألوف به قوام العالم»(٤).

فلسفة آرسطو * :

. . . «يتألف العالم من سلسلة من الصور المتصاعدة، في أسفله مادة واحدة لجميع الأشياء الجزئية، وهي الهيولى الأولى تتحرك خالصة لتتحد بالصورة، وفي أعلاه صورة بلا مادة وهي المحرك الأول، أو الله» (ص: ٧).

. . . «والمادة لا تتحرك بنفسها بل تحتاج إلى مبدأ يحركها. وهذا المبدأ المحرّك هو الله، وهو المحرّك الأول الذي لا يحرّكه شيء خارج عنه، لا بحركة ذاتية ولا بحركة عَرَضية، إنما هو واحد لا أجزاء له ولا أبعاد لأنه ليس جسماً. وجميع الموجودات تتحرك من أجله لأنه الخير بالذات، وهو معشوق لذاته لأنه علّة الخير والنظام، يحرك العقول من حيث هو شوقها وحبّها» (ص: ٧٧).

. . . «ومن الأدلة على وجود الله أن وجود الحسن يفرض وجود الأحسن. وأن وجود الغائيّة في العالم يوجب أن يكون هناك غاية ليس وراءها غاية، وهي غاية الغايات. وإذا كان في العالم حركة متصلة في المكان، وهي الحركة الدائرية الأزلية، وجب أن يكون هناك جوهر أزليّ مُحدث للحركة بالفعل لا على سبيل التّماسّ بين المحرّك والمتحرك، بل على سبيل الشوق. والمحرك الأول يحرك العالم بحركة أزلية ولا يتحرك معه» (ص: ٧٨).

. . . « الإنسان مؤلف من مادة وهي بدنه، ومن صورة هي نفسه. والنفس هي ما به تحيا وتحسّ وتنتقل في المكان وتعقل. وتختلف النفس الإنسانية عن النفس الحيوانية بقدرتها على الإدراك: إدراك الصور المشتركة بين الأشياء المتجانسة، على إدراك الحقائق الكلية المحيطة بالظواهر الطبيعية المتغيرة» (ص: ٧٩).

. . . «أما كيف يصل الإنسان إلى السعادة، فذلك رهن بسلوكه سلوكاً متفقاً مع شروط الحياة الخاصة بطبيعته. وهو أنه ذو نفس ناطقة تفكر في الوجود، ومتى فكرت في شروط حياتها آثرت الاعتدال على التفريط والإفراط، لأن لكل فضيلة وسط بين حدّين متقابلين: فالكرم وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين

* د. جميل صليبا: «تاريخ الفلسفة العربية». مرجع سابق.

التهـوّر والجبن، والصدق وسط بين الرياء والكذب، والتواضع وسط بين الكبرياء والخنوع» (ص: ٨٦).

المراجع :

١- الشهرزوري : «تاريخ الحكماء»-مرجع سبق ذكره-

٢- «رسائل اخوان الصفاء» : تحقيق وإعداد د. عارف تامر. المجلد الخامس-منشورات عويدات بيروت-باريس. ١٩٩٥. ص: ١٤١

٣- الشهرزوري : مرجع سابق. ص: ١٦٠ .

٤-المرجع السابق نفسه. ص ١٦٢-١٦٥ -بتصرف-

أفلوطين الإسكندري الحكيم

هو صاحب الحكم الكثيرة والمواعظ النّفيسة، قال :

«النفس جوهر شريف كريم، يشبه دائرة دارت على مركزها الذي هو العقل. والعقل هو الخير الأول الذي تميل إليه النفس، لأنها تشتاق إليه. أما دائرة هذا العالم فإنها تدور حول النفس وإليها تشتاق كشوق النفس إلى العقل، والعقل إلى الباري سبحانه وتعالى»

. . . «والنفس تحتوي على العالم الحسّي بالقوة، ومنها تصدر الموجودات ذات الأجسام. . إن الله واحد والأجسام متعددة. . والكائنات ذات الأجسام مركبة من مادة وصورة : الصورة تتضمن حقيقة الموجودات، والمادة هي الشيء الذي تكونت منه الأجسام. أما النفس المنبثقة عن العقل الأرفع فتتجه هي نحوه كما يتجه العقل الصادر من الله إلى الله. . تصوّر نقطة مركزية تحيط بها دائرة مضيئة، وهذه الدائرة تطوّقها دائرة أخرى مضيئة أيضاً ولكن نورها مقتبس من النور الأول، وخارج هاتين الدائرتين دائرة ثالثة بعيدة عنهما، ولكنها ليست مضيئة بذاتها، وإنما تستنير بضوء آخر ليس منها».

وقال أيضاً : «ليس للباري تعالى صورة ولا حلية مثل صورة الأشياء العالية، أو الصور التي في العالم السفليّ. وهو فوق كل صورة وحلية. المبدع الحق ليس شيئاً من الأشياء، وهو جميع الأشياء كلها، إذ هو علّة كيانها وعلة شوقها إليه.

أبدع الأشياء فإنه يعلمها ويحفظها ويدبّرها، لا بصفة من الصفات، وإنما وصفناه بالفضائل لأنه علتها. وإنما تفاضلت الجواهر العقلية لاختلاف قبولها من النور الأول، فصارت كذلك ذات مراتب. والباري تعالى غير متناهٍ، وإنما عظمُ جوهره بالقوة والقدرة لا بالكمية، فلا صورة له ولا شكل».

«الواحد أو الخير، هو مصدر الوجود، وعنه صدرت كل الأشياء : فكما يشرق الضوء من الشمس ولا يعتريها نقصان إشراق، يشرق العقل الجوهر عن الواحد

الأحد، وليس الواحد موجوداً بل هو فوق الوجود»[1].

ويقول أفلوطين: «إن الكمال أصل الوجود، وكل موجود يميل إلى الكمال.. غاية الحياة أن تسعى لتعود إلى التمتع بالمشاهدة الإلهية بواسطة تطهير النفس، لذلك وجب أن تجرّد ذاتها من الشهوات البدنية بممارسة الفضائل. وهذه الفضائل أربع: العفّة والعدالة والشجاعة والحكمة.

إغمض عيني جسمك وافتح عيني روحك تشاهد الجمال الأزلي، وتحْظَ بالخير المطلق. وبواسطة الانخطاف الروحي تتحد النفس بالله الواحد»[2].

المراجع:

١- الشهرزوري: «تاريخ الحكماء» مرجع سابق. ص ١٨٣- ١٨٤.

٢- يوسف ابراهيم يزبك: من مقدمة كتاب «الدولة الدرزية». مرجع سابق. ص ١٧ و١٨ نقلاً عن «تاريخ الفلسفة من أقدم العصور إلى الآن» تأليف حنا أسعد فهمي. المطبعة اليوسفية، مصر (دون ذكر التاريخ). وكذلك: يوحنا قمير «أصول الفلسفة العربية» الطبعة الثانية، منشورات المطبعة الكاثوليكية-بيروت. (دون ذكر الصفحة والتاريخ).

الإسكندر الكبير الملقب بذي القرنين

سيرته :

هو ابن فيليبس ملك مقدونيا، لما حضرت الوفاة والده أحضر ابنه الاسكندر وجدّد له البيعة، فقام الإسكندر في الناس وقال :

«أيها الناس، إن ملككم قد مات وليس لي عليكم ولاية ولا إمارة، إنما أنا رجل منكم أرضى بما رضيتم، ولا أخالفكم في شيء من أموركم، وإنما آمركم بتقوى الله والتمسك بالطاعة، فَملِكُكُم أطوعكم لربه تعالى وقد عرفتم ذلك عني، وهو يبذل نفسه لإصلاحكم.

فلما سمعوا كلامه تعجبوا منه، وقالوا له: قد سمعنا قولك وولّيناك أمرنا، ولا نرى أحداً من أهل الدنيا أحق بالملك منك. ثم بايعوه ووضعوا التاج على رأسه. فكتب إلى عمال مملكته :

من ذي القرنين، إلى فلان بن فلان

الله تعالى ربي وربكم، وخالقي وخالقكم، وخالق ما نرى من السماوات والأرض والنجوم والجبال والبحار والأنهار، وقذف في قلبي معرفته وأسكنه خشيته، وألهمني حكمته، ودلّني على عبادته، واستحق ذلك عندي. فله الحمد على ما تقدّم من إحسانه وحسن صنيعه، وإليه أرغب في تمامه. وقد علمتم ما كان عليه آباؤنا وآباؤكم من عبادة الأوثان دون الله عزّ وجلّ، وأنها لا تنفع ولا تضرّ، ولا تسمع ولا تبصر، وأنه ينبغي لمن عرف وعَقل أن يستحي لنفسه من عبادة وثن أو صورة يتخذها. فانتهوا وارجعوا إلى معرفةَ ربكم واعبدوه ووحّدوه، فإنه أولى لكم من هذه الحجارة، والسلام»[1].

(وهكذا يعتبر الاسكندر الكبير من دعاة التوحيد، إذ أنه استهلّ حكمه بالدعوة الى عبادة الله تعالى وتوحيده، وترك عبادة الأصنام والأوثان-التي كانت سائدة آنذاك - ولا عجب في ذلك، فهو تلميذ الفيلسوف الحكيم أرسطوطاليس).

«وكتب إلى جنده يعرّفهم بسيرته ومقصده، وينهضهم إلى قتال عدوهم، وإلى الدعاء للتوحيد والعدل. فمن خالفه وخالفهم في ذلك فليحاربوه.

ثم رتب الرجال وأمرهم بالأرزاق، ولم يختصّ بالأموال لنفسه دونهم. وهذا ما لم يروه من غيره، مع تواضعه وحسن خلقه، وشدة غضبه في باب الله تعالى. ولما استتبّ له الملك، بعث إليه «دارا» ملك الفرس يطالبه بأداء ما جرى الرسم عليه بأدائه. فكتب اليه الاسكندر يقول: «إني ذبحت تلك الدجاجة التي كانت تبيض ذلك البيض».

«وكان اليونانيون آنذاك طوائف كثيرة وقبائل متعددة، فجمعهم ووحدهم وملك عليهم. فأحبّوه نظراً لتواضعه وعدله ومساواته بين الجميع، وعدم تمييز نفسه عن باقي رعيته. فكان أن أطاعوه وساروا تحت لوائه بملء إرادتهم، وقاتلوا إلى جانبه بإخلاص واندفاع لا مثيل لهما» [٢].

فتوحاته:

(نذكر هنا فتوحات الاسكندر لأنها على علاقة مباشرة مع دعوته إلى عبادة الله وتوحيده. حيث كانت دعواته للملوك والحكام تصب في خانة التوحيد، إلى جانب بسط سيطرته وتوسيع دائرة سلطته وحكمه فمن استجاب الى دعوته صالحه، ومن أبى حاربه).

«لما بلغ دارا ملك الفرس خبر الإسكندر وعزمه على الزحف إلى بلاده، كتب إلى أهالي «طبرس» قائلاً:

«من دارا الملك، إلى أهالي طبرس.

أما بعد: فقد بلغني خبر خروج هذا اللص المارد في من جمع من اللصوص، فخذوا أصحابه واقذفوا بهم وبأسلحتهم ودوابهم إلى البحر، واتوا إليّ بهذا اللص رئيسهم...»

فلما علم الاسكندر بذلك، خرج بجيشه لمحاربة دارا. فكتب هذا إليه ثانية:

«من دارا الملك، ملك الملوك والدنيا، إلى ذي القرنين اللص.

أما بعد: فقد علمتَ أن ملك السماء جعلني ملك الأرض، وبلغني أنك جمعت لصوصاً ودخلت حدودي لتفسد في الأرض. فارجع لأنك غلام حقير، وابقِ على نفسك وبلادك، وإلا كنت أول مشؤوم على بلاده...»

ووجّه له الكتاب مع رسله. فلما قرأه الإسكندر، كتب إليه:

«من ذي القرنين إلى الذي يزعم أنه ملك الملوك دارا.

أما بعد: كيف يحسن بملك الملوك والدنيا أن يهاب حقيراً مثلي. فلا تظنّك يا هذا إلهاً ولكنك إنسان مشرك، ولا ترى أن الله تعالى يولي الملك لمن يشاء من خلقه وعباده، وإنسان طاغ مثلك تسمّى باسم الله الذي لا يموت، وكيف يكون إلهاً من يموت ويفنى؟ولكنك لا تطيق مناولة ذي البأس والقوة والخبرة. وأنا سائر إليك لقتالك، لأني إنسان الموت في عنقي، وأجلي آت، ولا أرجو النصر إلا من إلهي الذي خلقني. عليه توكلت وإياه أعبد. واعلم أنكَ علوْت في نفسك، وسطوْت في سلطانك، فظننت أنك أرعبتنا بما ذكرت من عزتك، فأرجو أن يضعفك الله تعالى بقدر ما رفعت من نفسك، وأن يظهرني بثقتي به وتوكلي عليه، والسلام».

... «وتابع زحفه، فالتقى بجيوش دارا وهزمها، وأسر خلقاً كثيراً، كان من بينهم ابن دارا وأمه وامرأته، حيث فرّ دارا هارباً. ثم كتب للإسكندر كتاباً يستعطفه ويتذلل له، ويسأله أن يرحمه ويبعث إليه بابنه وصاحبتيه. فلما قرأ الاسكندر كتابه وعرف مكانه، نهض نحوه ولحق به، فهرب مع من بقي من أصحابه. ولحقه الاسكندر، فلما التقى الجمعان وثب بدارا صاحباه ووزيراه ليقتلاه، وينالا بذلك الحرمة عند الإسكندر، وضرباه بسيفيهما فوقع عن فرسه. أدركه الإسكندر، فنزل عليه ووضع رأسه في حضنه، ونفض التراب عن وجهه، ثم قال له: «يا دارا: قم من مصرعك وكن ملكا على رعيتك، غير مؤاخذ بما سلف منك. واعلمني من فعل هذا بك لأنتقم لك منه. فقال دارا، وعيناه تدمعان:

يا ذا القرنين، لا تتكبر ولا تتجبّر، ولا تركن إلى الدنيا، فقد رأيت ما حلّ بي

ولك فيّ عبرة. فاحفظنى في أمي، وصيّرها أمك في المنزلة، وامرأتي فصيّرها بمنزلة أختك. وقد زوّجتك ابنتي. وأسلم الروح.

أمر الاسكندر فغُسل دارا بالمسك والعنبر، وكُفّن بالثياب المنسوجة بالذهب. ثم جمع جنده وسيّرهم صفوفاً وراء نعشه ومعه عظماء الروم وفارس وساداتها، وأمر بدفنه وألقي القبض على قاتليه وصلبا عند قبره»

«إرتحل الاسكندر، بعد ذلك، إلى الهند. فكتب إلى ملكها :

من ذي القرنين، إلى «فور» ملك الهند.

أما بعد : فإن إلهي لا إله إلا هو، الذي أيّدني بنصره وأعزّني بالفتح، وبعثني نقمة على من كفر به وجحده. إني أدعوك إلى إلهي وخالقي وخالق كل شيء، أن تعبده ولا تعبد سواه. فإن استحق ذلك منك، ملّكتك على أهل ناحيتك، فاقبل نصيحتي وابعث إلي بالأصنام التي تعبد، تَسْلَم مني، وإلا فإنني أقسم بالهي لأطأنّ أرضك ولأهتكنّ حرمتك. وقد رأيت ما صنع إلهي بدارا ملك الفرس، فلا تعدل بالعافية واغتنمها، والسلام.

أجابه «فور» جواباً فيه جفاء، فزحف إليه. وكان أن نزل «فور» بنفسه لمحاربته، وكان عظيم الخلقة بينما كان الاسكندر حقيراً. إستلاّ سيفيهما، فقال الإسكندر : أتستعين عليّ وأنا أضعف منك ؟ قال فور : بمن أستعين ؟ فقال الإسكندر : بالفارس الذي وراءك.

التفت «فور»، فرماه الإسكندر بمزراق فذبحه. والتحم الجيشان فكان النصر حليف الإسكندر، وعندها صالح أهل الهند على الخراج كل سنة. ثم توجه إلى الصين فأذعن له ملكها، وأمر أهلها بعبادة الله الواحد، ولزوم السنن الواجبة العادلة، وبنى سدّ الصين المشهور، وقد دوّخ العالم كله»

وفاته :

«كان الاسكندر قد بنى في مصر مدينة الاسكندرية، ذكرى لانتصاره هناك.

وفي هذه الأثناء، بعد انتصاره في الصين والهند، مرض الاسكندر، فأوصى أن يُحمل إليها فيوارى هناك . .

ومات الاسكندر، فحُمل على مناكب العظماء والأشراف، وحُمل تابوته إلى الاسكندرية -كما أوصى- . ولما أُدخل التابوت على أمه، قالت : «العجب يا بني ممن بلغت السماء حكمته، وأقطار الأرض ملكه، كيف هو اليوم نائم لا يستيقظ، وساكت لا يتكلم. فمن ذا يُبلغ الاسكندر عني : إنه قد وعَظني فاتعظت، وعزّاني فتعزيت وصبرت. فعليك السلام يا بني حياً وهالكاً. فنعْمَ الحيّ كنت، ونعم الهالك صرت» .

هذا، وكان الاسكندر قد كتب رسالة إلى أمه، قبل موته، يقول لها فيها : «لقد علمت أن الذي أذهب إليه خير من الذي أنا فيه وأطهر. فكّري، يا أمي، في الخلق : فالمقيم وإن طال راحل، والملك وان دام زائل . . فاعتبري يا أم بما مضى من القرون الخالية، وباد من الأمم السابقة، وتضعضع من الأبنية العالية. واعلمي، يا أمي، أن كل شيء خلقه الله كان أوله صغيراً ثم يكبر، إلا المصيبة فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر، فاكتفي بهذا التدبير والتقرير» .

«ثم أمرت أمه بالتابوت فدفن في الاسكندرية. وقد ملك وله من العمر تسع عشرة سنة، وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة. منها تسع سنين محارباً، وثماني سنين مطمئناً. وغلب اثنتين وعشرين أمة. ويقال إنه في ذهابه من المغرب إلى المشرق طاف الدنيا في سنتين» .

«كان ينادى على بابه-في الاسكندرية-كل يوم ثلاثة أصوات : يا معشر الناس ! ! التمسك بطاعة الله تعالى أحسن من الوقوف على المعصية وأسلم. فاحذروا، فإن الطاعة تجدي والمعصية تردي» [٤] .

وهكذا، فقد كان الاسكندر داعياً من دعاة التوحيد وعبادة الله الذي لا إله إلا هو، الواحد الأحد، في بلاده وفي جميع البلدان التي فتحها، وقضى حياته متعبداً متواضعاً، يحكم بالعدل، وينادي بالحق. وما رسائله إلى الملوك إلا دليل على ذلك .

المراجع :

١و٢و٣ : الشهرزوري «تاريخ الحكماء» مرجع سابق. ص ٢١٧ وما بعدها.

(٤) المرجع نفسه من الصفحة ٢٢٠ وما بعدها-بتصرف-.

"الحكيم المستنير"، بوذا *

«بوذا، مؤسس الديانة البوذية، اسمه الحقيقي «سوهارتا جوتا»، وكلمة بوذا تعني المستنير أو المستيقظ.

كان بوذا إبناً لأحد قادة قبيلة «سكيا-sakya» التي كان موطنها مدينة على تلال الهملايا في الإقليم الذي يعرف اليوم باسم «نيبال». في هذه المدينة نشأ بوذا وقضى فترة رجولته المبكرة، وتزوج وأنجب إبناً هو «راهولا-Rahola» حيث بدأ ينشغل ويقلق-ولا يزال ابنه طفلاً- بمشكلات أزلية، مثل:

لماذ يولد الإنسان؟ هل يولد فقط ليعاني المرض ثم تنهكه الشيخوخة، وفي النهاية يموت؟

... وتروي النصوص كيف التقى، على التوالي، برجل يعذبه المرض ثم برجل آخر في مراحل الوهن والشيخوخة، ثم بجثة محمولة إلى مكان المحرقة ومن خلفها الحزانى من الأهل والأقارب. وبينما هو يفكر في هذه الوقائع، إذ رأى شخصاً رابعاً هو رجل قدّيس، حليق الرأس، جوّال متدّين، وواحد من الذين نذروا أنفسهم للسعي إلى حياة الزهد، لكي يعثروا على طريق التحرر من عبث الحياة الظاهر. وهكذا، تحول بوذا إلى هذه الحياة، حياة الزاهد المتجول، آملاً أن يجد حلاً لمشكلات الوجود البشري.

إنضم بوذا إلى جماعة من النساك والزهاد، وظل فترة من الوقت يعمل بجدّية تامة جاهداً في السعي وراء الحقيقة الروحية بمنهج الزهد. وأخيراً وجد أنه لم يتقدم كثيراً في سعيه، على الرغم من أن نظام الزهد الذي اتبعه بلغ من الصرامة حداً جعله

---

* «المعتقدات الدينية لدى الشعوب». ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام. مراجعة د. عبد الغفار مكاوي. «عالم المعرفة» يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. العدد ,١٧٣ مايو/ أيار ١٩٩٣، ص٢١٧-٢٢٠-بتصرّف. أما مؤلف الكتاب فهو: Geoffrey parrinder: واسم الكتاب:

«world religions from ancient history to the present» New york 1971.

«جلداً على عظم» واقترب به كثيراً من الموت. فقرر أن ما يبحث عنه لا يمكن الوصول إليه عن هذا الطريق.

ترك الزهاد ومضى في سبيله، حتى وصل إلى ضفة نهر «جايا-Gaya» وجلس تحت شجرة «البو» (Bo,Tree)**، وهناك بدأ في التأمل الجادّ عازماً على أن يظل في تأمله على هذا النحو حتى يصل إلى الاستنارة التي يسعى إليها.

ومن ثم ظل في تأمله لمدة أسبوع آخر، ثم لبث فترة يتجول جيئة وذهاباً في المنطقة المجاورة لشجرة البو. وبدأ منذ ذلك الوقت يجذب اليه التلاميذ الذين كانوا شغوفين لسماع المزيد من تعاليمه، والاسترشاد بالطريق الذي يتحدث عنه. وكانت تعاليمه توجه إلى كل الناس، بغير استثناء، سواء كانوا من علية القوم أو من أرذلهم. وكان باستمرار يشرح ذلك بطريقة تثير اهتمام الناس، ويشجعهم على أن يلزموا أنفسهم «بالطريق» الذي عن طريقه وحده يمكن أن يأملوا في الوصول إلى فهم تام وعميق للحقيقة.

... والمبدأ الذي تميزت به البوذية هو «الطريق الوسط»، ويعني الطريق الذي يقع بين حياة الحس والمتعة المسرفة وبين حياة الزهد والتقشف المتطرفة. ولقد رفض بوذا نفسه هاتين الحياتين المتطرفتين في مسار حياته، وهو يدنو من البوذية».

مختارات من أقوال بوذا :[1]

... «وكان يجمع تلاميذه، في الليالي، ليقصّ عليهم وعلى المؤمنين بتعاليمه، ما جرى له في حيواته السابقة. وفي إحدى الليالي سأله أصغرهم عمّ يقصد بذلك؟ فقال: إن الانسان مركب من جسم وروح، أما الجسم فيفنى وتبقى

** شجرة البو، تسمى أحيانا شجرة العرفان، التي تحتها أشرقت شمس الهداية على بوذا، ويرى البعض أنها شجرة من فصيلة التين. وقد عنى بها البوذيون كثيراً وجعلوها موضع تقدير وتقديس. ويرى البعض الآخر أنها شجرة التين التي وردت في القرآن الكريم «والتين والزيتون وطور سينين» فالتين لبوذا، والزيتون رمز لعيسى وطور سينين رمز لموسى، وتقدّم التين على الزيتون إشارة إلى أن ظهور بوذا كان قبل ظهور عيسى.

المترجم: ص ٢١٩ من المرجع نفسه.

الروح ويطول عمرها وتعيش في كثير من الأجساد متعذبة هائمة على الأرض حتى تنتقي وتكمل. (بهذا كان يعتقد أفلاطون أيضاً). إن المآسي التي تصيب الإنسان الصالح هي نتيجة الأخطاء التي ارتكبها في إحدى حيواته السابقة. إن الفرد حياته الروحية طويلة، وكما أن جسمه فان فإن الروح بحاجة إلى عدة أجسام كي تتحرر في عالم مملوء بالآلام والآثام. وما الجسد إلا وعاء سريع العطب يحمل الروح مدة من السنين بين جنبيه. إن حياة الفرد نتيجة لحيواته السابقة، فالأخطاء تولّد الأحزان والآلام، أما إذا كانت الحياة السابقة مستقيمة فإنها تحدث فيه الطمأنينة والهناء. والإنسان يحصد ما بذر».

ومن أقواله :

- «الانسان مزيج من جسم مادّي وقوة روحية، تحرروا من هذا الجسم المادي تبلغوا الكمال.

- الولادة ألم، والوقوع في براثن المرض ألم، ثم الناس والموت ألم. ولا يمكن التخلص من العذاب إلا بالتخلص من الأنانية والرغبات. لتُخَيِّم المحبة في قلوبكم والطيب في أعمالكم.

- الحقيقة تقنع الناس لا القوة، فلا تبالوا بعنفهم تجاهكم.

- ما نفع الثياب النظيفة والشعر المجدّل ؟إن الداخل هو الأهم.

- إعلموا أيها المتأملون أن ما نحن عليه إن هو إلا نتيجة ما فكّرنا به، وأحوالنا مبنيّة على أفكارنا وناشئة عنها، فإذا فكّر الانسان وقال وعمل بفكر نقيّ صالح فإن السعادة تتبعه كالظل. لا يطفأ البغض بالبغض، بل بالحب وحده يقهر.

- كل كائن معرّض للموت والفناء، والحقيقة خالدة. فاعملوا لتنالوا الخلاص.

- الجنة هنا في الأرض، في نفوس الناس، والأجدى البحث عنها في الصدور لتتحقق في الدنيا، فهي الكمال الإنساني.

- المؤمن لا يهاب الموت والحق، فالموت لا بد منه، ولا ضرورة للتعلق بالدنيا.

- الحقيقة وحدها التي تنتصر لا الضلال.

- الحقائق هي : الإيمان بالقلب والمحافظة على الأسس الروحية، النظر الذي يبدّد الأوهام والشكوك. السعي لغايات نبيلة، طلب العيش من طريق شريف، حفظ أعمال الناس الحميدة وتناسي أخطائهم، مزج الحياة بالحياد والعفة» [٢].

رأى بوذا قبل سقراط أن الموت مقدمة للحياة، وأعلن خلود الروح. وفي هذا المعنى يقول المعلم كمال جنبلاط : «إن الحياة تولد من الموت على الدوام، ولا يوجد في هذا المستوى تناقض بين الموت والحياة» [٣].

وقد قال بوذا : «الأحياء يتبدلون والحقيقة ثابتة باقية إلى الأبد. والأفكار تضمحلّ، اما المعرفة فتبقى. الحقيقة الباقية هي الروح، إذ ما زالت تتعاقب على الأجسام حتى نالت نعمة تكفير الذنوب، وفازت براحة الخلود، بدار النعيم الأبدي» [٤].

لقد سلك بوذا الجادّة الوسطى، فلم يرَ الروح عائدة لنفس الجسم الذي فارقته ولم يرَها تموت بموت الجسم.

وعن وجود الخالق قال : «لم يكن ثمّة ليل ولا نهار إلا الواحد الأحد، ولا شيء سواه، موجود في ذاته قبل وجود الواجدين، منزّه ذاته بذاته، معبود في ذاته».

. . . سأله يوماً أحد البراهمة : «ما هو السيف الذي لا يضاهى حدّه، والسمّ الذي لا سمّ أشد منه، والنار الأشد التهاباً، وما هو أكثر الليالي حلكة ؟

فقال بوذا : الكلام هو أشد السيوف قطعاً، والشهوة أشد السموم سمّاً، والملذات الحسية أشد النار اضطراماً، والجهل أحلك الليالي.

ثم سأله : من هو الرابح الأكبر، والخاسر الأكبر، والسلاح الذي لا يخرق، وأصلب الدروع، وأمضى الأسلحة ؟

قال : الذي يعطي دون رغبة في الأخذ هو الرابح الأكبر، والذي يأخذ دون أن يعطي هو الخاسر الأكبر، والحكمة أفضل سلاح، والصبر خير درع.

– ما الذي يجذب وينفّر، وما هو أشد الآلام وأحسن الرضى ؟

– إن الخير هو الذي يجذب والشر هو الذي ينفّر، والألم الأكبر هو السلوك السيء، والتحرّر هو أحسن الرضى والبهجات .

– ما هو المسبّب لخراب العالم، وماذا يحطم الصداقات، وما أشد الحمّيات حدّة؟

– الجهل يخرب العالم، والحسد والأنانية يصدّعان الصداقات، والكراهية أشد الحمّيات وطأة .

– ما الذي لا يُحرق ولا يُغلب، والقادر على بناء العالم بأسره ؟

– المحبة ومكسب الأعمال الصالحة» (٥) .

. . . «فقدت إمرأة ولدها الوحيد، فلم تصدّق أنه مات، وذهبت لتفتش له عن دواء يعيد إليه الحياة . إلتقت ببوذا، فطلبت منه دواء لابنها الذي سكت ولم يعد يتحرك . قال لها بوذا : إنني أعرف دواء وحيداً يعيد لابنك الحياة، إذهبي واحضري لي حبة خردل من بيت لم يمت فيه أحد .

ذهبت المرأة ودخلت البيت الأول حتى إذا أعطوها حبة الخردل سألتهم : هل مات أحد في بيتكم ؟ وهالها الجواب : مات الكثيرون وبقي عدة أشخاص فقط . أعادت لهم الحبة، وانتقلت إلى بيت ثان وثالث ورابع . . . دون جدوى .

فرجعت إلى بوذا تطلب منه أن يدلّها على البيت الذي لم يفقد أحداً : فقال لها : في بحثك وجدت البلسم الذي كنت أودّ إرشادك إليه .

بالأمس كنت تبكين فقيدك، واليوم عرفت أن العالم بأسره يبكي من ألم يشابه مصابك . كلنا سنَموت ولن ينفعنا أي تعلّق بالأَرض .

بكت المرأة، فقال لها : إني مستعد للتضحية بدمي إذا كان ذلك يوقف دموعك . لا مناص من الموت، فالولادة تقود إليه . الموت أطرش لا يسمع صوت المحبة، ومن يودّ راحة القلب عليه أن ينزع من جراحه سهام اللوعة والتفجع» (٦) .

وكان كلامه سبباً لعزاء تلك المرأة الثكلى . . .

كتب البارون الاسكتلندي السير «هوغ ريس» عندما ذهب إلى «هارو» وخدم كضابط في سلاح الفرسان، وقد عاش هناك مع بوذيّ «ماهياتي» لعدة سنوات، أنه رأى عدداً من «البوذيستافات» - الحكماء الروحيون من أتباع بوذا-، ومما كتبه عنهم قوله : «هنالك اعتقادات معروفة لدى البوذيين أن خمسة كائنات معصومة «بوديستافات» توجّه وتراقب وتنظّم مصير هذا العالم، يلتقون مرة كل سنة في كهف من كهوف جبل «هملايا»، وذلك لاتخاذ القرارات المناسبة. وكائن من هؤلاء يعيش بصورة دائمة في أعلى جبال «هملايا» -أعلى جبال في العالم-، وكائن آخر يعيش فوق «كارنكورمز» الاسكتلندية» (٧).

المراجع :

١ - د. محمد الزعبي وعلي زيعور : «البوذية» طبع ونشر مطبعة الانصاف-بيروت، ١٩٦٤ . المقدمة والأناشيد للمعلم كمال جنبلاط . ص ٤٦ .

٢- المرجع نفسه . ص ٥٧ .

٣- كمال جنبلاط : «فيما يتعدى الحرف» الدار التقدمية-المختارة. طبعة ثالثة ١٩٨٧ . ص ١٠٦

٤و٥- د. الزعبي وزيعور : المرجع السابق ص ٥٨و٥٩ .

٦- نفس المرجع . ص ٦٤-٦٥ .

٧- سعيد حمود ملاعب : «حضارة الحكمة والحكماء عبر العصور» الجزء الثاني ١٩٨٥ .

دون ذكر لدار النشر . ص ١٨٦

القاسم المشترك بين الحكماء الروحيين*

لئن اختلفت التعابير الصادرة عن الحكماء الفلاسفة الروحيين، من حيث الشكل، فالجوهر يبقى-في حد ذاته-واحداً من حيث المضمون، فهو يشكل قاسماً مشتركاً بينهم، عبّر عنه كل منهم بنظرته إليه من زاويته الخاصة، وبأسلوبه الخاص. وهذا القاسم المشترك تمحور حول العلوم الإلهية، وحدانية الخالق سبحانه، وإبداعه العقل الكلي والنفس الكلية، وخلود النفس وتنقلاتها المستمرة، وتنزيه الخالق:

«الله تعالى هو الخالق المبدع، الواحد الأحد، واحد لا كالأحاد، ولا يدخل في العدد، ولا يُدرك من جهة الفكر العقلي، غير مُدْرَك من نحو ذاته، إنما يُدرك بآثاره وصنائعه وأفعاله» (فيثاغورس).

«إن الباري تعالى جوهر فقط: فالعقل والمنطق متأخران وعاجزان عن اكتناه وصفه وإدراكه، وأخصّ أوصافه الحيّ القيّوم» (سقراط).

«إن للعالم مبدعاً أزلياً يعبّر عنه بالهيولى الأولى. كان في الأزل ولم يكن في الوجود رسم ولا ظلّ ولا مثال» (أفلاطون).

«ولم يكن ثمّة نهار وليل، إلا الواحد ولا شيء سواه، موجود بذاته قبل وجود الواجدين، منزه ذاته بذاته، معبود في ذاته» (بوذا).

«هو الخالق لجميع الموجودات، وما نراه من السماوات والأرض، وما فيهما وما عليهما، والنجوم والبحار والجبال والأنهار. . . »(الاسكندر الكبير).

هذه الخصائص الربانية كانت نقطة الإلتقاء الأولى عند جميع هؤلاء الحكماء، ومن آمن بتعاليمهم من تلامذتهم الروحيين، وجماعاتهم المؤمنين التابعين لهم في كل عصر وزمان ومكان. وتتلخص بالخصائص التالية:

---

*إستنتاج مما سبق ذكره عن الحكماء الروحيين.

الله جوهر من ذاته، مبدع أزلي، واحد أحد، منزه عن الصفات والأسماء والعدد. ويلتقي معظمهم حول الإيمان بإله واحد، ومن هؤلاء: هرمس الهرامسة، ديونيس، فيثاغورس وأفلاطون... «الذين انبثقت عنهم المدارس الروحانية والتي منها: الديونيسية، الأورفيّة، الفيثاغورية، الأفلاطونية وشريعة التوحيد»[1].

أما النقطة الثانية التي تتعلق بإبداع العقل الكلي والنفس الكلية، وما نشأ عنهما من عقول ونفوس جزئية، فقد أجمع معظم الحكماء على النقاط التالية:

«الخالق سبحانه هو معلّ علة العلل، الذي هو العقل الكلي، أبدعه من نوره، ومن جوهر العقل انبثقت النفس الكلية، ومنها كانت النفوس الجزئية.. وصوّر في العقل الصور الروحانية العقلية، وصوّر العقل في النفس الكلية ما استفاده من العنصر الأول، وصورت النفس الكلية في الطبيعة ما استفادته من العقل. وعقولنا هي جزء من العقل الكلي» (أنباذقليس).

«أبدع العقل الكلي، وبتوسّطه النفس الكلية المنبثقة عن العقل، انبثاق الصورة عن المرآة» (أفلاطون).

«العقل هو الخير الأول الذي تميل إليه النفس التي انبثقت عنه، وهي تشتاق إليه اشتياق العقل إلى مبدعه- الباري تعالى- أبدع الأشياء فهو علّة كونها وعلة شوقها إليه» (أفلاطون).

كما أجمعوا على أن النفس خالدة لا تموت، وتنتقل باستمرار من جسد إلى جسد، وهو ما عرف بالتقمص، وذلك لتصفو وتطهر. ونظرية التقمص «مرّت مراحلها الهندية والأورفية والمصرية والفيثاغورية والأفلاطونية، بتعابير مختلفة، إلى أن تولّتها فلسفة التوحيد وبلورتها بشكلها الحاضر»... ويعتمد القول بالتقمص على العدل الإلهي، «إذ ليس من العدل أن يحاسب الله الإنسان على فترة محدودة من الزمن قصيرة. وكان على الإنسان أن يمرّ في جميع الأدوار ليظهر جوهر نفسه، فيستقيم العدل. والعدل صفة من صفات الله عزّ وجلّ»[2].

فهرمس الهرامسة، في مصر، كان يومن بجوهريّة النفس وعدم تجزئتها ولا

تعدّدها، وخلودها ومقاضاتها.

«كذلك زاما في أوروبا، وكرشنا في الهند، وغيرهما كانوا يؤمنون بخلود الروح وانتقالها المستمر».

بالإضافة إلى الحكماء اليونانيين وغيرهم من الحكماء: فيثاغورس كان يؤمن بخلود الروح، وتقمص مستمر حتى يوم الحساب. وكذلك أفلاطون، حيث يقول: «إن النفس أهبطت من العالم العقلي المجرّد إلى عالم المادة، لتُبتلى وتمحّص، ثم تعود بعد الموت إلى العالم العقلي لتسعد أو تشقى بما فيها من تذكار ما كان لها في الحياة إحسان أو إساءة».

وكذلك بوذا الذي يقول: «الجسم يفنى والروح تبقى وتعيش في كثير من الأجساد حتى تنتقي وتكمل. الأحياء يتبدلون، والحقيقة، التي هي الروح، باقية إلى الأبد. إذ ما زالت تتعاقب على الأجسام حتى نالت نعمة التكفير عن الذنوب وفازت براحة الخلود». وكان بوذا-كما ورد سابقاً-يجمع تلامذته ويقصّ عليهم ما جرى له في حيواته السابقة.

وقد رأى سقراط، من بعده، «أن الموت مقدمة للحياة» لذلك أعلن وتحدث عن خلود الروح، ولم يرها تموت بموت الجسد.

إن هؤلاء الحكماء «أفلاطون وسقراط وفيثاغورس وأرسطو وسواهم من الحكماء والفلاسفة، كانوا روّاد هذا الاعتقاد وناقليه من مهده في الشرق إلى أوروبا».

وهكذا، نستخلص مما تقدم، تطابق الأفكار بين هؤلاء الحكماء الذي كانت لهم وجهة نظر واحدة تجاه خالق الأكوان، وتجاه العقل والنفس اللّذيْن هما من إبداع الخالق سبحانه، فشكلت هذه المواضيع قاسماً مشتركاً بينهم. «والله فوق كل ذي علم عليم». . . «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا». (صدق الله العظيم).

المراجع :

١ - د. سامي ابو شقرا : «عقيدة الدروز». مرجع سابق. ص ١٠٧ .

٢- القاضي أمين طليع : «التقمص» منشورات عويدات. بيروت-باريس. ١٩٨٠ . سلسلة (زدني علماً). ص ١٨

السجلّ الذي أصدره الخليفة الفاطمي "الحاكم بأمر الله" لبثّ دعوة التوحيد ونشرها *

«بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله خالق ما وقع تحت القياس والحواس، والمتعالي عن أن تدركه البصائر بالاستدلال، والأبصار بالإيناس، الذي اختار الإسلام فأظهره وعظّمه، واستخلص الإيمان فأعزّه وكرّمه، وأوجد بهما الحجة على الخلائق الذين نصّبهم أعلاماً في أرضه، وجعلهم حكاماً بين عباده.

قال الله تعالى: «وجعلناهم أمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وكانوا لنا عابدين». يحمده أمير المؤمنين أن اصطفاه لخلافته وخصّه بلطائف حكمته، وأقامه دليلاً على مناهج هدايته، وداعياً إلى سبيل رحمته. ويسأله الصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بعثه رحمة للعالمين، فأوضح معالم الدين، وشرع ظواهره للمسلمين، وفوّض إليه هداية المستجيبين، وأودع بواطنه لوصيه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، والتأليف بين قلوب المؤمنين. ففجّر ينابيع الرشاد، وغوّر ضلالات الإلحاد، وقاتل على التأويل كما قاتل على رسول الله، حتى أنار وأوضح السبيل وحسر نقاب البيان، وأطلع شمس البرهان. صلى الله عليهما وسلم ما تعاقب الملوان وترادف الجديدان.

وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة، وأورثه من منصب الإمامة والأئمة، وفوّض إليه في التوقيف على حدود الدين، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين، وتنوير من استمسك بعروته من المستجيبين، يعلن بإقامة الدعوة الهادية بين أوليائه، وسبوغ ظلها على أتباعه وخلصائه، وتغذية أفهامهم بلبانها، وإرهاق عقولهم ببيانها، وتهذيب أفكارهم بلطائفها، وإنقاذهم من حيرة الشكوك

* د. عارف تامر: «الحاكم بأمر الله». دار الآفاق. طبعة أولى ١٩٨٢. ص ١٤٤-١٤٨.

بمعارفها، وتوقيفهم من علومها على ما يجلب لهم سبل الرضوان، ويفضي بهم إلى رَوْح الجنان، والخلود السرمدي في جوار الجوّاد المنّان. ما يزال نظره إلى نوْطها بنار سارقي نورها، عالم بسرائرها المدفونة وغوامضها المكنونة، موفراً على ذلك اختباره وقاصية انتقاده، حتى أدّاه الاجتهاد إليك، فأسندها منك إلى كفئها وكافيها، ومدبّرها المبرّز فيها، ولسانها المترجم عن حقائقها الخفية ودقائقها المطوّية. ثقة بوثاقة دينك وصحة يقينك، وشهود هديْك وهواك، وفضل سيرتك في كل ما ولاّك، ومحض إخلاصك وقديم اختصاصك. وأجراك على رسم هذه الخدمة في التشريف والحملان والتنويه ومضاعفة الإحسان. فتَقَلّد ما قلدك أمير المؤمنين مستشعراً للتقوى، عادلاً عن الهوى، مالكاً سبيل الهدى، فإن التقوى أحصن الجُنَن وأزين الزِّينَ. «وادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن»، فالله تعالى يقول أيضا: «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً». وخذ العهد على كل مستجيب راغب، وشدّ العقد على كل منقاد طاهر، ومن يظهر لك إخلاصه ويقينه، ويصحّ عندك عفافه ودينه. وحضّهم على الوفاء بما تعاهدتم عليه، قال الله تعالى: «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا». ويقول عز وجلّ: «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث إنما ينكث على نفسه». وكُفّ عن كافة أهل الخلاف والعناد، وجادلهم باللطف والسداد، واقبل منهم من أقبل إليك بالطوع والانقياد، ولا تُكْره أحداً على متابعتك والدخول في بيعتك، وإن حملك ذلك على الشفقة والرحمَة والحنان والعاطفة، فإن الله تعالى يقول لمن بعثه داعياً إليها: «ما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين». ولا تُلْق الوديعة إلا لحافظ الودائع، ولا تلق الحبّ إلا في مزرعة لا تكْدى على الزارع، توخَّ لغرسك أجلّ المغارس، وتوردهم مَشارع ماء الحياة المعين، وتقرّبهم بقربان المخلصين، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات إلى نور البراهين والآيات. واتْلُ عليهم مجالس الحكم التي تخرج إليك من الحضرة، على المؤمنين والمؤمنات، والمستجيبين والمستجيبات، في قصور الخلافة الزاهرة والمسجد الجامع في القاهرة المعزّية.

وصنْ أسرار الحكم إلا عن أهلها، ولا تبذلها إلا لمستحقها، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمّله، ولا تثقل أفهامهم بتقلّبه. واجمع من التبصّر

بين أدلة الشرائع والعقول، ودلّ على اتصال المثل بالممثول، فإن الظواهر أجسام والبواطن أشباحها، والبواطن أنفس والظواهر أرواحها، وأن لا قوام للأشباح بدون الأرواح، ولا قيام للأرواح في هذه الدار إلا بالأشباح، ولو افترقا لفسد النظام وانتسخ الإيجاد بالاعدام. واقتصرْ من البيان على ما يحرس في النفوس صور الإيمان، ويصون المستضعفين من الافتتان، وانْههم عن الإثم ظاهره وباطنه، فإن الله تعالى يقول: «وذروا ظاهر الإثم وباطنه».

إتخذْ كتاب الله مقتبساً تأخذ منه الأنوار، ودليلاً تقتفي آثاره، واتْلُهُ متبصراً وتأمله متفكراً، وتدبّر غوامض معانيه، وانشرْ ما طوي من الحكَم فيه، وتصرّف مع ما حلّله وحرّمه، ونقضه وأبرمه، فقد فصّله الله وأحكمه، وتَمسكْ بظاهره وتأويله ومُثله، ولا تَعْدل عن منهجه وسبله، واضمُمْ نشر المؤمنين واجمع شمل المستجيبين، وأرشدهم إلى طاعة أمير المؤمنين، وسوِّ بينهم في الوعظ والإرشاد. والله تعالى يقول في بيته الحرام: «سواء فيه العاكف والباد» وزدْ لهم من الفوائد والمواد على حسب قواهم من القبول وما يظهر لك من جودة المحصول.

درّجهم في العلم، ووفّ المؤمن حقه من الاحترام، ولا تعدم الجاهل عندك قولاً سلاماً، كما علّم رب السلام. وتوخّ رعاية المؤمنين وحماية المعاهدين، وميّزهم من العامة ما ميزهم الله به من فضل الإيمان والدين.

وأمّن لهم جانبك واحْنُ عليهم والطُفْ، وابسط لهم وجهك. وأقبلْ عليهم واعطف، فقد سمعت قول الله تعالى لسيد المرسلين: «واخفضْ جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين». لا تفسح لأحد منهم في التطاول بالدين، ولا الإضرار بأحد من المعاهدين والذميّين، وميزهم بالتواضع الذي هو حلية المؤمنين. وإذا أُلبس عليك أمر أو أشكل، وصعب عليك مرام وأعضل، فانهه إلى مقام الإمامة، متبعاً قول الله تعالى: «فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون»، «فإن تنازعتم في شيء فردوّه إلى الله والرسول، إنكم تؤمنون بالله واليوم الآخر وذلك خير وأحسن تأويلاً».

وليخرج إليك من بصائر توقيفها ومراشد تعريفها، ما يقفك على مناهج الحقيقة ويذهب بك في لاحب الطريقة. واقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزكاة والنجوى

والأخماس والقربات وما يجري هذا المجرى، وتقدّم إلى كاتب الدعوة بإثبات أسماء أربابه، واحمله إلى أمير المؤمنين لينتفع مخرجوه بتنقيله له ووصوله إليه، وتبرأ ذممهم عند الله منه. واستَنبْ عنك في أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة، ومَن تثق بديانته وتسكن فيه إلىَ وفور صناعته، واعهدْ إليهم كما عُهد إليك، وخذ عليهم كما أُخذ عليك، واستطلق لهم من فضل أمير المؤمنين ما يعينهم على خدمته ويحمل ثقلهم عن أهل دعوته. واستخدمْ كاتباً دينياً أميناً بصيراً، عارفاً حقيقاً بالاطلاع على أسرار الحكمة التي أمر الله بصيانتها وكتمانها عن غير أهلها.. نقيّاً حصيفاً لطيفاً ينزلهم في مجلسك بحسب مراتبهم من العلم والدين والفضل.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، فتدبره متبصراً، وراجعه متدبراً، وبه الوصايا تهدي وتسدّد وتوفق وترشد، واستعن بالله يمدّك بمعونته ويدُم حظك من هدايته.. إن شاء الله تعالى»** .

** صدر هذا السجلّ ونشر ليلة الجمعة في أول محرّم سنة ٤٠٨ هجرية، الموافق ٣٠ نوار ١٠١٧ ميلادية.

الداعي محمد اسماعيل التميمي وأبو العلاء المعري

في عصر كثرت فيه الثورات الدينية والإجتماعية والسياسية، وتوسّع فيه نفوذ الفاطميين وسلطانهم، كانت فيه جمعية «إخوان الصفاء» تنمو وتزدهر، وبدأت دعوة التوحيد تأخذ منحىً جديداً على يد الدعاة الذين انتشروا في جميع الأقطار. وكانت دعوتهم سرّية في بادئ الأمر، حتى كان عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي أمر بكشف الدعوة ونشرها بإصداره السجل الآنف الذكر.

وفيما يلي نص الحديث-الدعوة- الذي جرى بين الداعي محمد اسماعيل التميمي، وبين أبي العلاء المعرّي، في معرّة النعمان، عندما وصل إليها الداعي بأمر من الخليفة الحاكم، بقصد دعوة أبي العلاء للحضور إلى مصر، ومشاركة الدعاة في نشر دعوتهم :

*«إعلم يا أحمد بن عبدالله-المعرّي-، يا أخانا الذي انتدبنا مولانا الحاكم للاتصال به، والبوح له بجميع أسرار دعوتنا، معتمدين على شرفه ونبله. إعلم، أيها المستجيب، أن الناس قلدوا سفلتهم وأطاعوا سادتهم وكبراءهم، اتّباعاً للملوك وطلباً للدنيا التي هي في أيدي متّبعي الإثم وأجناد الظلمة، وأعوان الفسَقَة الذين يحبون العاجلة ويجتهدون في طلب الرئاسة على الضعفاء-ومكايدة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-في أمته، وتغيير كتاب الله-عزّ وجلّ-وتبديل سنة رسوله (صلعم) ومخالفة دعوته وإفساد شريعته، ومعاندة الخلفاء والأئمة من بعده. إعلم أن دين محمد ما جاء بالتحلّي ولا بأماني الرجال ولا شهوات الناس، ولا بما خفّ على الألسنة وعرفته دهماء العامة، ولكنه صعب مستصعب وأمر مستقبل، وعلم خفيّ، ستره الله في حُجبه وعظمُ شأنه عن ابتذال أسراره. فهو سر الله المكتوم وأمره المستور الذي لا يطيق حمله، ولا ينهض بأعبائه وثقله إلا مَلَك مقرّب، أو مرسَل، أو عبد امتحن الله قلبه بالإيمان.

... فكّر معنا : ما معنى رمي الجمار والعدو بين الصفا والمروة ؟ ولمَ كانت الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة ؟ وما بال الجُنُب يغتسل من ماء دَافق يسير

ولا يغتسل من البول النجس الكثير ؟ وما بال الله خلق الدنيا في ستة أيام، أعَجز عن خلقها في ساعة واحدة ؟ وما معنى الصراط المضروب في القرآن مثلاً ؟ والكاتبين الحافظين؟ ومالنا لا نراها، وما تبديل الأرض غير الأرض ؟وما عذاب جهنم ؟وكيف يصحّ تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب بعد حتى يتعذب ؟

وما معنى، «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية» ؟ وما إبليس والشياطين وما وصفوا به، وأين مستقرّهم ؟ وما يأجوج ومأجوج، وهاروت وماروت ؟ وما شجرة الزقّوم النابتة في الجحيم ؟ وما سبعة أبواب النار، وثمانية أبواب الجنة ؟ وما دابّة الأرض ورؤوس الشياطين والشجرة الملعونة في القرآن ؟ والتين والزيتون ؟ وما الخنّس الكنّس ؟ وما معنى «ألم» «وكهيعص» و «حم»، و «عسق» ؟ ولم جُعلت السماوات سبعاً، والأرضون سبعاً، والمثاني في القرآن سبع آيات ؟ ولم فجّرت العيون اثنتي عشرة، وجعلت الشهور اثني عشر شهراً ؟ وما يعمل معكم عمل الكتاب والسنة، ومعاني الفرائض اللازمة ؟ .

فكّروا اولاً في أنفسكم : أين أرواحكم، وكيف صورها، وأين مستقرها، وما أول أمرها ؟ والإنسان وما هو، وما حقيقته ؟ وما الفرق بين حياته وحياة البهائم، وحياة الحشرات ؟ وما الذي بانت به حياة الحشرات من حياة النبات ؟ وما معنى قول رسول الله (صلعم) «خُلقت حواء من ضلع آدم» ؟ وما معنى قول الفلاسفة : «الإنسان عالم صغير، والعالم إنسان كبير» ؟ ولمَ كانت قامة الإنسان منتصبة دون غيره من الحيوانات ؟ ولم كان في يديه من الأصابع عشر، وفي رجليه عشر، وفي كل إصبع من أصابع يديه ثلاثة شقوق إلا الإبهام فإن فيه شقّان فقط ؟ ولم كان في ظهره اثنتا عشرة عقدة، وفي عنقه سبع عقد ؟ ولم جُعل عنقه صورة «ميم»، ويداه «حاء»، وبطنه «ميماً» ورجلاه «دالاً»، حتى صار كتابا مرسوماً يترجم عن «محمد» ؟ ولم جُعل إذا انتصبت قامته صورة «ألف»، وإذا ركع صارت صورة «لام» وإذا سجد صورة «هاء» فكان كتاباً يدل على «الله» ؟ ولمَ جعلت عظام الإنسان كذا، وأعداد أسنانه كذا، والأعضاء الرئيسية كذا ؟ إلى آخر ما هنالك من عروق وأعضاء، ووجوه ومنافع الحيوان ؟

ثم قال : فلنفكرّ في حالنا ونعتبر، ونعلم أن الذي خلقنا حكيم غير مجازف، وأنه فعل ذلك لحكمة، وله فيها أسرار خفّية حتى جمع ما جمع وفرّق ما فرّق. كيف يسعنا الإعراض عن هذه الأمور، والله تعالى يقول : «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى نبيّن لهم أنه الحق». فأي شيء رآه الكفار في أنفسهم وفي الآفاق حتى عرفوا أنه الحق ؟ وأي حق عرفه من جحد الديانة ؟

ألا ترى أننا جهلنا أنفسنا التي مَنْ جهلها كان حريّاً أن لا يعلم غيرها؟»[*].

[*] مارون عبود : «زوبعة الدهور، أبو العلاء المعري». دار مارون عبود. الطبعة الثالثة ١٩٧٠ . ص ٥٣-٥٦ .

أقوال حكيمة

- «لا مال أوفر من العقل، ولا فقر أشد من الجهل، ولا قرين خير من حسن الخلق، ولا ظهير أشد وأوثق من مشاورة، ولا فائدة خير من التوفيق. ولا ميراث خير من الأدب». (ديوجينيس).

-«إنما كثير من الناس يريدون بالعيش أن يأكلوا، أما أنا فأريد بالأكل أن أعيش، وأريد بالعيش أن أعيش عيشاً عقلياً». (ديوجينيس).

- «يهلك الانسان في شيئين : فضول الكلام وفضول المال» .

-«لسانك أسَدك إن أطلقته افترسك، وإن أمسكته حرسك» (الامير السيد عبد الله) .

- «ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه، وعلى صفحات وجهه».

-«لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث : في نكبته، وفي غيبته، وفي وفاته».

-«أول الدين معرفة الخالق، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه».

-«إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا». (الإمام علي).

- «اعبد الله وكأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». (حديث شريف).

- «الغذاء الحقيقي بأربعة : غذاء النفس بالدّين، وغذاء القلب باليقين، وغذاء الجسم بالرزق الحلال، وغذاء العين بمراقبة ذي الجلال». (؟؟).

- «الصبر من الإيمان، وهو بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان، وإذا ذهب الإيمان ذهب الجسد» (رسائل الهند).

- «سنموت على إيماننا بأن السلّم حق، والخير حق، وأن الواحد الأحد الخالق حق» (طاغور).

- «النفس زجاجة والعلم سراج، وحكمة الله الزيت. فإذا أشرقت الزجاجة فأنت حيّ، وإذا أظلمت فأنت ميت» (ابن سينا).

- العاقل لا يعيب الناس حتى يقوّم نفسه» (؟؟).

- «الجنون في الفن إبداع، وفي الشعر حكمة، والجنون بالله أقصى درجات العبادة» (جبران)

- «الجاهل من عثر بحجر مرتين» (سقراط الحكيم).

-«لا خير في الحياة إلا لرجلين : ناطق عالم، وصامت واعٍ». (سقراط)

- «السيرة الحسنة كشجرة الزيتون، لا تنمو سريعاً لكنها تعيش طويلاً».

-«إني أعجب بالشباب الذي يزدان بحكمة الشيوخ، وبالشيخ الذي يزدان بنشاط الشباب. ومن عاش بمقتضى هذا المبدأ فقد يشيخ بالجسم، وأما عقله فلا يشيخ». (شيشرون)

- «واجب النفس أن تتهيأ للعالم الآخر. بممارسة الفضيلة، إذ أن الفضيلة خيرها الحقيقي. والفضيلة علم والرذيلة جهل، وما أن نعلّم الانسان الفضيلة، ونبصّره بالخير حتى يتوجه إليهما. أما الشرير فرجل جهل نفسه وخيره» (سقراط).

- «قيل لبعضهم ما المروءة ؟قال : أن لا تعمل في السر شيئاً تستحي منه في العلانية».

«إذا جالست العلماء فانصت لهم، وإذا جالست الجهلاء فانصت لهم أيضاً، فإنصاتك للعلماء زيادة في العلم، وإنصاتك للجهلاء زيادة في الحلم» (نسيب عريضه).

- «الصديق من لا يغضب من الحق إذا سمعه» (فيثاغورس).

- «إيماني لا يتزعزع بأن المحبة أقوى من البغض، واللّين أصلب قناة من

العنف، وبأن الحق منتصر لا بدّ في النهاية» (غاندي).

- «يا ربّ، إذا جعلتني أقوى فاجعلني أكثر تواضعاً، وإذا جعلتني أكثر فهماً فاجعلني أكثر سماحة».

-«إني أتخيل نفسي أمام صاحب السجلّ السماوي، وهو يسأل ويكتب، فأجيب على سؤاله الأخير: إني من قوم في جبل لبنان يعبدون راهباً سورياً أو سريانياً يدعى مارون، فيهزّ رأسه جاهلاً: لا لبنان يعرف، ولا مارون. ثم يبتسم لمسيحيتي الشاملة. ويطأطئ رأسه عندما أنطق بكلمة «التوحيد». (أمين الريحاني).

- «سوف أحسن إلى المسيء كي يصبح المسيء محسناً، وسأكون أميناً مع الخائن حتى يصبح هذا الخائن أميناً.. لأنه من لا يثق بالناس فلن يجد من يثق به» (لاوتسي).

- «إن الذي يغلط من قبل أن يعرف الحق فإنه يستأهل أن يغفر له ذنبه، وأما الذي يغلط بعد علمه به فإنه لا يستأهل أن يغفر له» (سقراط).

-«لا تعاشر من الناس إلا من عرف مقدار نفسه، فالمعاشرة صفة طيبة، ومن لم يعرف مقدار نفسه فلا خير من عشرته» (سقراط).

- «الأشرار يتتبعون مساوئ الناس ويتركون محاسنهم، كما يتتبّع الذباب المواضع الفاسدة من الجسد، ويترك الصحيح منه» (أفلاطون).

- «التديّن الحقيقي هو التدين الصامت والسرّي. إن التدين القائم على حب الظهور هو تديّن مزيف يقصد به خداع الناس».

-« إذا عرفتم الله تعالى، الواحد الأحد، أصبح بإمكانكم معرفة جميع الأمور الأخرى. إن الأصفار التي نضعها على يمين الواحد تصبح أعداداً لا حصر لها، أما إذا أزلنا الواحد فلا يبقى أمامنا سوى مجموعة من الأصفار لا تساوي شيئاً. فالتعدّدية إذاً لا قيمة لها إلا بوجود الواحد. لذلك أقول لكم: أولاً الله، وبعد ذلك العالم ومن فيه وما فيه».

- «الرجل الكبير حقاً هو الرجل المتواضع. فالهضاب والجبال المرتفعة لا تصلح للزراعة، أما الأراضي المنخفضة فهي التي تنتج الحبوب والغلال، لأن مياه الأمطار تتجمع فيها».

- «المعرفة الحقيقية هي التي تطهّر العقل والقلب معاً، وما سوى ذلك إلا زيادة في الجهل». (من أقوال راما كريشنا).

- «أن تعرف الآخرين هو الذكاء، أن نعرف ذواتنا هي الحكمة. أن ننتصر على الآخرين هو الفوز، أن ننتصر على أنفسنا هي الإرادة. أن نكتفي هو الغنى، أن نسيطر على أنفسنا هي الإرادة الحقيقية». (لاوتسي)

- «إن آفة البشرية هي التعصّب الذميم، لأنه العمى والصمّم، أما الصدق والإنصاف، أما الإعتراف بالحقيقة وإنصافك لخصمك، فيشهد لك بالفضل وحسن الرأي». (محمد جواد مغنية).

- «إني أعتقد أن السجن بطلب الحق من الظالمين العتاة رياضة، والنفي في سبيل ذلك سياحة، والقتل شهادة». (جمال الدين الأفغاني).

- «الدين في عقيدتي هدف وطريق: أما الهدف فهو انعتاق الإنسان من ربقة الحيوان في أسافله، والانطلاق إلى الإله الكامن في أعاليه... إلى المعرفة التي لا يخفاها شيء، والقدوة التي لا تعصيها مقدرة، والحياة التي لا يطالها موت. وأما الطريق فهو ترويض العقل والقلب ترويضاً لا فتور فيه، ولا انقطاع على ممارسة الفضيلة والإقلاع عن الرذيلة. أما الفضيلة وما هي، والرذيلة وما هي، فوجدان الإنسان كفيل بالتمييز بينهما. والصلاح هو تحكيم شهوات القلب البيض في شهواته السود، وذلك يعني جعل الإنسان فينا سيد الحيوان». (ميخائيل نعيمه).

- «على الانسان أن يؤمن لا خوفاً من الموت ولا طمعاً في خلاص النفس، ولا لأن عامة الناس يؤمنون بسبب المعتقدات والتقاليد الموروثة بل عليه أن يؤمن لسبب بسيط جداً، وهو أن الله موجود». (راما كريشنا).

- «الغضب والشهوة وكل خلق من أخلاق النفس له مقدار يصلح به حال

الشخص الذي يكون فيه. فإن زاد فيه على ذلك أخرجه إلى الشر، لأن الغضب يشبه الملح الذي يطرح في الأطعمة، فإذا كان بقدر موافق أصلح الطعام، وإن كان زائداً أفسده وأخرجه إلى غير الاستطابة، وكذلك سائر القوى. فالملح قليله يصلح وكثيره يفسد. وهذا ما يدعونا إلى الاعتدال في كل الأمور» (أفلاطون).

- «إعلم أيها الرشيد، أن الأيام تأتي على كل شيء، فتخلق الأفعال وتمحو الآثار، وتميت الذكر، إلا ما رسخ في قلوب الناس من محبة تتوارثها الأعقاب. فاجتهد أيها الفاضل أن تظفر بالذكر الذي لا يموت، بأن تودع في قلوب الناس محبة يتبقى بها ذكرك وشرف مساعيك» (أرسطو).

- «قيل للاسكندر الكبير: ما بالك تعظّم مؤدبك أشد من تعظيمك لأبيك؟ فقال: أبي سبب حياتي الفانية، ومؤدبي سبب حياتي الباقية».

- «ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة: لا يعرف الحكيم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الصديق إلا عند الحاجة إليه» (لقمان الحكيم).

- «الموت في منظوره التوحيدي الأحديّ دور من أدوار الحياة الساعية إلى الكمال الذي انبثقت منه».

-«الحكماء أرواح طاهرة في أجساد ترابية».

-«أفراح الحياة الخمسة ملك لمن حاز الراحة والصحة وأبناء بردة، والحكمة وزوجة فاضلة». (أمثال هندية).

- «الحكماء هم الذين يهذبون أنفسهم ويحاسبونها وحدهم»

-«الزهد لا يكون بترك الأشياء والتنازل عنها، بل يكون باللاّتعلّق بالأشياء» (اتمنندا)

-« الغضب ينتج الزيغ، ومن الزّيغ تضطرب الذاكرة، وفقدان الذاكرة يقوّض الذكاء، وبتقويض الذكاء يتهدّم الإنسان» (راماكريشنا).

ومن أقواله أيضاً: «لكي تحصلوا على النعمة الإلهية يجب أن تكونوا بسطاء

عفويّين كالأطفال. يجب أن تعودوا إلى براءة الأطفال كي تدركوا الحقيقة الكونيّة. عندما يتحول البرعم إلى ثمرة، فإن الأوراق المحيطة به تتناثر تلقائياً من حوله، كذلك عندما ينمو الله في قلوبنا وفي ذواتنا، فإن جميع ضعفنا البشري يذوي ويتساقط».

- «النور الروحي هو منبَع كل جميل وكل نبيل».

- «إن شأن الضعيف أبداً أن يباهي بعزم ابن عمه وابن خاله، وشأن الأقرع أن يفاخر بشعر أخيه وجاره، والمفلس يذكرك بما كان عليه آباؤه وأجداده من الثروة». (جبران)

- «من كرمت عليه نفسه عَلَتْ همته، واستوجب ان يشار اليه بالعقل، فيقال: «فلان عاقل». أما إذا كان الرجل وضيع الهمة، ساقط النفس، متحملاً الذلّ، قانعاً بالاكل والشرب، فهو بالجاهل يوصف. فالعاقل يقوده عقله إلى محل البقاء والدوام، والجاهل يقوده جهله إلى محل الفناء والبوار». (رسائل اخوان الصفاء - المجلد الخامس. ص: ٢٩).

-«العالم عند الحكماء في منزلتين، لأنهم قومان: قوم للدنيا يطلبون، وعليها يتكالبون وفي حطامها يرغبون، لما في ذلك من الحكمة الإلهية لعمارة الدنيا، وإلا هلك الحرث والنسل، وقوم يرغبون في الآخرة ويسعون إليها. فالحكيم من عمل للدارين، وقدّر له اجتماع الحالتين». (ص: ٥٥ من المرجع السابق).

... قال ارسطوطاليس عندما تمت حيلته على الملك الذي أراد خراب بلده، وشكره الناس ودعوا لوالديه، أعني أباه وأمه، قال لهم: «ليس هذان أبواي على الحقيقة، إنما أبي هو افلاطون الذي ولّد عقلي وعلّمني الحقيقة، فله يجب الدعاء. فالمعلم لي علوماً صناعية أرضية بمنزلة الأم. والمعلم لي بالعلوم النبوية، والآراء الفلسفيةوالروحانية بمنزلة الأب».

ولذلك قال المسيح عليه السلام: «من لم يولد الولادتين لم ير ملكوت السماء» فللنفس ولادتان - جسمانية وروحانية - وإياهما عنى المسيح. فالولادة الجسمانية

من أبوين جسمانيين، والولادة الروحية عن طريق أبوين روحانيين يهذّبانها ويهديانها سواء السبيل». (المرجع السابق، ص: ١٤١).

من أقوال لقمان الحكيم : «مررت على كثير من الأنبياء، فاستفدت منهم ثمانية حكم:

١- إن كنت في الصلاة فاحفظ قلبك.

٢- إن كنت في مجالس الناس فاحفظ لسانك.

٣- إن كنت في بيوت الناس فاحفظ بصرك.

٤- إن كنت على الطعام فاحفظ معدتك.

واثنان لا تذكرهما أبداً:

٥- إساءة الناس إليك.

٦- إحسانك للناس.

واثنان لا تنساهما ابداً:

٧-٨- الله والدار الآخرة».

أخذت هذه الأقوال من مصادر عديدة، كثير منها ذكر سابقاً، ويتعذر ذكرها كلها بالتفصيل نظرا لوفرتها. ومعظمها من كتاب «تاريخ الحكماء» للشهرزوري، الوارد ذكره سابقاً، ومن مصادر أخرى.

الفصل الثاني

"الأولياء الصالحون والزاهدون المتعبدون"

ـ سير وأقوال ومواعظ ـ

ـ أدعية وابتهالات ـ

فهرس الفصل الثاني

الزّهد وماهيته

«الزهد أو التنسك ظاهرة عالمية، وجانب من أخصب جوانب الحياة الروحية. فالأولياء الصالحون، والعباد المتنسكون، والزهاد المتقشفون، هم صفوة مختارة تقدّم بسلوكها نماذج عليا للسلوك الروحي. وليس من المطلوب أن يكون عامة الناس نسّاكاً، فالله سبحانه وتعالى أمرنا بعبادته وتوحيده، وإطاعة أوامره والابتعاد عما نهانا عنه، لذا وجب على الناس التقيد بروح التقوى والدين وجوهره. وعلى التقيّ الورع أن يرشد الناس إلى ما فيه خلاصهم ونجاتهم في الآخرة فضلاً عن سعادتهم في الدنيا: يأمرون الناس بالمعروف وينهون عن المنكر.

ولا أظن أن هناك أحداً من النساك المتقشفين، في أي دين من الأديان، قد طالب الناس أن يعمّ الزهد جميعهم، لأنه يرى- ولا شك- أن ذلك من شأن خاصة الخاصة»

.. «هؤلاء الأتقياء الورعون تتمثل فيهم الانسانية في أعلى مراتبها وأطوارها، نجدهم في العالم القديم والمتوسط والحديث، كأنهم صبّوا جميعاً في قالب واحد، واستمدوا تلك الروحانية من نبع واحد. بل كأن قبساً من نور غير نور هذا العالم يسري في كيانهم. أما الهدف الذي يهدفون إليه، ويكرّسون حياتهم له، فهو خلاص نفوسهم، لا طمعاً بالثواب أو خوفاً من العقاب، بل إجلالاً وتعظيماً للباري الخالق سبحانه وتعالى. في هذا المطلب تتمثل الحياة عندهم، ومن أجله يبذلون كل عزيز لديهم، بما في ذلك أرواحهم».

«أما الدليل القاطع على صدق نزعتهم، وحسن تقواهم وورعهم، فهو استمساكهم بمبادئهم، وتشبثهم برسالاتهم، إلى أي دين انتسبوا، أو إلى أنه طائفة انتموا، رغم أساليب الاضطهاد والسخرية، وأمام عواصف الانذار والتهديد»[1].

«ويرى الامام الغزالي أن العلم وحده لا يجعل من العالم «ناسكاً»، وفي هذا يقول: «وظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن التوصل إليه بالتعلّم. فكم من

الفروق أن يعلَم الإنسان حال الصحة وحدّ الشبع وأسبابهما وشروطهما، وبين أن يكون سكراناً. . . فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة «الزهد» وشروطه وأسبابه، وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا. فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال. وإن ما يمكن تحصيله بطريق العلم قد حصلت، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والعلم، بل بالذوق والسلوك» [٢].

«في الحياة الروحية وحدها يعرف المرء الحقيقة الوجودية في ذاتها، كما يعرف صلته بها، لأنه يحمل قبساً من نورها في قلبه، وشبيه الشيء ينجذب إليه، والفرع دائم الحنين إلى أصله. وبينما يهيم الفيلسوف في ميدان العقل فلا يبرحه، يتجاوز العابد ميدان العقل إلى ميدان الوجدان والإرادة، أو ميدان الحرية المطلقة. . . بحيث يحيا حياة روحية خصبة، يشعر فيها بالسعادة العظمى، لا من جراء معرفته بالحقيقة فحسب، بل من أجل اتصاله بها وشعوره بالاتحاد معها».

. . . «إنهم رجال صدقوا الله ما عاهدوا عليه، إنسلخوا عن أنفسهم كما تنسلخ الحية عن قشرتها، وخرجوا عن دنياهم خروج الأحرار، وتخلصوا من كثافة المادة وسيطرتها، فكانوا كالأرض يطؤها البرّ والفاجر، وكالسحاب يُظلّ كل شيء، وكالمطر يسقي كل شيء» [٣].

«إن عظمة الخالق سبحانه وجلاله، ونعَمه وأفضاله، لم يَدَع الناس يهيمون في بحر الضلالة، ويتيهون في بيداء الشرك والجهالة، بل جعل لهم في كل حين مرشداً وهادياً يهديهم إلى صراطه المستقيم، عن طريق الأنبياء والرسل الكرام، الذين يبلّغون رسالته، ويتمّون نعمته بالدعوة إلى طاعته وعبادته، والتحلّي بالمناقب الحميدة، والقيام بالأعمال الصالحة، نجاة وخلاصاً من عذاب الآخرة. وإن سلوك طريق الشرك والإلحاد والشرّ يقود إلى سوء العاقبة، وبئس المصير. لذا كانت عبادته-جلّ جلالهُ-فرضاً واجباً على كل حيّ ناطق، ولكل طريقته وشريعته ودينه، فتلك حكمة الله وسنته في خلقه. «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» (صدق الله العظيم).

المراجع :

١ – الشيخ جميل أبو ترابي : «مخطوط البستان» تاريخ ٢٩/٦/١٩٨٣ . ص ٦ و ٧ .

٢ – الامام الغزالي : «المنقذ من الضلال» تعليق وتصحيح محمد جابر . مكتبة الجندي . ص ٤٣ – ٤٥ (بتصرّف) .

٣ – «مخطوط البستان» المرجع السابق . ص ١٢ .

ذو النون المصري

«يرى ذو النون المصري في كل مظهر من مظاهر الطبيعة، آية من آيات الله وشاهداً دالاً على وحدانيته وعظمته. لا يرى شيئاً إلا ويرى الله عنده.

... وأسلوب ذي النون في المحبة الإلهية أسلوب قوي متأجج العاطفة، لا هو بالأسلوب الهادئ المنبعث رأساً من تعاليم الدين، ولا هو بالأسلوب الغامض المتغلغل في أعماق التحليل الصوفيّ. إنه أسلوب رقيق جميل، تغلب عليه الشاعريّة وتتدفق فيه العاطفة الدينية. لهذا كانت أقواله في المحبة الإلهية أبلغ أثراً في أوساط الزاهدين من أقوال غيره».

يقول في أحد أدعيته:

«إلهي، ما أصغي إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر، ولا خرير ماء ولا ترنّم طائر، ولا دويّ ريح ولا قعقعة رعد... إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك، دالّة على أنه ليس كمثلك شيء- وأنك غالب لا تُغلب، وعالم لا تجهل، وحليم لا تَسْفَه، وعادل لا تجور.

إلهي!! أعترف لك بما دلّ على صنيعك، وشهد له فعلك، فهبْ لي اللهم طلب رضاك برضاي، ومسرة الوالد لولده، وبذكرك لمحبتي لك، ووقار الطمأنينة وتطلُّب العزيمة إليك. إنّ من لم يشبعه الولوع باسمك، ولم يَرْوه من ظمئه ورود غدران ذكرك، ولم يُنْسه جميع العلوم رضاه عنك، ولم يقطعه عَن الأنس بغيرِك مكانه منك، كانت حياتهَ ميتة، وميتته حسرة، وسروره غصّة، وأنسه وحشة.

إلهي!! لا تترك بيني وبين أقصى مرادك حجاباً إلا هتكته، ولا حاجزاً إلا رفعته، ولا وعراً إلا سهّلته، ولا باباً إلا فتحته، حتى يقيم قلبي بين ضياء معرفتك، وتذيقني طعم محبتك. فيا من أسأله إيناساً به، وإيحاشاً من خلقه، ويا من إليه التجائي في شدتي ورخائي، إرحم غربتي، وهَبْ لي من المعرفة ما أزداد به يقيناً، ولا تُكلِني لنفسي الأمارة بالسوء طرفة عين»[1].

ومن أدعية ذي النون :

«اللهم إن الحَوْلَ حَوْلُك، والطَّوْل طَوْلك، ولك في خلقك مددٌ وحَوْل وقوة، وأنت الفعّال لما تشاء، لا العجز والجهل يطارحانك، ولا النقص والزيادة يحيلانك، لا يحدّ قدرتك أحد، ولا يشغلك شأن عن شأن.

اللهم اجعل العيون منا نوّارات بالعبرات، والصدور منا محشوة بالعبر والحرقات، واجعل قلوبنا غوّاصة في موج قرع أبواب السموات، تائهة من خوفك في البوادي والفلوات. إفتح لأبصارنا باباً إلى معرفتك، ولمعرفتك أفهاماً إلى النظر في نور حكمتك، يا حبيب قلوب الوالهين، ومنتهى رغبة الراغبين. اللهم تقبّل منا ما مننت به علينا من الإسلام والإيمان. ولا تمنعنا عفوك عن السؤال، فإنا إليك راجعون، ومن الإصرار على معصيتك تائبون»[٢].

---

(١) الشيخ جميل أبو ترابي : «مخطوط البستان». مرجع سابق ص ٩٢و٩٣ .

(٢) المرجع نفسه. ص ١٢٩-١٣٠ .

الحسن البصري *
"أول شخصية بارزة في الزهد"

«يعدّ الحسن البصري من أنبل وأعظم الشخصيات الدينية في تاريخ الإسلام. كان جامعاً عالماً عالياً، رفيعاً فقيهاً، مأموناً عابداً ناسكاً، مقيماً جميلاً وسيماً. وكان رفيع المنزلة في عصره، وواعظاً من الطراز الأول.

ولد الحسن البصري في المدينة المنورة سنة ٢٢ للهجرة/ ٦٤٣م، ونشأ في وادي القرى ثم غادر فيما بعد إلى البصرة. تولى القضاء، فكان لا يأخذ على قضائه أجراً، ثم استغنى. كان بعيداً عن السياسة، خصوصاً وقد عاش في عصر «الحجاج بن يوسف» بما عُرف عنه من بطش شديد. وقد قيل له يوماً لما ازداد ظلم الحجاج: ألا تدخل على الأمراء فتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر؟ قال الحسن: ليس للمؤمن أن يذلّ نفسه، إن سيوفهم لتسبق ألسنتهم، إذا تكلمنا قالوا بسيوفهم هكذا، (ووصف لنا بيده ضرباً). إنه يعلم أن لا حيلة لصاحب الرأي أمام سيف الطغاة، إنهم لا يقابلون الحّجة بالحجة، بل بالسيف والقهر والبطش والعذاب»[1].

أما مواعظه، فقد كانت تعدّ نموذجاً عالياً في الفصاحة، منها:

«يا ابن آدم، بِعْ دنياك بآخرتك ترْبحهما جميعاً، ولا تبعْ آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا. الثّواء هنا قليل والبقاء هناك طويل. إحذر هذه الدار الصارعة الخادعة التي قد تزينت بخدعها وغرّت بغرورها، وقتلت أهلها بأملها، وتشوّقت لخطّابها، فأصبحت كالعروس المجلوّة، العيون إليها نافذة، والنفوس لها عاشقة، والقلوب إليها والهة، ولألبابها دافعة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة. فلا الباقي بالماضي مُعتبر، ولا الآخر بما رأى من الأول مزدجر، ولا اللبيب بكثرة التجارب منتفع، ولا العارف بالله والمصدّق له حين أخبر عنها مدّكر. أبت القلوب لها إلا

*الشيخ جميل ابو ترابي: «مخطوط البستان» مرجع سابق. (بتصرّف)

حبّاً، وأبت النفوس بها إلا ضنّاً، وما هذا منها لها إلا عشقاً، ومن عشق شيئاً لم يعقل غيره، ومات في طلبه ولم يظفر به . . . سرورها مشربٌ بالحزن، وآخر الحياة فيها الضعف والوَهن. فاحذرها، فإن أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، عيشها نكد وصفوها كدر، وأنت منها على خطر. إما نعمة زائلة، وإما بليّة نازلة، وإما مصيبة موجعة، وإما منيّة قاضية. فما لها عند الله قدر، ولا تزن عنده مقدار حصاة من الحصى، ولا خلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا، ولا نظر إليها منذ خلقها مقتاً لها»[٢].

ومن أقواله :

«إن لأهل التقوى علامات يعرفون بها : صدق الحديث، والوفاء بالعهد، وصلَة الرحم، ورحمة الضعفاء، وقلة الفخر والخيلاء، وبذل المعروف، وقلة المباهَاة للناس، وحسن الخلق، وسعَة الخُلْق، مما يقرب إلى الله عزّ وجلّ».

ويعرّف المؤمن فيقول : «المؤمن من يعلم أن ما قال الله عزّ وجلّ هو كما قال. المؤمن أحسن الناس عملاً، وأشد الناس خوفاً، لا يزداد صلاحاً وبرّاً وعبادة إلا ازداد فَرَقاً. يقول : لا أنجو، والمنافق يقول : سواد الناس كثير وسيغفر لي، ولا بأس علي، فينسى العمل، ويتمنى على الله تعالى. والإيمان هو الصبر والسماحة، الصبر عن معصية الله تعالى، والسماحة بأداء فرائض الله عزّ وجلّ».

«ويقسم الناس إلى ثلاثة : مؤمن وكافر ومنافق. فأما المؤمن فقد ألجمه الخوف، وموّته ذكر العَرْض. أما الكافر فقد قمعه السيف وشرّده الخوف، وأذعن بالجزية وسمح بالضريبة. أما المنافق ففي الحجرات والطرقات يسرّون غير ما يعلنون، ويضمرون غير ما يظهرون»[٣].

. . . .

كتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، عند توليه الخلافة، يصف له الإمام العادل، فقال :

«إعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصْد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونَصَفَة كل مظلوم.

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مواضع الهلكة، ويحميها من السباع، ويُكنفها من أذى الحرّ والقرّ. والإمام العادل، يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على أولاده يسعى لهم صغاراً ويعلّمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدّخر لهم بعد مماته. والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً ووضعته كرها، وربّته طفلاً تسهر بسهره، وتفرح بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته.

الإمام العادل، يا أمير المؤمنين، وصيّ اليتامى وخازن المساكين، يربي صغيرهم ويموّن كبيرهم، والإمام العادل كالقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده»[٤].

المراجع :

(١) المرجع نفسه ص ١٦٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٤ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٦٥-١٦٦ .

(٤) المرجع نفسه ص ١٦٩ .

الزاهد العابد، إبراهيم بن أدهم

سيرته :

«هو ابراهيم بن أدهم بن يزيد التميمي، شخصية فريدة في تاريخ الزهد والتعبّد كله، عربي صريح النسب، كانت أسرته تسكن الكوفة ثم انتقلت إلى «بلخ» في خراسان. إرتحل إلى العراق ثم الشام، حيث كان يعمل ناطوراً للبساتين، أو حصّاداً، ويطحن القمح بلا كراء أحياناً. ويقال أنه اشترك في غزوات بحريّة ضد البيزنطيين، ومات في إحدى هذه الغزوات، ودفن في «جبلة» قرب اللاذقية. توفي سنة ١٦٢هـ».

«سئل رضوان الله عليه : ما بالنا ندعو الله ولا يستجيب لنا، وإن الله تعالى يقول، أدعوني يُستجاب لكم؟ فقال : كيف يستجاب لكم وأنتم عرفتم الله ولم تؤدوا حقه، وقرأتم القرآن ولم تعملوا به، وادّعيتم عداوة الشيطان وأطعتموه، وادّعيتم دخول الجنة ولم تعملوا لها، والنجاة من النار ورميتم أنفسكم فيها. قلتم الموت حق ولم تستعدوا له. إشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم، دفنتم الأموات ولم تعتبروا، أكلتم نعمة الله ولم تشكروه عليها. أبعد هذا كله تنتظرون أن يستجاب لكم؟»[1].

مختارات من أقواله :

- «إن الله تعالى أعدّ الجنة للخائفين، والمغفرة للأوّابين، والرحمة للتّوابين، وأعدّ رؤيته للمشتاقين».

- «الزهد ثلاثة أصناف : زهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة. فالفرض الزهد في الحرام. والفضل الزهد في الحلال، والسلامة الزهد في الشبهات. ومن الزهد قلة الحرص والطمع، فإنهما يورثان الصدق والورع. وكثرة الحرص والطمع تورث الغمّ والجزع».

- «إياكم والإعجاب بالعمل، أنظروا إلى من دونكم ولا تنظروا إلى من فوقكم».

- «من توكل على الله كفاه، ومن سأله أعطاه، ومن قرضه قضاه، ومن شكره جزاه».

- «على العبد أن يَزِنَ نفسه قبل أن يوزَن، ويُحاسِب نفسه قبل أن يُحاسَب».

-«نحن في لذّة لو عرف الملوك طعمها لقاتلونا عليها بالسيف».

-«من أطلق بصره طال أسفه، ومن أطلق أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتله».

قال ابراهيم بن أدهم في صحبة رجال الله تعالى في لبنان. «صحبت أكثر رجال الله تعالى في جبل لبنان، فكانوا يوصونني: إذا رجعت إلى أبناء الدنيا فَعظْهم بأربعة، قل لهم: من يكثر الأكل لا يجد لذة العبادة، ومن يكثر النوم لم يجد في عمره بركة، ومن يطلب رضى الناس فلا ينتظر رضى الرب سبحانه، ومن يكثر الكلام بفضول أو غيبة لا يخرج من الدنيا على دين الإسلام».

«وله نظرة إلى الجنة شبيهة بنظرة رابعة العدوّية، وقد عبّر عنها بقوله: اللهمّ إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة، إذا أنت آنستني بذكرك، ورزقتني حبّك، وسّهلت عليّ طاعتك، فاعط الجنة لمن تشاء»[٢].

. . . .

«إلتقى ابراهيم بن أدهم بالمتصوف الشهير شفيق البلخي، أثناء الحجّ، فسأله: ما بدْءُ أمرك الذي بلّغك إلى هذا الحدّ؟ فذكر له البلخي أنه رأى، ذات يوم، طائراً مَكسور الجناحين، أتاه طائر صحيح الجناحين وفي منقاره جرادة فأطعمه إياها. وعندئذ تركت التكسّب واشتغلت بالعبادة.

فقال له إبراهيم: ولمَ لا تكون أنت الطائر الصحيح الجناحين، الذي أطعم الطائر المكسور الجناحين، حتى تكون أفضل منه؟ أما سمعت النبي (صلعم)، أنه قال: «اليد العليا خير من اليد السّفلى». ومن علامة المؤمن ان يطلب أعلى الدرجتين

في أموره كلها حتى يبلغ منازل الأبرار.

فأخذ البلخي يد إبراهيم وقبّلها، ثم قال: أنت أستاذنا وشيخنا يا أبا إسحق»[٣].

ومن أدعيته :

كان له هذا الدعاء يدعو ربّه في كل جمعة، إذا أصبحَ عشر مرات، وإذا أمسى مثل ذلك، وهو :

«مرحباً بيوم المزيد والصبح الجديد، والكتاب الشهيد. يومنا هذا يوم عيد أُكتب لنا فيه ما نقول :

بسم الله الحميد المجيد، الرفيع الودود، الفعّال في خلقه ما يريد. أصبحتُ بالله مؤمناً، وبلقائه مصدّقاً، وبحجّته معترفاً، ومن ذنبي مستغفراً، ولربوبيّة الله خاضعاً، ولسواه جاحداً، وإلى الله تعالى فقيراً وعليه متوكلاً وإليه منيباً.

أُشهد الله وأُشهد ملائكته وأنبياءه ورسله، وحملة عرشه، ومن خلق ومن هو خالق، بأن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. وأن الجنة حقّ، والنار حق، ووعدك حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. على ذلك أحيا وعليه أموت، وعليه أُبعث إن شاء الله..

اللهم أنت ربّي، لا ربّ لي إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك اللهم من شرّ كل ذي شر. الله إني ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يَهدي لأحسنها إلا أنت، واصرفْ عني سيّئها فإنه لا يصرف سيّئها إلا أنت.. لبّيك وسعدَيْك، والخير كله بيديك، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم اعصمني من خَتَن الدنيا، ووفّقني لما تحب من العمل وترضى، وأصلحْ لي شأني كله، وثبّتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولا تُضلّنى وإن كنتُ ظالماً. سبحانك، سبحانك، يا عليّ يا عظيم، يا باري يا رحيم، ياَ عزيز يا

جبار. سبحان من سبّحت له السماوات بأكنافها، سبحان من سبّحت له الحيتان بلغاتها، وسبحان من سبّحت له النجوم في السماوات بأبراقها، وسبحت له الأشجار بأصولها ونضارتها، وسبّحت له السماوات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهنّ. سبحانك يا حيّ يا قيّوم يا عليم، سبحانك لا إله إلا أنت وحدك، واحد أحد، فردٌ صمد، لا شريك لك ولا معبود سواك»[٤].

المراجع :

(١)- الشيخ أبو ترابي : «مخطوط البستان». مرجع سابق. ص ١٨٧-١٨٨ .

(٢)- المرجع نفسه، ص ١٨٩ .

(٣)- المرجع نفسه، ص ٢٠٢ .

(٤)- المرجع السابق. ص ١٩٨و١٩٩ .

محيي الدين بن عربي:
ـ العقيدة الإلهية ـ

«محيي الدين بن العربي متصوف مسلم جعل من القرآن منهله الأول، فقد قال: ما عندنا بحمد الله تقليد لأحد إنما هو فهم في القرآن أعطيته، ومدد من رسولي اختصصت به، وفيض من ربي اكرمني بأنواره»[1].

لذلك أراد ان يظل متمسكاً بالشريعة، وهذه مقتطفات من نظرته في العقيدة الإلهية - كما وردت في مقدمة كتابه «الفتوحات الملكية»:

«إن الله تعالى إله واحد لا ثاني له في ألوهيته منزّه عن الصاحبة والولد، لا شريك له. . صانع لا مدبّر معه، موجود بذاته من غير افتقاد إلى موجود يوجده. بل كل موجود سواه مفتقر اليه تعالى في وجوده. فالعالم كله موجود به وهو وحده متصف بالوجود لنفسه. . إذا شاء استوى على عرشه كما قاله وعلى المعنى الذي أراده، كما أن العرش وما سواه به استوى. وله الآخرة والأولى، لا يحدّه زمان ولا يقلّه مكان، أنشأ الزمان وقال: أنا الواحد الحيّ لا يؤوده حفظ المخلوقات. . تعالى ان تحلّه الحوادث أو يحلّها، أو تكون بعده أو يكون قبلها، بل يقال كان ولا شيء معه. . فهو القيّوم الذي لا ينام، والقهّار الذي لا يرام. ليس كمثله شيء، خلق العرش وجعله حدّ الاستواء، وأنشأ الكرسيّ وأوسعه الأرض والسموات والعلى. اخترع اللوح والقلم الأعلى، وأجراه كاتباً يعلمه في خلقه إلى يوم الفصل والقضاء. أبدع العالم كله على غير مثال سبق، وخلق الخلق وأخلق الذي خلق. أنزل الأرواح في الأشباح أمناء وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلفاء، وسخّر لنا باقي السموات وما في الارض جميعاً منه فلا تتحرك ذرّة إلا إليه وعنه. . . فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو على كل شيء قدير. أحاط بكل شيء علماً واحصى كل شيء عدداً، يعلم السر وما أخفى. يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. كيف لا يعلم شيئاً هو خلقه؟ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف

الخبير؟ . . فهو عالم الغيب والشهادة، تعالى الله عما يشركون . . لارادّ لأمره ولا مُعقّب لحكمه . يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ما شاء كان، وما لم يشأ أن يكون لم يكن . . أخرج العالم قبضتين، وأوجد لهم منزلتين، فقال هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي . . ولو كانت ارادته تعالى أن يكون العالم كله سعيداً لكان. أو شقياً لما كان من ذلك في شأن. لكنه سبحانه لم يُرْد، فكان كما أراد، فمنهم الشقيّ والسعيد هنا وفي يوم الميعاد . . فالله خلقكم وما تعملون، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. فلله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين»[٢].

المراجع :

١ - «تاريخ الفلسفة العربية» تأليف حنا الفاخوري والدكتور خليل الجر، ملتزم الطبع والنشر مؤسسة بدران للطباعة والنشر . بيروت - لبنان . ص ٣٠٤

٢- المرجع نفسه . ص ٣١٢- ٣١٥ - بتصرّف .

الوليّة التقية: رابعة العدوية

«هي شهيدة العشق الإلهي، ولدت في البصرة، في بيت فقير كل الفقر. وقد رُوي عنها أنها كانت إذا صلّت العشاء قامت على سطح لها، وشدّت عليها درعها وخمارها ثم قالت: «إلهي!! أنارت النجوم ونامت العيون، وأغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك». فإذا كان وقت السّحر وطلع الفجر قالت: «هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أقَبِلْتَ مني ليلتي فأهنأ، أم رددتها عليّ فأعزّى؟ فوَعزّتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني، وعزّتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لمَا وقع في قلبي من محبتك».

... «وكانت عبادتها مجرّدة خالصة، لا طمعاً في ثواب ولا خوفاً من عقاب. وكانت تناجي ربها فتقول: «إلهي!! إن كنت عبدتك خوف النار فاحرقني بالنار، وإن كنت عبدتك طمعاً في الجنة فاحرمني منها، وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمني مشاهدة وجهك».

«إلهي!! كل ما قدّرته لي من خير في هذه الدنيا أعطه لأعدائك، وكل ما قدرته لي من الجنة إمنحه لأصحابك وأصدقائك، لأني لا أسعى إلا إليك وحدك».

....

«دخل لص إلى بيت رابعة فلم يجد إلا إبريقاً، فلما همّ بالخروج قالت له رابعة: يا هذا، إن كنت من الشطّار فلا تخرج بغير شيء. فقال لها: إني لم أجد شيئاً. فقالت: يا مسكين!! توضّأ بهذا الابريق وادخل في هذا المخدع وصلّ ركعتين، فإنك ما تخرج إلا بشيء. ففعل ما أمرته به، ولما قام يصلي رفعت رابعة عينيها إلى السماء وقالت: سيدي ومولاي، هذا الرجل قد أتى بابي ولم يجد شيئاً عندي، وقد أوقفته ببابك فلا تحرمه من فضلك وثوابك.

لما فرغ من الصلاة بعد أن صلى ركعتين، لذّت له العبادة فما برح يصلي إلى آخر الليل. ولما كان وقت السّحر دخلت إليه رابعة فوجدته ساجداً، وهو يقول في سجوده:

إذا مـــا قـــال لـي ربّي أمـا استحـييت تعـصيني
وتـخـفي الـذنـب من خـلـفي وبالعـصيـان تـأتيني
فـمـا قـولي لـه لمّا يعـاتبني و يقـصيني .

فقالت له رابعة : حبيبي !! كيف كانت ليلتك ؟ فقال بخير، وقفت بين يدي مولاي بذلّي وافتقاري فقبل عذري وجبر كسري، وغفر لي الذنوب، وبلّغني المطلوب. ثم خرج هائماً على وجهه. رفعت رابعة كفها إلى السماء وقالت: سيدي ومولاي !! هذا الرجل وقف ببابك ساعة فقبلته، وأنا مذ عرفتك، بين يديك. أتُراكَ قبلتني ؟ فنوديت في سرها : يا رابعة، من أجلك قبلناه وبسببك قرّبناه».

«ويحكى أن رابعة صامت سبع ليال وسبعة أيام متوالية، دون أن تتناول شيئاً ولا تنام الليل، منقطعة إلى الصلاة. وفي الليلة الثامنة قالت لها نفسها الأمّارة بالسوء وهي تنوح : يا رابعة، إلى متى تعذّبينني هكذا دون هوادة؟ وخلال هذا الحديث النفسيّ سُمع صوت قرع على الباب، ففتحت رابعة ورأت رجلاً أحضر لها طعاماً في كأس، فأخذته ووضعته في البيت. ولما تركته لإشعال المصباح أتى هرّ وأكل ما في الكأس، فلما عادت ورأت ما حدث قالت : سأبحث عما أفطر به، فلما ذهبت للحصول على ماء إنطفأ المصباح. عادت ورفعت الجرة لتشرب، لكنها سقطت من يديها وانكسرت. فزفرت زفرة كاد البيت أن يحترق منها، وصرخت : إلهي !! ماذا أردت بهذه المسكينة ؟ فسمعت صوتاً يقول : يا رابعة إذا شئت أعطيناك الدنيا بأسرها، ولكن يجب من أجل هذا أن ننزع الحب الذي في قلبك لنا، لأن حبنا وحب الدنيا لا يجتمعان معاً. فقالت رابعة : لما سمعت أني أخاطب على هذا النحو نزعتُ من قلبي كل تعلق بأمور الدنيا، وصرفت نظري عن كل الدنيويات. وهأنذا قد أمضيت ثلاثين عاماً لم أصلّ فيها دون أن أقول لعلّ هذه الصلاة تكون آخر صلواتي، ولم أملّ من تكرار هذا القول : ربي وإلهي !! أغرقني في بحر حبك حتى لا يشغلني شيء عنك».

«روى الحسن البصريّ، قال : ذهبت يوماً إلى رابعة فرأيت تاجراً يبكي، فسألته : ما يبكيك : فأجاب : أتيت إلى رابعة بهذا الكيس من الذهب وأخشى ألا تقبله، فاذهب أنت واطلب منها أن تقبله لعلّها تفعل. فدخلت على رابعة ولم أكد أخبرها بما قاله التاجر، حتى نظرت إليّ بمؤخر عينها، وقالت : «إنك أيها الحسن تعرف تماماً أن الله تعالى يعطي الطعام لمن لا يركعون له، فكيف لا يعطيه لمن يغلي قلبه حباً لجلاله ؟ وهو يرزق من يسبّه، أفلا يرزق من يحبه ؟ وأنا مذ عرفت الله صرفت وجهي عن كل مخلوق. والآن كيف أقبل المال من إنسان ونحن لا نعلم أهو حلال أم حرام ؟. ثم قالت : ذات يوم وُضع في المصباح زيت من بيت السلطان ورفُوْت ثوبي الممزق على ضوء هذا المصباح، فظل قلبي طوال الأيام مغموراً بالظلمة، ولم يضيء إلا حينما شققت الثوب الذي رفَوْته. فاعتذر لها التاجر ومضى في سبيله».

من أقوالها :

-«سُئلت، يوماً : كيف بلغت هذه المرتبة العالية في الحياة الروحية ؟ فقالت : بقوْلي دائماً اللهم إني أعوذ بك مَن كل ما يشغلني عنك ومن كل حائل يحولُ بيني وبينك».

- «ومتى يكون العبد راضياً ؟ قالت : «إذا سرّته المصيبة كما سرّته النعمة» .

- وقال لها رجل : «إني أكثرت من الذنوب والمعاصي فلو تبْت هل يتوب الله عليّ ؟ قالت : لا، بل لو تاب عليك لتُبتَ». وقال لها آخر : « إدعي لي، فالتصقت بالحائط وقالت : من أنا، يرحمك الله ؟ أطع ربك وادعه فإنه يجيب المضطر» .

- خطبها محمد بن سليمان الهاشمي، أمير البصرة، وقال لها : «لي غلة عشرة آلاف في كل شهر أجعلها ملكاً لك». فكتبت إليه تقول : «ما يسرّني أنك عبد، وأنك تهبني كل مالك، وأنك شغلتني عن الله طرفة عين».

-«قال أبو سفيان الثوري، بين يدي رابعة : واحزناه !! فقالت له : قلْ واقلّة

حزناه، لو كنت محزوناً ما هنأك عيش».

-وكانت تقول : «لو كانت الدنيا بأسرها لرجل ما كان بها غنياً» قيل لها وكيف ؟ قالت : «لانها تفنى».

-قالوا : مكثت رابعة أربعين سنة لا ترفع رأسها حياء من الله، ويُروى أنها كنت دائمة البكاء ولما سئلت لماذا كل هذا ؟ أجابت: أخشى أن ينادي صوت في اللحظة الأخيرة ويقول : إن رابعة ليست جديرة بالمثول في حضرتنا.

-ويروى أنها مرضت، فلما سئلت ماذا أصابها ؟ أجابت : «في هذه الليلة عند الفجر اشتاق قلبي إلى الجنة فأصابني الله بهذه المحنة حتى يرغمني على الاحترام».
وقال لها سفيان الثوري، أثناء مرضها : « إدعي الله كي يخفف آلامك، فسألته : من بعث إليّ بهذه الآلام ؟ فأجاب : إنه الله تعالى. فقالت : إذا كانت مشيئة الله أن يمتحنني بهذه المحنة فكيف أتوجه إليه متجاهلة إرادته ؟ ».

-وقالت ذات ليلة وهي تناجي ربها : «إلهي !! حينما أصلّي اصرف عن قلبي كل وساوس الشيطان، أو بمنّك وكرمك تقبّل صلواتي التي تخالطها تلك الوساوس». وقيل لها : «انك تحبين الله، فهل تكرهين الشيطان ؟ قالت : إن حبي لله يمنعني عن التفكير بغيره»*.

---

*الشيخ ابو ترابي . «مخطوط البستان». مرجع سابق من الصفحات : ١٧٦-١٨٥

سيرة الست شعوانة *

ـ رضي الله عنها ـ

«كان خمسة عبّاد قد أوَوْا إلى كهف متخلّين عن مباهج الدنيا، منقطعين إلى عبادة الله تعالى، قانعين بالقوت من أعشاب البريّة وثمار أشجارها، مع قليل من الزيت وطحين الشعير. يصنعون السلال والحُصر بأيديهم، يسلمونها إلى ولد صغير يبيعها ويعود إليهم بأثمانها أو مقايضة عنها. واتفق أن سمع بهؤلاء العبّاد المنقطعين عن الدنيا حبّاً بالله رجل قريب من ذلك المكان زهد بالدنيا وصفا قلبه، وقوي ايمانه بالله وبالآخرة المعدّة للمتّقين، فاعتزم سلوك مسلكهم وراح يحدّث ابنته الوحيدة بذلك، فحاولت أن تثنيه عن عزمه لأنها فقدت أمها، وهي قاصرة بعد، ولا معين لها بعد الله إلا والدها.

كانت هذه الإبنة تدعى «شعوانة»، فلم تقنع محاولاتها الأب، رغم أنها فتاة، ولا مكان لها أو للإناث بين أولئك العبّاد الذين إذا التحق والدها بهم تركها دون من يهتم بحالها. ذلّل الوالد العقبة أخيراً باتفاق بينه وبين ابنته على أن تتزيّا بزيّ غلام. إطمأنت الإبنة ومضى الأب يفاوض العبّاد للالتحاق بهم مع غلامه، فكان له ما أراد، إذ وجدوه خالياً من المسؤولية العائلية. فانضمّ إليهم مع (إبنه) القاصر حيث كانوا يصرفونه لخدمات يؤديها لهم. وبدلاً من اسم «شعوانة» المؤنث قدّمها اليهم باسم «شعوان»، يسير هو وأبوه سيرتهم في عبادة الله.

ومن هذا الحين، أخذ العبّاد يرسلون هذا الغلام الجميل الخلق ليبيع لهم مصنوعاتهم ويعود بثمنها إليهم. ومضت الأيام والغلام يلزم الورع والتقوى، ويؤدي للنساك الخدمة، وصار يوسّع سوق المصنوعات في السهل مزاولاً العمل بنفسه بعد أن كان يرافقه أصغر المتعبّدين سنّاً. ولكن المرض أدرك والده، ولما أشرف على الموت سأله كبير العبّاد قائلاً: ما هي وصيتك-يرحمك الله-؟ فاجاب: لا وصية لي إلا ولدي، تحافظون عليه وترعونه متعبداً على بركات الله.

---

*ملحم كرامي: «الست شعوانة، وعبّاد الله في جبل لبنان» ص ٦-١٢ (بتصرّف) دون ذكر تاريخ ولا دار نشر.

مات الوالد، وظل الشاب «شعوان»- الذي هو نفس «شعوانة» على نهجه زاهداً متعبّداً، يبيع ما يصنعه المتعبّدون ويأتيهم بالزاد دون تقصير. إلى أن كان يتجول ذات يوم بائعاً، فمرّ تحت أحد الأبنية، وسمع نداءً من منزل كبير، فدخله ظناً منه إنما استُدعي لشراء شيء مما يحمله. ولما دخل المنزل رأى أمامه صبيّة بارعة الجمال، فأدخلته غرفتها وأقفلت الباب عليه وصارت تلاطفه وراودته عن نفسها. حاول الفرار دون أن يستطيع فصار يصيح ويطرق البابا بيديه. وخوفاً من الفضيحة تركته الفتاة بعد ان فتحت الباب ففرّ مسرعاً.

وتروي السِّير أن هذه الفتاة كانت على اتصال أثيم بآخر، ظهرت آثاره عليها بعد حين، حتى لم تتمالك أمها أن سألتها عن حالها، فإذا بها تلصق التهمة بالفتى «شعوان»- خادم العبّاد الصالحين-، وأنه دخل المنزل واعتدى عليها فخشيت من غضب والدها وكتمت أمرها. أطلعت الأم والد الفتاة على العار الذي لحق بابنتهما، فكاد يجنّ. واستقدم اليه العبّاد سحباً بأرجلهم- ويظهر أن هذا الوالد كان ذا منزلة رفيعة في بلدته- ومع العبّاد كان «شعوان» حيث تعرضوا جميعهم لشتى أنواع التعذيب والضرب بالسياط. فكانوا يضرعون إلى الله لخلاصهم واستجاروا بوالد الفتاة يطلبون لفتاهم الصفح عنه سيّما وأنه سليل الوالد الورع التقيّ الذي أوصاهم به خيراً بعد مماته.

ولما كان والد الفتاة على شيء من التقوى ندم على عمله وترك المقيدين وشأنهم، شرط أن يطردوا «شعوان» من بينهم، فأبعدوه إلى جهات جبل الشيخ حيث يقاسي العذاب والحرمان، حتى ضعف جسمه وخارت قواه. أما الإبنة التي كانت سبب هذا الشقاء فإنها ولدت طفلاً جيء به إلى العبّاد ليرسلوه إلى شعوان، باعتباره غير بريء مما اتّهم به. فأرسلوه إليه وتقبّل «شعوان» الولد صابراً ولم يكشف سرّ كونه فتاة، مسلّماً أمره إلى الله، واثقاً من براءته التي لا بد أن تظهر. وضع الطفل إلى جانبه وسجد لربّه مناجياً: أنت تعلم، يا إلهي، براءتي وسيشغلني هذا الطفل عن عبادتك، فتقبّل تضرعي لأمضي في هذه الدنيا منشغل البال والقلب بعبادتك وتمجيدك وحمدك. ومن تلك الساعة وجدت إلى جانبه غزالة موصاة من

جبريل عليه السلام للاستمرار على إرضاع الطفل. ولكن «شعوان» ناجى ربه طالباً موت الطفل، فمات بعد أيام. وأوصى الله تعالى إلى جبريل لو أن هذه النفس المتزيّية بزيّ غلام سألتني نقل هذا الجبل من مكانه لفعلت.

مرت الأيام حتى هزل جسم «شعوان» كثيراً، فقرّر العبّاد مراجعة والد الفتاة بأمره طالبين منه السماح والعفو، وأن يأذن له بالرجوع إليهم. قبل الوالد رجاءهم وعاد «شعوان» وكان شديد المرض يقترب من الموت. دخل عليه كبيرهم وقال له: ماذا توصي يا بني؟ فأجابه بصوت يكاد لا يسمع: أرجو منك حين ألفظ أنفاسي أن أدفن بثوبي هذا. فقال العابد: لا بدّ من الغسل والكفن وأنت عابد مسلم ورع. قال «شعوان»: إذا كان لا بد من ذلك، أرجو أن تشقّ ثوبي من عنقي إلى صدري بسكين، ولا وصية لي غير هذه.

مضت أيام و «شعوان» يواصل عبادته طالبا العفو والمغفرة من الله تعالى، إلى أن وافته المنية وفاضت روحه. دخل كبير العبّاد عليه وعمل بوصيته، فشقّ ثوبه من العنق إلى الصدر، وعندئذ أجفل وتراجع مكبّراً وقائلاً: أنثى، أنثى ورب الكعبة، اللهم عفوك ورحمتك يا أرحم الراحمين. وإذ برفاقه الصالحين يسألونه أن يعيد النظر ثانية، فرفض قائلاً: إذا غفر الله لي النظرة الأولى فلن يغفر الثانية. وعندئذ، إستقدموا نساء من القرية، وأبلغوا والدة الفتاة التي اتهمت «شعوان» فقدمت ورأت بأم عينها أن الغلام لم يكن إلا فتاة، وعرفت أنه بريء، فأبلغت زوجها الذي بعث بأكفان إلى البريئة الورعة «شعوانة» إلا أنها وجدت مكفّنة كفناً من الجنة.

وأبى هذا الوالد إلا أن تدفن في مدافن عائلته. فحُملت على دابّة، ولكن ما أن وصلت هذه الدابّة إلى منتصف الطريق حتى بركت رافضة النهوض. فقال كبير المتعبدين الذين كانوا يشيعّونها: أما وأن الله اختار هذا البروك للراحلة هنا، فلتدفن «شعوانة»، في هذا المكان، والأمر لله من قبل وبعد. أُنزل الجثمان ودفن في مدفن كأنه هيّء خصّيصاً لشعوانة يتصاعد منه عبير المسك والبخور. ولما بُدئت الصلاة كان هتاف علوي يسمع تكبيراً متردداً مع الأنسام العطرة.

أما والد الفتاة التي اتّهمتها، فبعد أن بانت الحقيقة جليّة، أمر بقطع رأس ابنته

الكاذبة الأثيمة وعلقه على باب المدينة مكتوبة فوقه عبارة «هذا جزاء من يرتكب الفاحشة» . ورحل بعض سكان المدينة إلى جوار قبر الفتاة شعوانة إلتماساً لبركتها . والمكان الذي دفنت فيه أقيم فوقه مزارٌ للست شعوانة يقصده الناس للتبرّك به . حيث كان القبر يُرى ظاهراً كل الظهور ببركة صاحبته وتيسير من الله تعالى»

«رضي الله عنها وعن أمثالها من الصالحين والصالحات» .

الشيخ ابراهيم الكرماني، الزاهد المتعبّد

رُوي عن الشيخ عبد الله السجستاني -رحمه الله- قال : تذكرت ذات يوم الإخوان المتعبدين وما هم عليه من ورع وزهد وتقوى. فقصدتهم مع إخوان لي لأتفقد أحوالهم. وبعد مسيرة ثلاثة أيام جلست على تلة أبتغي الراحة وذهب إخواني يتجولون في الجبل. وطال انتظاري لهم ولكنهم لم يعودوا. وأخيراً تركت التلّة وانحدرت إلى أسفل الجبل فوجدت عين ماء، توضّيت وصلّيت ثم جلست، فإذا بي أسمع صوت قارئ على مقربة مني. وتبين لي أن الصوت ينبعث من كهف، فقمت إليه ورأيت رجلاً ضريراً جال في الكهف وبجانبه ثلاثة قبور. حيّيته بالسلام فردّ التحية وقال : من أنت يا هذا ؟ إنسٌ أم ماذا ؟ فقلت : إنس. قال: سبحان الله! ما رأيت أنسيّاً هنا منذ ثلاثين سنة غيرك أنت. دعاني إلى الجلوس وكان وقت الصلاة فصلينا الظهر ولم أعرف مواقيت الصلاة إلاّ منه، يعيش زاهداً متنّسكاً يستغفر الله ويطلب عفوه عنه وعن سائر المؤمنين. ولما صار وقت العشاء سألني إذا كنت آكل شيئاً، ودلّني على كهف بالداخل فمضيت إليه. وجدت صخرة عليها زبيب وجوز وتفاح مجفّف، فأكلت ما فيه الكفاية. فقال : لعلّك تعبت فاسترح. تمدّدت ونمت، فلما كان السَّحر صلينا معا حتى طلوع الشمس ثم دخل الكهف وأكل، فقلت له : من أين هذه الفاكهة ؟ وما هي إلا لحظة حتى دخل طائر كبير أبيض الجناحين، أخضر ريش الرقبة، وفي منقاره زبيب، وفي رجليه جوز، فوضع الجوز فوق الجوز والزبيب فوق الزبيب. قال الشيخ : أرأيت هذا ؟ قلت : نعم. قال: إن هذا الطائر يأتيني بالفاكهة منذ ثلاثين سنة. فقلت : وكم مرة بالنهار ؟ قال: سبع مرات. وإذ بي أرى الطائر يدخل عليه خمس عشرة مرة في ذلك النهار. سألته عن السبب، فقال : إن هذه الزيادة هي من أجلك. فقلت : من أين لك هذا الكساء ؟ قال : أتاني به الطير، وعندي مسلّة أخيط بها قمصاناً. ثم التفتّ فرأيت حجراً يسكب عليه الناسك ماءً، فقال لي : هذا لمسح الشعر والحلاقة.

أقمت عند هذا الناسك خمسة وعشرين يوماً سألني في نهايتها عن طريقة

وصولي إلى مكانه، فقصصت عليه قصتي، فقال: لو عرفتُ ذلك لما تركتك تقيم عندي هذه المدة لأنك أشغلت قلب رفاقك في غيابك الطويل عنهم، لذلك صارت عودتك إليهم أفضل من بقائك. فقلت: لا أعرف الطريق. وكان الزوال، فقام وقال: قم بنا نمشي. فقلت أما من وصية منك أنتفع بها؟ قال: عليك بالأدب وحسن الخلق والإخلاص في العمل والتمسك بالتقوى فإنها جامعة كل خير. وإذا حجّيت إلى بيت الله الحرام أطلب بئر زمزم ساعة العصر، ثم وصف لي أشكال شيخ هناك. وقال: إذا التقيت به قل له أخوك ابراهيم الكرماني يقرؤك السلام.

ولما خرجنا من الكهف، وهو بصحبتي، إذا بأسد قائم على الباب، فكلمه الشيخ بكلام فاذا بالأسد يقف ملتفتا يميناً ويساراً حتى تبيّن الطريق. فقال مضيفي: إتبع هذا الأسد، فتبعته حتى وصلت سهلاً فسيحاً، فقفل الأسد راجعاً. واصلت طريقي حتى بلغت دمشق، فقصدت الجامع الأموي وصلّيت. ولقيت هناك بعض أصحابي فأخبرتهم بما حدث لي وخرجنا نقصد ذلك الكهف فلم نهتدِ إليه. فقال الصحب: إن ما كشفه الله لك ستره عنا.

وفي تلك السنة حججت وقصدت زمزماً والمقام، ولكن لم أعثر على الرجل الذي وصفه لي الشيخ إلا في السنة الثامنة من حجّتي. رأيته قائماً بإزاء المقام يعظ الناس. سألت واحداً عنه فقال: إنه إبراهيم بن أدهم. تقدمت منه مسلّماً وأبلغته سلام أخيه إبراهيم الكرماني، فقال: وأين رأيته؟فقلت في جبل، منذ سنوات، قال: لقد مات-رحمه الله- ودفنّاه عند إخوانه في الكهف الذي اتخذه مسكناً له. ولما صلّيناه جاء طير يصفّق بجناحيه قليلاً ثم سقط ميتاً عند قدمي ابراهيم. رحمه الله وأجزل ثوابه [1].

---

(١)- ملحم كرامي: مرجع سابق. «الست شعوانة وعبّاد الله في جبل لبنان». ص ١٣-١٥.

الوليّ الصالح والصحابيّ الجليل
سلمان الفارسي - رضي الله عنه-

«على الشاطئ الشرقي من نهر دجلة، ينبثق دفعة واحدة، على ارتفاع ثلاثين متراً، القبو الوحيد الباقي من قصر «طيشفونة»، وهي العاصمة التي كانت وريثة بابل، ثم لا يلبث المرء أن يرى ويكتشف ناحية الشمال الشرقي قبرا صغيرا، هو قبر سلمان الطاهر»(١).

«كان سلمان أول فارسي إعتنق الإسلام، ويروى عنه أنه عاد إلى المدائن في العراق ليموت فيها، حيث منبره المتواضع يذّكر الزوار الشيعة القادمين للدعاء والتبرّك، بمصيره المزدوج: كونه أول مؤمن (فارسي)، وأول مبشّر بالنزعة الروحية في الإسلام. حتى أن إخلاصه في صحبة الرسول الكريم قد جعله خليقاً بأن يناديه زائر قبره قائلاً: أسأل الله الذي خصّك بصدق الدين... أن يحييني حياتك ويميتني مماتك... إنك لم تنكث عهداً»(٢).

«ولقد جرى أهل السنّة والشيعة معاً على عدّ سلمان الفارسي من بين كبار الصحابة، ذا مكانة خاصّة، فهو أحد الثلاثة السابقين إلى الإسلام، من غير العرب، وهم: سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي.

ولد سلمان-رضي الله عنه- في بلاد فارس، من أسرة نبيلة من دهاقين الفرس، في مدينة «أرزن» من أصفهان، وكان اسمه «روزبة بن مارزيان». كان من أتباع المزدكيّة، وجذبته إلى المسيحية نزعة إلى الزهد حادّة، فتنقّل- وهو لا يزال في موجة الشباب- من شيخ إلى شيخ، ومن مدينة إلى مدينة، نازلاً عند النساك والشيوخ الزهاد والمتصوفين، مستهدفاً التّقى والورع، حتى قيل عنه: «إنه كان موحداً منذ ميلاده بمعجزة إلهّية»، وبتوحيد خالص من نوع ما يبحث عنه الحنفاء، وأيضاً، للإتصال برسول الله الذي وُصف له، فوجده في النبي محمد (صلعم)، وذلك بالتعرف إليه عن طريق العلامات الشخصية الثلاث التي كان يبحث عنها،

وهي : رفضه الصدقة لنفسه، وعدم أكل ما يتصدق به لغداء جماعته، ووجود خاتم النبوّة على كتفه الأيمن.

وبقي سلمان، بعد موت النبي، الصاحب الصدوق لأهل البيت، أتباع الإمام عليّ بن أبي طالب، والمدافع عن حقوقهم المشروعة والمهضومة إلى أن توفي في العراق بمدينة المدائن» [٣].

«كان يحدث الناس ويقول : بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين، والائتمام بعليّ بن أبي طالب، والموالاة له. إن عند عليّ علم المنايا والوصايا وفصل الخطاب، وقد قال له رسول الله (صلعم) : أنت وصيّي وخليفتي في أهلي بمنزلة هارون من موسى، أما والله لو ولّيتموها علياً لأكلتم من فوقكم ومن تحت أرجلكم. وكان سلمان قد خطب إلى عمر بن الخطاب ابنته فردّه عمر، فقال له سلمان : أردت أن أعلم هل ذهبت الحميّة الجاهلية من قلبك أم هي كما هي» [٤].

«كان سلمان الفارسي قد علم بظهور النبي محمد (صلعم)، حيث غادر بلاد الشام قاصداً الحجاز، وكان أدلاّؤه في الطريق أعراباً خانوه، وباعوه إلى رجل يهودي حيث قام بحراسة أعنابه ونخيله. ولما علم النبي بذلك جمع وأنصاره ما يكفي لإعتاقه، فذهب إلى النبي فقرّبه إليه. ولما تهيأ المهاجرون والأنصار لموقعة الخندق، وكان أعداؤهم يفوقونهم عدة وعدداً، تطلّب الأمر الحكمة والحزم، وكان سلمان يتمتع بهما، فرسم الخطة، وأبى بعضهم الانصياع له. فأطلق النبي الكريم كلمته الشهيرة، والتي كانت حلاً : «سلمان منا أهل البيت»، فرضي الجميع لأن أهل البيت كانت لهم الأفضلية.

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى قد اختار سلماناً ليكون إلى جانب النبيّ، ويقول جعفر الصادق (صاحب المذهب المعروف)، مخاطباً أبي الخطاب : أخاطبك بما خاطب به رسول الله سلماناً، إذ قال : «أصبحت يا سلمان معدن سرّنا ومجمع أمرنا ونهينا، ومؤدب المؤمنين بآدابنا، أنت والله الباب الذي يدخله علمنا، ومنك ينبّأ علم التأويل والتنزيل، وباطن السّر وسّر السّر، فبوركتَ أولاً وآخراً، ظاهراً وباطناً، حياً وميتاً».

«كان سلمان أميراً على ثلاثين ألفاً من المسلمين في المدائن، وكان يخطب الناس في عباءة يفترش بعضها ويجعل الآخر غطاء، وكان لا يأكل إلا من عمل يده، وإذا خرج عطاؤه، وهو خمسة آلاف فرّقه بكامله»[5].

توفي سلمان في خلافة عثمان بن عفان، وقالوا: إنه لما شعر بدنوّ أجله، استحضر مسكاً وقال لجاريته، إنضحيه حول فراشي، وحيّا أهل الصلاح وصلاح أهل القبور، وأمر أن يترك لوحده، وأن تترك الأبواب مفتوحة على مصراعيها، وأسلم روحه لباريه تعالى ـ رحمة الله وسلامه عليه ـ.

المراجع:

(١) عبد الرحمن بدوي: «شخصيات قلقة في الإسلام» نشر وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثالثة ١٩٧٨ ص٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ٧

(٤) محمد جواد مغنية: «الشيعة في الميزان». دار التعارف، بيروت ـ لبنان. (بدون تاريخ) ص ٢٦.

(٥) المرجع السابق، ص ٩٨-٩٩.

كتاب الإمام عليّ بن أبي طالب إلى سلمان الفارسي ـ رضي الله عنهما ـ

«كتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عهداً على أديم أبيض، ومَهَرَه النبيّ (صلعم) وأبو بكر وعثمان بأصابعهم، وهذا نصّ ما جاء فيه :

«هذا كتابي لأهل بيت سلمان، إن لهم ذمّة الله وذمتي على دمائهم وأموالهم في الأرض التي يقيمون فيها، سهلها وجبلها ومراعيها وعيونها، غير مظلومين ولا مضيّقا عليهم، فمن قُرئ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمؤمنات، فعليه أن يكرمهم ويبرّهم، ولا يتعرض لهم بالأذى والمكروه. وقد رفعت عنهم جزّ الناصية والجزية والعُشر إلى سائر المؤن. ولهم أن يُعطوا كل سنة مائة حلّة في رجب، ومائة في الأضحية، فقد استحق سلمان ذلك منا، ولأن فضل سلمان على كثير من المؤمنين. وأُنزل في الوحي أن الجنة إلى سلمان أشْوق من سلمان إلى الجنة. وهو ثقتي وأميني، ونقيّ تقيّ صالح، ناصح لرسول الله والمؤمنين، وسلمان من أهل البيت، فلا يخالفنّ أحد هذه الوصية، فيما أمرت به من الحفظ والبرّ لأهل بيته وذراريهم، ومن أسلم منهم، ومن أقام على دينه. ومن خالف هذه الوصية فقد خالف الله ورسوله، وعليه اللعنة إلى يوم الدين، ومن أكرمهم فقد أكرمني، وله عند الله الثواب، ومن آذاهم فقد آذاني، وأنا خصمه يوم القيامة، وبرئت منه ذمتي، وجزاؤهم نار جهنم، والسلام عليكم» [1].

«وقد أشار إلى سلمان قول النَّسفي في تفسير قوله تعالى في سورة المائدة : «يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فقد يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم». وقد سئل رسول الله (صلعم) عنهم فضرب على عاتق سلمان وقال : «هذا وذووه، ولو كان الإيمان معلقاً بالثريا لنا له ورجاله». وقال البيضاوي : إن قوله عز وجل مخاطباً المقصّرين من مسلمي العرب «وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا

أمثالكم» إنما كان ذلك في سلمان الفارسي. وقيل في تفسير قوله تعالى في سورة المائدة: «السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار» أن المقصود بهؤلاء: أبوذرّ والمقداد وسلمان وعمار بن ياسر. وقوله تعالى في سورة الأنفال: «إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون». يراد بها أمير المؤمنون عليّ بن أبي طالب وأبوذرّ الغفاري والمقداد وسلمان. كما روي عن أبي هريرة أن رسول الله (صلعم) قال: كان سلمان صاحب الكتابين، الإنجيل والقرآن»[٢].

المراجع:

(١) الشيخ عبد الله يوسف زين الدين: «كتاب مفتوح، الردّ على الكاتب أنيس منصور». طبع مطبعة زيد بن ثابت، دمشق (بدون تاريخ)، ص ٢١

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣.

الزاهد المتعبّد أبو ذرّ الغفاري

«هو الصحابيّ الجليل الذي قال فيه النبي (صلعم) : ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ، يعيش وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده، ويدخل الجنة وحده».

– كان رابع المسلمين أو خامسهم، وقد نُفي وشرّد ونكّل به، لإيمانه وإخلاصه. قال حين بويع أبوبكر الصدّيق بالخلافة، بعد موت النبي (صلعم) : يا معشر قريش، تركتم قرابة رسول الله، والله ليرتدّ جماعة من العرب، ولتشكّن في هذا الدين، ولو جعلتم الأمر في أهل بيت نبّيكم ما اختلف عليكم سيفان، والله لقد صارت لمن غلب، ولتطمحنّ إليها أعين من ليس من أهلها، وليسفكنّ في طلبها دماء كثيرة»[1]. (يقصد بذلك الخلافة).

«لم يكن أبوذرّ فيلسوفاً ولا صاحب مذهب خاص، بل كان رجلاً ساذجاً عاش في البادية يرعى الماعز والغنم، ثم صحب رسول الله الأعظم وأخذ عنه تعاليم الإسلام، فآمن بها ودعا إليها، فهو لا يعتمد في إيمانه ودعوته على غير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

على هذا الأساس، أساس روح الإسلام ومبادئه، حارب قيام التّرف والنعيم إلى جانب البؤس والشقاء، ونادى بأعلى صوته : لا يحلّ للإنسان أن يتمتع بثروة لا يحصيها العدّ والحساب وجاره جائع يعجز عن القوت، ومريض لا يستطيع التطبيب، وجاهل لا يجد السبيل إلى التعليم. فإذا دفع الأغنياء من أموالهم ما يسدّ هذا الفراغ، بحيث تتيسّر السّبل إلى الرغيف والدواء والدرس لطلابها، فلهم أن يكسبوا الأموال ويجمعوها من حلّ (الحلال)، ويتصرفوا بها كما يريدون، ما دامت تصرفاتهم لا تضرّ بصالح الأفرادَ ولا الجماعات»[2].

تجاه هذه الصرخة المدوّية، والمبادئ الشريفة التي كان ينادي ويؤمن بها، فإن أبا ذرّ يعتبر أول من نادى بالإشتراكية وحثّ على تطبيقها، لتعمّ الرفاهية جميع أفراد

البشر، وأبناء الإنسانية.

«كان أبوذرّ ينادي في الناس ويقول: «عليكم بكتاب الله والشيخ علي بن أبي طالب، وكان يدخل الكعبة ويتعلق بحلقة بابها، ويقول: «أنا جندب بن جنادة لمن عرفني، وأنا أبوذرّ لمن لا يعرفني، إني سمعت رسول الله يقول: إنما مثل أهل بيتي في هذه الأمة مثل سفينة نوح في لجّة البحر، من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق، ألا هل بلّغت»...

«وكان يقف في موسم الحج ويقول: يا معشر الناس!! أنا صاحب رسول الله، وسمعته يقول في هذا المكان، وإلاّ صُمّت أذناي: علي بن أبي طالب الصديق الأكبر، فيا أيتها الأمة المتحيّرة بعد نبيها، لو قدّمتم من قدّمه الله ورسوله، وأخّرتم من أخّره الله ورسوله، لما عالَ وليّ الله، ولما طاش سهم في سبيل الله، ولا اختلفت الأمة بعد نبيها» [٣].

«أما صراحته فقد جرّت عليه الويلات، وسبّبت له الضرب والبؤس والتشريد: لما رأى أبوذرّ الأموال في عهد الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) يبذّرها الأقربون، والناس يقتلهم البؤس والجوع، ثارت ثائرته وجنّ جنونه، وصاح بوجه السلطان وفي كل مكان: «جمعتم الأموال من الناس فيجب أن تنفقوها على الناس». فطُرد ونُفي ومات في الصحراء وحيداً، بعد أن مضت عليه ثلاثة أيام لم يَطْعم فيها شيئاً. وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ سنة ٣٢ للهجرة [٤].

. . . .

يروى عن أبي ذرّ ـ رحمه الله ـ أنه قال لرسول الله (صلعم): أوْصني.

قال: «عليك بتقوى الله فإنه رأس أمرك، وعليك بذكر الله، فإنه رأس كل خير، وقراءة القرآن فإنه نور لك في السماء وذكر لك في الأرض. قلت: زدني يا رسول الله. قال: أنظر إلى من دونك ولا تنظر إلى من هو فوقك. أقلّ الكلام إلا من ذكر الله، فإنك بذلك تغلب الشيطان، أحبّ المساكين وجالسَهم. قلت: زدني. قال: كن في الدنيا كأنك غريب، وعدّ نفسك في الموتى. قل الحق ولو كان

مراً ولا يأخذك في الله لومة لائم. قلت: زدني. قال: إرض من الدنيا بكسرة تقيم بها جسدك، وخرقة تواري بها عورتك، وظلّ تسكن فيه. إياك وحب الدنيا فإنه رأس الخطايا، إن الدنيا تهلك صاحبها وصاحب الدنيا لا يهلكها. قلت: زدني. قال: أكظم غيظلك، وأحسن إلى من أساء إليك. إنصح الناس كما تنصح نفسك، ولا تُعبْ عليهم بما فيك مثله. يا أبا ذر، إنه لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكفّ، ولا حَسَب كحسن الخلق. وقال رسول الله (صلعم) من اشتاق الى الجنة سارع إلى الخيرات، ومن أشفق من النار سلا عن الشهوات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات. ويقال إن الزهد مفتاح كل خير، والرغبة فيها مفتاح كل شر وخطيئة. وقيل في الحكمة: الدنيا قنطرة فاعبروها إلى الآخرة ولا تعمروها، إنكم خلقتم للآخرة لا للدنيا، وإنما الدنيا دار العمل، والآخرة دار الجزاء، وهي دار القرار ودار المقام ودار النعيم ودار الخلود [5].

المراجع:

(١) محمد جواد مغنية: «الشيعة في الميزان». مرجع سابق. ص ٩٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٧٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٦

(٤) المرجع نفسه ص ٣٨١-٣٨٢.

(٥) عن رسائل إخوان الصفاء. «مرجع سبق ذكره» ص ٣٥٠-٣٥١.

الصحابيّ الجليل، المقداد بن الأسود

كان المقداد من كبار الصحابة، وشيوخها الثّقاة، وسيفاً من سيوف الإسلام، داعياً من دعاته ومدافعاً بسيفه عن دينه وأمته، مجاهداً في سبيل الله والدعوة إلى دين الإسلام.

«كان المقداد بن الأسود من السابقين إلى الإسلام، حضر بدراً مع رسول الله (صلعم) وسائر المشاهد. وحين شاور النبيّ أصحابه في وقعة بدر، قال له المقداد: «لا نقول لك ما قاله بنو إسرائيل لموسى، فاذهب أنت وربك فقاتلا، إنّا هنا قاعدون. بل نقول لك: لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضى وشوك الهراس لخضناه معك».

«قال فيه الإمام الصادق: لم يتغير المقداد، منذ قبض الله رسوله، حتى فارق الدنيا، طرفة عين. قال للامام علي يوم السقيفة: إن أمرتني لأضربنّ بسيفي، وإن أمرتني لكففت. فقال له علي: أكفف»[1].

«وحين بويع عثمان بن عفان بالخلافة، دار نقاش بين المقداد وبين عبد الرحمن بن عوف. قال المقداد: ما رأيت مثل ما أُتي إلى أهل هذا البيت.

فقال عبد الرحمن: ما أنت وذاك؟

قال المقداد: إني والله أحب هذا البيت، لحبّ رسول الله له، وإني لأعجب لقريش وتطاولهم على الناس بفضل رسول الله، ثم انتزاعهم سلطانه من أهله.

قال عبد الرحمن: أما والله لقد أجهدت نفسي لكم.

قال المقداد: أما والله، لو كان لي أعوان على قريش لقاتلتهم قتالي إياهم يوم بدر وأُحد. لقد تركَتْ رجلاً من الذين يأمرون بالحق وبه يعدلون. (يقصد بذلك الإمام علي بن أبي طالب).

قال عبد الرحمن: أخاف أن تكون صاحب فتنة وفرقة.

فقال المقداد: إن من دعا إلى الحق وأهله وولاة الأمر، لا يكون صاحب فتنة، ولكن من أقحم الناس في الباطل، وآثر الهوى على الحق، فذاك صاحب الفتنة والفرقة.

فتربّد وجه عبد الرحمن وانصرف» [٢].

ويذكر المؤرخون كيف اجتمع الناس وكثروا على باب المنزل الذي فيه الاجتماع (اجتماع السنة) لاختيار الخليفة الثالث بعد عمر بن الخطاب، وكان هوى قريش عثمان بن عفان. فأقبل المقداد بن الأسود، والناس مجتمعون، وهم لا يشكّون في أن البيعة ستكون لعلي بن أبي طالب، فقال: أيها الناس! إسمعوا ما أقوله، أنا المقداد، إنكم ان بايعتم علياً سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عثمان سمعنا وعصينا.

فقال عبد الله بن ربيعة المخزومي - وهو من قريش، وممن قاتل النبي محمداً (صلعم) وآذاه - : أيها الناس!! إنكم إن بايعتم عليا سمعنا وعصينا، وإن بايعتم عثمان سمعنا وأطعنا. فقال المقداد: يا عدوّ الله وعدو رسوله، وعدو كتابه، ومتى كان مثلك يسمع له الصالحون؟ [٣].

وكان ما كان من أمر البيعة لعثمان بن عفان، واختلاف المسلمين فيما بينهم، وانقسامهم فيما بعد إلى فرق ومذاهب.

«مات المقداد - رحمة الله عليه - في خلافة عثمان بن عفان، الذي حضر جنازته وأثنى عليه. فأنشد الزبير:

«لا ألفيتك بعد الموت تندبني   وفي حياتي زوّدتني زادا».

فقال عثمان: يا زبير!! تقول هذا؟ أتراني أحب أن يموت مثل هذا الصحابيّ الجليل من أصحاب رسول الله وهو ساخط عليّ» [٤].

المراجع :

١ـ مغنية : مرجع سابق ، ص ١٠٠

٢ـ المرجع نفسه ، ص ٢٧ .

٣ـ مجلة «الطريق» ، العدد ٤ ، تموز ـ آب ١٩٦٦ ، مقال للدكتور محمد العبد حمود ، بعنوان : «عبد الله العلايلي ، المفكر الاسلامي» ، ص ١٣٢ .

٤ـ مغنية : مرجع سابق ، ص ١٠١ .

الشهيد التقيّ الورع :عمار بن ياسر

«هو من السابقين الأولين، هاجر الهجرتين، إلى الحبشة والمدينة، وصلّى القبلتين، وشهد بدراً وأحُداً وبيعة الرضوان، وجميع المشاهد مع رسول الله (ص).

أسلم عمار وأخوه عبد الله، وأبوه ياسر، وأمه سُميّة، حين كان المسلمون مستضعفين في مكة. فكانت قريش تأخذ ياسراً وزوجته وولديهما عماراً وعبد الله، فتلبسهم الدروع الحديدية وتلقيهم في الشمس، حتى يبلغ الجهد منهم كل مبلغ. وكان ياسر ـ رحمه الله ـ يقول: «والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هَجَر، لعلمنا أننا على حق، وأنهم على باطل» [1]. وربطت قريش أمه سميّة بين بعيرين، وطعنها أبو جهل في قلبها فقتلها، وهي تأبى إلا الإسلام. وقتلوا زوجها ياسراً، فكانا أول شهيدين في الإسلام.

وجاءت في مدح عمّار أحاديث كثيرة، منها قول النبي (ص): «عمار جلدة بين عينيّ». ومنها: «وَيْحُ عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار». ومنها: كم ذي طمْرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّ بقسمه، منهم عمار». إلى غير ذلك [2].

وقال فيه الإمام علي، يوم استشهاده: «كل حرير الدنيا وديباجها، ما يصلح أن يكون كفناً لشهيد جليل، وقدّيس عظيم من طراز عمار» [3].

«قال يوم البيعة لأبي بكر: يا معشر قريش، ويا معشر المسلمين: إن أهل البيت، بيت نبيّكم، أولى به، وأحقّ بأثره، وأقوم بأمور الدين وأحفظ لملّته، وأنصح لأمته. فردّوا الحق إلى أهله قبل أن يضطرب حبلكم، ويضعف أمركم، ويظهر شتاتكم، وتعظم الفتنة بكم، ويطمع فيكم عدوكم. فقد علمتم أن بني هاشم أولى بهذا الأمر منكم، عليّ أقرب إلى نبيّكم، وهو وليّكم بعهد الله ورسوله. يا معشر قريش: إلى متى تصرفون هذا عن أهل بيت نبيكم، ما أنا آمن أن

ينزعه الله منكم ويضعه في غيركم، كما نزعتموه من أهله، ووضعتموه في غير أهله»[4].

ويروى عنه أنه قال رداً على قول عبد الله بن سرح، أثناء مبايعة عثمان بن عفان، «أيها القوم ان اردتم ان لا تختلف قريش، فبايعوا عثمان». فقال عمّار: «إن أردتم أن لا يختلف المسلمون فيما بينهم، فبايعوا عليا». ولكن عبد الرحمن بن عوف بايع عثمان، فقام عمار بن ياسر محتجاً، وتكلمت قريش بأجمعها، وصاحوا بعمّار وانتهروه، فأقبل عمار ينادي:

«يا ناعيَ الإسلام قمْ فانْعه قد مات عرفٌ، وبدا منكرا»[5].

«حضر عمار مع الامام علي حرب الجمل وصفّين، وفيها استشهد، وكانت سنة ٣٧ للهجرة. ومن أقواله يوم صفين:

«سيروا إلى الأحزاب اعداء النبيّ سيروا فخير الناس أتباع عليّ
هذا أوان طاب سلّ السمهريّ وقوْدُنا الخيل وهز السمهريّ»[6].

المراجع:

١ـ مغنية «الشيعة في الميزان» مرجع سابق. ص ٢٨.

٢ـ المرجع نفسه ص ١٠٠

٣ـ ابو شقرا: مرجع سابق ص ١٤٣.

٤ و ٥ـ مغنيّة. المرجع السابق ص ١٠٠.

٦ـ مجلة «الطريق» مرجع سابق ص ١٣٢. نقلا عن دائرة المعارف الاسلامية الشيعية. المجلد الأول ص ١٢٥ (مقال لأحمد عباس صالح).

الفيلسوف الزاهد. رهين المحبسين :
أبو العلاء المعرّي

سيرته :

«هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، المعروف بأبي العلاء المعري. ولد في معرّة النعمان سنة ٩٧٣م، وهو ينتسب إلى بيت علم وأدب، نبغ فيه عدد من العلماء والشعراء، فكان جدّه سليمان قاضي المعرّة، وأبوه عبد الله أديباً وشاعراً، وأمه من أسرة وجيهة، اشتهر منها عدد من رجال الأدب. ولما بلغ أبو العلاء الثالثة من عمره أصيب بمرض الجدري الذي أفقده بصره، فنشأ لا يعرف من الألوان إلا الأحمر. غير أن ذهاب بصره لم يفقده نور بصيرته، فدرس العلم على أبيه أولاً، ثم تابع دراسته على جماعة من العلماء في المعرة، وانتقل بعد ذلك إلى بعض مدن الشام فدرس على علمائها، واستفاد من خزائن كتبها، وما أن بلغ العشرين من سنّه، حتى استقّل بنفسه في طلب العلم، فلم يدرس على أحد من العلماء والشعراء»[1].

«كان أبو العلاء مرهف الحسّ، حاد الذكاء، واسع الذاكرة، قوي الإرادة. لم يُثْنه عن طلب العلم خوف ولا مرض، ولم يستهو فؤاده ثراء ولا جاه، بل اختار لنفسه منهجاً عنيفاً قام على حب الزهد والنسك وبغض المال والجاه. كان لباسه قطناً، وفراشه لبداً وحصيرة، أكله العدس وحلاوته التين وخبزه من الشعير، يَتجنب أصناف اللحم، وإن كان أكله غير محرّم في الدين، إنما اجتهاداً في التعبّد». وفي هذا يقول مارون عبود: «أنا واثق أن شيخنا ـ قدّس الله سرّه ـ ما عيّد قط على لحم ولا على بيض. . اللهم بعدما نسك»[2]. ولولا إيمانه بالله لما اطمأنت نفسه ولا خامر فؤاده أمل، ولا بقي مثابراً في عزلته، بالرغم مما في طريقه الوعرة الموحشة من مشقات ومكاره. . . وكان كريم الأخلاق، طيب الأعراف، شديد الحياء، حريصاً على سمعته، صالحاً مخلصاً، مواظباً على العبادة، مسلّماً أمره إلى ربه،

ينشر العلم ويخدم الفكر الحرّ»[٣] .

«المعري مفكر حطّم سلاسل الوراثة وأغلالها ، فلم يشلّ عقله إذا واجه المعضلات الأبدية التي لم تحلّ . ناقش كل معضلة وكأنه لم يحلّ واحدة منها ، أما عارفو «سرّه» فيدركون بوضوح ما يعنيه بقوله :

«بني زمني هل تعلمون سرائراً　　علمتُ ولكني بها غيرُ بَائحِ ؟» .

لقد فاز بالتوحيد الذي يفهمه هو و «الجماعة» القائلون : الإسلام باب الإيمان ، والإيمان باب التوحيد»[٤] .

موقفه من الدين :

«كان المعرّي شديد الإيمان بالله ، ولم يكن إيمانه وجدانيا فحسب ، بل كان إيماناً عقلياً أيضاً ، فهو يُنبئنا أن قدرة الله تَسَعُ كل شيء ممكن في نظر العقل ، وأن هذا العالم ليس إلا صورة ممكنة ، والذي أوجد الصورة قادر أن يوجد غيرها من الصور . ويطلق على الله صفات ، فهو عنده قديم واحد قادر ، عادل وحق ، حكيم وعالم ، لا يجرى شيء في العالم إلا بإذنه ، وله جميع الكمالات ، وهو على خلق كل شيء قدير . وجميع هذه الصفات لا تطلق على الله والإنسان بمعنى واحد ، فقد قال في كتاب «الفصول والغايات» .

وإذا أردنا التعبير عن الأمور الإلهية سلكنا طريق المجاز :

- «نقول على المجاز وقد علمنا　　بأن الأمر ليس كما نقوله . . .
تشابهت الأشياء طبعاً وصورة　　وربك لم يُسمع له شبيه . . .
- تعالى الله وهو أجلّ قدرة　　من الإخبار عنه بالتعالي . . .»

وهو يعجب لبعض الأطباء الذين يدرسون التشريح كيف ينكرون وجود الله ، بقوله :

«عجبي للطبيب يلحد بالخالق بعد درسه التشريحا»[٥] .

«والدين في نظره لا يقوم على المكر والرياء، وممارسة الصوم والحجّ والصلاة، بل على العقل والوجدان، فهو في هذا المعنى يقول :

- ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاةٌ، ولا صوف على الجسد.
وإنما هو ترك الشرّ مطرحاً ونفْض الصدر من غلّ ومن حسد . . .
- إذا رام كيداً في الصلاة مقيمُها فتاركُها عمداً إلى الله أقرب . . .
- في كل جيل أباطيل يُدانُ بها فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل ؟» [٦].

«إن من يقرأ المعري ويفكر بما يدعو إليه يظنه دهرياً وعدمياً، شأنه في ذلك شأن الفلاسفة، ولكن رجلاً واعياً حكيماً كأبي العلاء، لا يصح أن يكون بلا مذهب، ناهيك أن هذا مستحيل. إنه أجلّ وأسمى من أن يكون ملحداً معطلاً ـ كما ينسب البعض إليه ـ، إنه لم يصرّح بدينه لا سراً ولا جهراً، لا تلميحاً ولا تلويحاً، وإن لم يكن المعرّي يريد إنشاء مذهب جديد، فهو على الأقل ذو مذهب» [٧].

«وما هو الدّين عند أبي العلاء ؟ أليس كالذي عند سقراط : تكريم الضمير النقيّ للعدالة الإلهية، لا تقديم القرابين وتلاوة الصلوات من أيد وأفواه ملطخة بالإثم، وأن النّفس متمايزة في البدن فلا تفسد بفساده، بل تتخلص مَن سجنها بالموت وتعود إلى صفاء طبيعتها».

- «والجسم كالثوب على روحه يُنزع إن يُخلقْ أو يتسخ» . . .
«وإن صدئت أرواحنا في جسومنا فيوشك يوماً أن يعاودها الصّقلُ . . » [٨].

«المعري يقدس العقل ويجعله مشيراً وإماماً ونبياً وهو يسلّم أمره إلى ربه، وفي هذا التسليم بقضاء الله وقدره عزاء يكسب الإنسان شجاعة، والرضا بما قدّر الله يحرر النفس من الألم، لأن الخير عند الله لا يضيع». وفي هذا المعنى يقول أبو العلاء.

- «ويجري قضاء الله مالكم حاجز عنه، فالقوا إلى مولاكم بالمقالد . .
-«فسلّم إلى الله المقادير راضياً ولا تسألنّ الأمرَ غير خبير . . » [٩]

«فوجود الله المهيمن على الدهر، والنور المحيط بظلمات الوجود، والعقل الهادي إلى الرشاد، كل ذلك يولّد في قلوبنا رجاء واطمئناناً. إن الله الذي خلق كل شيء، قادر على إنقاذنا من مخالب الدهر، وكل من أدرك مأساة الحياة ولم يقنط من رحمة الله صار أقوى من الموت» [١٠].

- «ومن يُبْلَ بالدنيا وسوء فعالها فليس له إلا التعبّد والنسك . . . »
- «الحمد لله أصبحتُ في دَعَةٍ أرضى القليل ولا أهتم بالقوت . . . »
- «توحّد فإن الله ربك واحد ولا ترغبنّ في عشرة الرؤساء . . . »
- «أغنى الأنام تقيّ في ذرى جبلٍ يرضى القليل ويأبى العرش والتاجا . . . [١١]

«لقد سمع المعرّي أخبار المعزّ لدين الله الفاطمي عن تقشفه وحكمته وورعه، وسمع من الكثيرين عن الحاكم بأمر الله وتعفّفه وزهده، وقابل بنفسه بين «الحاكم» وبين الذين يحكمون «العواصم» فازداد تعلقاً بهذه الدولة الفتيّة التي أسستها السلالة العريقة» [١٢].

«ثم تذكر ما يتحدث به الناس عن زهد «الحاكم» وتقشفه وتواضعه، واحتقار الرسوم والألقاب الضخمة، وكيف يرتفع عن مفاسد هذا المجتمع، وعن غرائزه وشهواته النفسية الوضيعة. . فجذبته شخصية «الحاكم بأمر الله» الفذّة، ورأى فيه رجلاً نقياً، فآثره وبايعه في ضميره» [١٣] «فأبو العلاء هو الفاطمي العظيم الذي لم يرتدّ ساعة. . » وليس كتاب «لزوم ما لا يلزم غير كتاب الإخوان» [١٤].

«قصد إليه الداعي الفاطمي «التميمي» وصرّح له بأنه موفد من لدن الحاكم بأمر الله، ومهمته أن يتلقى منه بعض الدروس، ثم يتوجه بالشيخ إلى القاهرة ليلقي الدروس على «الدعاة» في «دار الحكمة»، فابتسم أبو العلاء وقال له: كان ذلك قبل النّذر، خذ عني ما تشاء، واكتب ما تشاء، وخبّر «الإمام» بما رأيت وسمعت. أما ذهابي إلى القاهرة فهيهات، هيهات أن يحمل عني مولانا «الحاكم» وِزْرَ يميني.

نحن قوم، وأنتم من العارفين، ندين بالصدق، ومن يكذب على نفسه يكذب على الإمام والإخوان، والعياذ بالله» (١٥).

. . . «وانقضت شهور، والتميمي يدور حوله ويداوره ويأخذ عنه، ويزيّن له الإقامة في القصر و «دار الحكمة»، والشيخ ثابت لا يتحوّل ولا يتزعزع. وأدرك «التميمي» أن ما يأخذه من علم الشيخ وما ينقله عنه إلى مولاه خير وأبقى»(١٦) . . . «ليته يستوي لي جناحان فأطير بهما إلى القاهرة، ولكن الله لا يريد، ولتكن إرادته يا أخي. وإذا ما بلغت «الحضرة» فسلّم على المولى الإمام وقل له: إن خادمه شيّخ وشابَ وكبر على السفر، وإذا كان العذر من شيم الكرام، فأجدر به أن يكون احدى خصال الإمام، فبصلاح الأئمّة صلاح الأمة، لا زال مولانا منار الملّة ومستودع علوم الأئمّة» (١٧).

«إن للعقّال الفاطميين خطة ضيقة جداً، وما خطّة هؤلاء الا خطة المعري نفسها: إنزواء وانفراد وترويض للنفس. . . » إن كل «أسرار» أبي العلاء التي قال إنه «يستر دونها ويحمحم»، هي هنا، و «السرّ» محتوم على الإخوان الفاطميين الموحدين. وعليهم ينطبق قول الشاعر (السهروردي):

«بالسر إن باحوا تباح دماؤهم	وكذا دماء البائحين تُباح» (١٨).

من أقوال المعري:

- «أأخشى عذاب الله والله عادل	وقد عشت عيشة المستضام المعذّب. . .
- «دين وكفر وأنباء تُقَصُّ، وقرآن	ينصّ وتوراة وإنجيلُ
في كل جيل أباطيل يُدان بها	فهل تفرّد يوماً بالهدى جيلُ» . .
- «إعمل لأخراك شروى من يموت غداً	وادأب لدنياك مثل الغابر الباقي» . .
- «فلتفعلِ النفسُ الجميلَ لأنه	خير وأحسن لأجل ثوابها» . . .
- «تَحَلّ بتقوى أو تحلّ بعفّة	فذلك خير من سوار وخلخال» . . .
- إذا طرق المسكينُ بابك فاحْبُهُ	قليلاً ولو مقدار حبة خردل» . . .

المراجع :

١ـ د. جميل صليبا : «تاريخ الفلسفة العربية» مرجع سابق. ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

٢ـ مارون عبود : «أبو العلاء المعري، زوبعة الدهور». دار مارون عبود. الطبعة الثالثة ١٩٧٠ . ص ٢٤ .

٣ـ د. صليبا : المرجع السابق ص ٢٨٧ .

٤ـ عبود : المرجع السابق ص ٢٥ .

٥ـ د. صليبا : المرجع السابق ص ٣٠٩ .

٦ـ نفس المرجع، ص ٣١٥ .

٧ـ عبود : المرجع السابق ص ٣٠و٣١ .

٨ـ نفس المرجع ص ١٠٨ .

٩ـ د. صليبا : المرجع السابق ص ٣٢٢ .

١٠ـ نفس المرجع، ص ٣٢٥ .

١١ـ نفس المرجع، ص ٢٩٩ .

١٢ـ عبود : المرجع السابق، ص ٤٨ .

١٣ـ نفس المرجع، ص ٥٠ .

١٤ـ نفس المرجع، ص ٦٨ .

١٥ـ نفس المرجع، ص ٨٥ .

١٦ـ نفس المرجع، ص ٩٠ .

١٧ـ نفس المرجع، ص ٩٧ .

١٨ـ نفس المرجع، ص ١٨٥ .

المعز لدين الله في تقشفه وزهده وحكمته.

«روى أحد المحدّثين عن المعز لدين الله - الخليفة الفاطمي - أنه دعا عدّة من شيوخ كتّامة في يوم بارد، فرأوه في مجلس مفروش باللّبود وحوله كساء وعليه جُبّة، وحوله أبواب مفتوحة تفضي إلى خزائن الكتب، وبين يديه دواة وأوراق، فقال: أصبحتُ اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد، فقلت لأم الأمراء، وإنها الآن بحيث تسمع كلامي: أتُرى إخواننا يظنون أننا في مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلّب في المثقل والديباج والحرير والسمّور والمسك والخمر والقباء كما يفعل أرباب الدنيا؟ ثم رأيت أن أُنفذ اليكم فأُحضركم لتشاهدوا حالي إذا خلوْت دونكم، واحتجبت عنكم، وأني لا أفْضُلُكم في أحوالكم إلا بما لا بد لي منه من دنياكم، وبما خصني الله به من إمامتكم، وإني مشغول بكتب تَردُ علي من المشرق والمغرب، أجيب عنها بخطّي، وإني لا أشتغل بشيء من ملاذّ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم، ويعمّر بلادكم ويُذلّ أعداءكم، ويقمع أضدادكم، فافعلوا، يا شيوخ، مثلَ ما أفعله، ولا تُظهروا التكبر فينزع الله النعمة عنكم، وينقلها إلى غيركم، وتحنّنوا على مَنْ وراءكم ممّن لا يصل إليّ كتحنّني عليكم ليتّصل في الناس الجميل، ويكثر الخير، وينتشر العدل، وأقبلوا بعدها على نسائكم والزموا «الواحدة» التي تكون لكم، ولا تشرهوا إلى التكثّر منهنّ والرغبة فيهنّ، فينغّص عيشكم، وتعود المضرّة عليكم، وتنهكوا أبدانكم، وتذهب قوّتكم، وتضعف نحائزكم، فحسب الرجل الواحد الواحدة، ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم. واعلموا أنكم إذا لزمتم ما أمرتكم به، رجَوْت أن يقرّب الله بكم علينا أمر المشرق، كما قرّب أمر المغرب بكم. إنهضوا رحمكم الله ونصركم»[١].

يعتبر هذا الكلام «دستوراً جديداً لم يُسمع بمثله عن حياة الملوك في كل عصر» وهو إن دلّ على شيء فإنما يدل على زهد المعز لدين الله بصورة خاصة، والخلفاء الفاطميين بصورة عامة، وكذلك حال الشيوخ في عصرهم، الذين ينهجون للناس نهجاً جديداً قويماً فيه صلاحهم في دنياهم ونجاتهم في آخرتهم. وبمثل هذه الأمور،

وما شابهها، ازدهرت الدولة الفاطمية وانتشر العدل، وأقبل الجميع على مبايعة خلفائها والطاعة لهم. لاسيما في عهد المعزلدين الله، ومن بعده «العزيز بالله»، و«الحاكم بأمر الله»، حيث توسعت سلطتهم، وانتشرت دعوتهم في جميع الأقطار.

من رثاء المعز لدين الله لوالده المنصور بالله :

* «الله أكبر. الله أكبر، لا إله إلا الله... الله أكبر شأناً وأعظم سلطاناً وأوضح آيات وبرهاناً عن أن تنكر العقول توحيده، أو تروم تحديده، الفرد الصمد الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ندّ، الرحمن الغفور، النافذ قضاؤه، المحيط بكل شيء علماً.

أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأتوكل في كل الأمور عليه. وأشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له، وأشهد أن محمداً خيرته من عباده، وصفوته من المتطهرين، ورسوله إلى كافة العالمين. وعلى المهديّين من عترته الكرام الذين اختارهم للخلافة وارتضاهم للإمامة، وأوجب في التنزيل طاعتهم بعد تفضيلهم على العالمين، صلوات الله عليهم أجمعين وعلى أميري المؤمنين المهدي بالله والقائم بأمر الله، سيّدَيْ الورى وإمامَيْ الهدى، اللذيْن بهما أعلن الله دعوة الحق وأنطق بهما الإيمان والمؤمنين، وأقام بهما دعوة الدين، وأزهق بحقهما باطل المدّعين وأكاذيب المتخرّصين، صلوات الله وبركاته ورضوانه عليهما...

اللهم اخصص الإمام الفاضل، والغيث الوابل، ذا الآيات والمعجزات، والعزائم النافذات، الصابر في البأساء والضراء، حتى طهّر الأرض من جبابرة الأعداء... عبدك ووصيّك ونجيّك أبا الطاهر المنصور بك والمتوكل عليك والمفوّض إليك، الذي فجعتنا بفقده، وأوحدتنا ببعده، وأوحشتنا فقبلت دعاءه، وجمعتَ بينه وبين أحبّته في مستقر جنّتك وسعة رحمتك.

---

* د. عارف تامر: المنصور بالله. دار دمشق ـ دار الجيل. طبعة أولى ١٩٨٠. ص: ٨٢ـ٨٥ (بتصرف)

إن القلق عليك يا أبتاه، يا سيّداه، يا إسماعيلاه . . . يا أبا الطاهر، يا بحر علوم الأئمة الطاهرين، والهداة المهديّين، يا إمام الأئمة، ومفتاح باب الرحمة، يا مخصوصاً من الله بتعجيل الكرامة.

عَظُم علينا والله مصابُك، وعدم العزاء لفقدك، وقصرت الألسن عن إدراك وإحصاء شمائلك. فوَحقّ الذي اختصّك بكرامته، وشرّفك بأبوّة رسوله، لولا ما أوعزت إليّ به من القيام بحق الله، والذبّ عن أمة جدك رسول الله، واستنقاذهم من غمرة الجهالة وبحار الضلالة، وما تقرر عندي من الوفاء بحق الله ولرسوله ولأئمة الهدى، لضربت على وجهي سائحاً في البلاد، إلى أن يلحقني الموت سريعاً بك، فأفوز بقربك ورحمة ربك. لكنني فكرت وتدبرت فلم أر لي وجهاً استوجب به درجتك واللحاق بشرفك سوى الصبر والاحتساب، فتجلّدت وصبّرني ربي فصبرت، وغلب عليّ اليقين فأمسكت، وأقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. . والحمد لله على ما أبلى والشكر على ما أولى».

المراجع:

(١) مارون عبود: «زوبعة الدهور»، مرجع سابق، ص ٤٧-٤٨.

رسالة المعز لدين الله الفاطمي، إلى الحسن بن أحمد الأعصم، القرمطي

«يعتبر المعز لدين الله - رابع خليفة فاطمي في المغرب وأول خليفة في مصر - من أكبر المصلحين المسلمين، ومن أكبر أنصار الوحدة العربية الإسلامية. كان شاعراً أديباً، وفقيهاً متبحراً، وعارفاً بجميع اللغات السائدة في عهده. ويعتبر عهده من أزهى العهود للدولة الفاطمية».

كان نابغة عصره علماً وأدباً، كما اشتهر بتقواه وورعه، وحبه للعلم، وتقديره للعلماء. ويعتبر من كبار المسلمين الموحدين، والحكماء الروحيين، نظراً لتقشفه وزهده، وحكمته وعلمه.

والرسالة التالية تبين مدى غزارة علمه وأدبه، وشدة ورعه، لما تضمنته من الآيات القرآنية الكريمة، والحكم الروحية المقرونة بالوعظ والإرشاد، بأسلوب سهل رقيق، وانسجام في الألفاظ والمعاني. حيث تعتبر هذه الرسالة - بحد ذاتها - قطعة أدبية رائعة. وقد أرسلها إلى الحسن بن أحمد الأعصم - رئيس القرامطة -، وكان هؤلاء قد خرجوا عن طاعة الخلفاء الفاطميين، بعد أن كانوا من دعاتهم وأتباعهم وهاجموا مصر عدة مرات، حيث صدّهم الفاطميون عنها ثم قضوا عليهم نهائياً.

وهذه هي الرسالة: [1]

«من عبيد الله ووليه، وخيرته وصفيّه، معد أبي تميم، المعز لدين الله أمير المؤمنين وسلالة خير النبيّين، ونجل عليّ أفضل الوصيين.

بسم الله الرحمن الرحيم: رسوم النطقاء، ومذاهب الأئمة والأنبياء، ومسالك الرسل والأوصياء، السالف والآنف منا، صلوات الله علينا وعلى أبائنا، أولي الأيدي والأبصار في متقدم الدهور والأكوار، وسالف الأزمان والأعصار، عند قيامهم بأحكام الله.

الإبتداء بالإعذار والانتهاء بالإنذار، قبل نفاذ الأقدار، لتكون الحجة على من خالف وعصى، حسبما قال الله عز وجل: «وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولاً» (سورة الاسراء/ ١٥). و «ما من أمة إلا خلا فيها نذير» (سورة فاطر/ ٢٤).

أما بعد: أيها الناس !! فإنا نحمد الله بجميع محامده، ونمجده بأحسن مماجده، حمداً دائماً أبداً، ومجداً عالياً سرمداً، على سبوغ نعمائه وحسن بلائه، ونبغي إليه المعونة على طاعته، ونستزيد منه إتمام الصلوات وإفاضة البركات، وطيب التحيات على أوليائه الماضين، وخلفائه التّالين، منا ومن آبائنا الراشدين المهديّين، الذين «قضوا بالحق وكانوا به يعدلون» (سورة الأعراف/ ١٨١).

أيها الناس !! إن الله عزّ وجل، إذا أراد أمراً قضاه، وإذا قضاه أمضاه، وكان في قضائه قبل التكوين أن خلقنا أشباحاً، وأبرزنا أرواحاً، حين لا سماء مبنيّة، ولا أرض مدحيّة، ولا شمس تضيء ولا قمر يسري، ولا كوكب يجري، ولا ليلٌ يجنّ ولا نهار يكنّ، ولا لسان ينطق، ولا جناح يخفق، ولا ليل ولا نهار ولا فلك دوّار ولا كوكب سيّار. فنحن أول الفكرة وآخر العمل، بقدر مقدور، وأمر في القدم مبرور. وكان من حكمه السابق في علمه، ما ترون من فلك دوار، وكوكب سيّار، وليل ونهار، وما في الآفاق من آثار معجزات، وما في النفوس من الأجناس والصور، كثيف ولطيف، ظاهر وباطن، محسوس وملموس. كل ذلك لنا ومن أجلنا دلالة علينا وإشارة إلينا، يهدي به الله من كان ذا لبّ صحيح وعقل رجيح.

ثم إنه، جلّ وعلا، أبرز من مكنون العلم ومخزون الحكَم، أدم وحواء، أبوين سبباً لإنشاء البشرية، ودلالة لإظهار القدرة القوية، وزاوجَ بينهما فتوالد الأولاد، وتكاثرت الأعداد، ونحن ننتقل في الأصلاب الزكية والأرحام الطاهرة المرضيّة، كلما ضمّنا صلب ورحم أظهر منا قدرة وعلماً، وهلمّ جراً إلى اخر الجدّ الأول والأب الأفضل سيد المرسلين وإمام النبيّين محمد، صلوات الله عليه وعلى آله في كل ناد ومشهد. وعندها سقطت الأصنام وهدمت الأوثان، وأُتي بالقرآن شاهداً بالحقّ والبرهان، فيه خبر ما كان وما يكون إلى يوم الوقت المعلوم.

وكل ذلك دلالات لنا، ومقدمات بين أيدينا، وأسباب لإظهار أمرنا هدايات

وآيات وشهادات، وسعادات قدسيّات، إلهية أزليات. فما من ناطق نطق ولا نبي بُعث ولا وصيّ ظهر، إلا وقد أشار إلينا، ودلّ علينا في كتابه وخطابه ومرموز كلامه، فيما هو ظاهر وباطن، يعلمه من سمع النداء وشاهد ورأى من الملأ الأعلى. فمن أغفل منكم، أو نسي أو ضلّ، فلينظر في الكتب الأولى والصحف المنزلة، وليتأمل آي القرآن. وليسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم. فقد أمر الله عز وجلّ بالسؤال، فقال: «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» (سورة التوبة/ ١٣٢). ألا تسمعون قول الله حيث يقول: «وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلّهم يرجعون» (الزخرف/ ٢٨). وقوله ـ تقدّست أسماؤه ـ: «ذريّة بعضها من بعض، والله سميع عليهم» (آل عمران/ ٣٤). وقوله له العزّة: «والذي أوحينا إليك ما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا به كَبُر على المشركين ما يدعوهم إليه». (سورة النور/ ٣٥).

وما دلّ علينا، وأنبأ به عنه، قوله عزّ وجل: «كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب درّي يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقيّة، ولا غربيّة، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدي الله بنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس. والله بكل شيء عليم» (الشورى/ ١٣).

هذا ما أشار إليه ولوّح، وأبان وأوضح في السّر والعلانية، من كل مثل مضروب، وآية وخبر وإشارة ودلالة. حيث يقول: «ونريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (سورة فصّلت/ ٥٣). فإن اعتبر معتبر، ما في الأرض وما في الأقطار، وما في النفس من الصور المختلفات، والآيات والعلامات، وما في كون الإبداع من الصور البشرية، والآثار العلويّة، وما جمعته الفرائض والسّنن، وما جمعته السّنون من فصل وشهر ويوم، وتصنيف القرآن من تجزيبه وأسباعه، ومعانيه وأرباعه، وموضع الشرائع المتقدمة والسنن المحكمة، وما جمعته كلمة الإخلاص في تقاطيعها وحروفها وفصولها، وما في الأرض من إقليم وجزيرة، وبرّ وبحر، وسهل وجبل، وطول وعرض، وفوق وتحت، وما صدرت به الشرائع من فرض وسنّة، وحدّ وبيّنة، وما في الحساب من آحاد وأفراد، وأزواج

وأعداد، وكيف تجتمع وتشتمل على ما اجتمع عليه ما تقدم من شاهد عدل، وقول صدق، وحكمة حكيم وترتيب عليم. فـ «الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى» (سورة طه/ ٧). و «إن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها» (ابراهيم/ ٣٤). «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله» (سورة لقمان/ ٢٧).

وليعلم كل من «كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» (سورة ق/ ٣٧) أننا كلمات الله الأزليات، وأسماؤه التامّات، وأنواره الشعشعانيات، وأعلامه النيرّات، ومصابيحه البينات، وأياته الباهرات، لا يخرج منا أمر، ولا يخلو منا عصر. فاستشعروا النظر، فقد نقر في الناقور وفار التنور، وأتى النذير، فمن شاء فلينظر، ومن شاء فليتدبّر، «وما على الرسول إلا البلاغ المبين» (سورة النور/ ٥٤)...

وكتابنا هذا ـ من فسطاط مصر ـ، وقد جئناها على قدر مقدور، ووقت مذكور. فلما دخلنا، وقد قدّر المرجفون من أهلها، أن الرجفة تنالهم والصاعقة تحلّ بهم، تبادروا شاردين وجلوا عن الأهل والحريم والأولاد، وأنار الله «نار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة» (سورة الهمزة/ ٦و٧). فلم أكشف لهم خبراً، ولكنني أمرت بالنداء وأذنت بالأمان لكل باد وحاضر، ومنافق ومشاقق، وعاص ومارق، ومعاند ومسابق. فاجتمع الموافق والمخالف، والمباين والمنافق، فقابلت الولي بالإحسان والمسيء بالغفران، حتى رجع الباد والشارد، وتساوى الفريقان واتفق الجمعان، جرياً على العادة بالإحسان والصفح عند الامتنان، والرأفة والغفران. فتكاثرت الخيرات وانتشرت البركات. كل ذلك بقدرة ربانية وامرة برهانية، فأقمت الحدود بالبيّنة والشهود، في العرب والعبيد والخاص والعام، والبادي والحاضر، بأحكام الله ـ عز وجل ـ وأدابه، وحقه وصوابه. فالوليّ أمنٌ جذل، والعدو خائف وجل.

فأما أنت أيها الغادر الخائن [٢] المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده، والموقد لنار الفتنة والخارج عن الجماعة والسنّة، فلم أغفل أمرك، وأي طريق سلكت، ولا خفي عني خبرك. أما كان لك بجدّك أبي سعيد أسوة، وبعمل أبي طاهر قدوة؟ أما

نظرت في كتبهم وأخبارهم، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم ؟ ألم تعلم أنهم كانوا لنا عباداً أولي بأس شديد وعزم سديد، وأمر رشيد وفعل حميد ؟ننشر عليهم بركاتنا، حتى دان لهم كل أمير ووال، ولقبوا بالسادة فَعَلَت أسماؤهم واشتد عزمهم، وسارت اليهم وفود الآفاق، وخضعت لهيبتهم الأعناق، وخيف منهم أن يكونوا لبني العباس أضداداً، فعبّئت الجيوش وسار إليهم كل خميس. ولا رئيس إلا أسروه، ولا عسكر إلا كسروه، وألحاظنا ترمقهم ونظرنا يلحقهم، كما قال عز وجلّ : «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا» (سورة غافر/ ٤)، و «إن جندنا لهم الغالبون» (الصافات/ ١٧٣).

فلم يزل ذلك دأبهم وعين الله ترمقهم، إلى أن أختار لهم ما اختار من نقلهم من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن نعيم يزول إلى نعيم لا يزول، فعاشوا محمودين وانتقلوا مفقودين، فطوبى لهم وحسن مآب.

ومع هذا، فما من جزيرة ولا إقليم، إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ويأخذون بيعتنا، وينشرون علمنا، ويبشرون بأيامنا بتصاريف اللغات واختلاف الألسن. وفي كل جزيرة وإقليم رجال يفقهون وعنهم يأخذون، وهو قول الله عز وجل «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم» (سورة ابراهيم/ ٤). وأنت عارف بذلك، فيا أيها الحانث الناكث !! ما الذي صدّك ؟ أشيء شككت فيه أم كنت خلياً من الحكمة وخارجاً عن الكلمة ؟ فأزالك وصدّك، وعن السبيل ردّك.

وأيْم الله !! لقد كان الأعلى لمجدك، والأرفع لقدرك، والأحسن لعذرك، الكشف عن أحوال سلفك، فتكون خَلَفاً قفا سلفاً بجدّ وعزم مؤتلف وأمر غير مختلف. لكن، غلب الصدأ على لبّك فأزالك عن الهدى، وأمالك عن مناهج الأولياء وكنت من بعدهم كما قال الله عز وجل : «فخلف من بعدهم خَلَف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّا» (سورة مريم/ ٥٩).

ثم لم تقنع في انتكاسك، والنكوص على الأعقاب، وعصيانك مولاك، حتى تحملت عظيم الأوزار لتقيم دعوة دُرِسَتْ ودولة قد طمست. إنك لمن الغاوين، وإنك لفي ضلال مبين. أما قرأت كتّاب السفر، وما فيه من نصّ وخبر ؟ فأين

تذهبون ؟ إن هي إلا حياتكم الدنيا تموتون وتظنون أنكم لستم بمبعوثين ، «قل بلى وربي لتبعثنّ ثم لتنبؤنّ بما عملتم وذلك على الله يسير» (سورة التغابن/ ٧) .

ختم والله الحساب وطُوي الكتاب، وعاد الأمر إلى أهله ، والزمان إلى أوله ، وطلعت الشمس من مغربها ، وجيء بالملائكة والنبيين وخسر هناك المبطلون. [٣]هناك الولاية لله الحق ، والملك له الواحد القهار ، «لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون» (سورة الروم/ ٤)، «يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذي حَمْل حَملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد» (سورة الحج/ ٢) .

لقد ضلّك عملك وخاب سعيك ، وطلع نحسك وغاب سعدك ، حتى آثرت الحياة الدنيا على الآخرة ، ومال بك الهوى فأزالك عن الهدى ، ثم لم يكفك ذلك ، مع بلائك وطول شقائك ، حتى جمعت أرجاسك وأنجاسك ، وحشدت أوباشك ، وسرت إلى دمشق وبها جعفر بن فلاح في فئة قليلة ، فقتلته وقتلتهم ، واستبحت أموالهم ، وشتّت وسلبت وسبيت نساءهم ، وليس بينك وبينهم لا حقد ولا إضرار ، وأقمت على كفرك ولم تُقلع . وأتيت الرملة وفيها سعادة بن حيّان في زمرة قليلة وفرقة صغيرة ، فاعتزل عنك إلى يافا مستكفياً شرّك ، فلم تزل ماكثاً على نكثك تأخذ عنهم كل مرصد ، وتقصدهم بكل مقصد ، لا ينهاك عن سفك الدماء دين ، ولا يردعك عهد ولا يقين . أما كان لكتاب الله عز وجل معتبر ، حيث يقول : «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً» (سورة النساء/ ٩٣) .

إما قدت نفسك لجعفر بن فلاح (أي جعلت نفسك ديةً له) وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان ، وردّ جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة من عقال ناقة وخطام بعير - وهي أسهل مما يرد عليك ، وإما أن تردّهم أحياء في صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم - ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار - .

وإما سرت ومن معك بغير زمام ولا أمان ، فأحكم فيك وفيهم بما حكمت : إما

قصاص وإما فداء. عسى أن يكون تمحيصاً لذنوبك وإقالة لعثرتك.

وإن أبيت إلا فعل اللعين ـ إبليس ـ «فاخرج منها إنك رجيم وعليك اللعنة إلى يوم الدين» (سورة الحجر/ ٧٤).

فما أنت إلا «كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار» (سورة ابراهيم/ ٢٦). فلا سماء تظلّك ولا أرض تقلّك، ولا ليل يجنّك ولا نهار يكنّك، ولا فئة تنصرك. فقد تقطعت بكم الأسباب وأعجزكم الذهاب، فلا ملجأ لكم من الله يومئذ ولا منجى منه، وجنود الله في طلبك قافية فلا تجد في السماء مصعداً ولا في الأرض مقعداً، ولا في البرّ ولا في البحر منهجاً. حينئذ يفارقك أصحابك ويتخلى عنك أحبابك، فتبقى وحيداً طريداً وهائماً شريداً.

واعلم أننا لسنا بمهليك أو بمهمليك إلا ريثما يرد كتابك، ونقف على فحوى خطابك. فانظر لنفسك ما تبقى ليومك ومعادك، قبل انغلاق باب التوبة وحلول وقت النوبة، حينئذ «لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن قد آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً» (سورة الأنعام/ ١٥٨). وإن كنت على ثقة من أمرك، فاستقرّ بمركزك لينالك ما نال من كان قبلك من عاد وثمود و«أصحاب الأيْكة وقوم تبّع كل كذّب الرسل فحقَّ وعيد» (سورة ق/ ١٤).

فلنأتيكم بجنود لا قِبَلَ لكم بها، ولنخرجنكم منها أذلة صاغرين، بأولي بأس شديد وعزم سديد، بقلوَب نقيّة وأرواح تقيّة ونفوس أبيّة، يقدمهم النصر ويشملهم الظفر، تمدّهم «ملائكة شداد غلاظ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» (التحريم/ ٦). فما أنت وقومك إلا كسراح غنم، وأنت في القفص مصفود، فعندها تخسر الدنيا والآخرة «وذلك هو الخسران المبين» (الحج/ ١١)، «فأنذرتكم ناراً تلظّى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذّب وتولّى» (سورة الليل/ ١٤ـ١٦).

فليتدبّر من كان ذا تدبير، وليحذر يوم القيامة من الحسرة والندامة. «أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرّطت في جنب الله» (الزمر/ ٥٦). هيهات غلبت عليكم شقاوتكم «وكنتم قوماً بورا» (الفتح/ ١٢). والسلام على من اتبع الهدى وسلم من عواقب الردى، وانتمى إلى الملأ الأعلى. وحسبنا الله ونعم الوكيل، ونعم المولى

والنصير. والحمدلله رب العالمين، وصلى على نبينا الامّي الأمين، والطّيبين من عترته وسلّم تسليما.

المراجع :

١ - الشيخ زين الدين : «الردّ على الكاتب أنيس منصور» مرجع سابق. (ص ١٧٦-١٩٢)

٢ - إشارة إلى مهاجمة القرامطة عدة مرات مصر، برئاسة الحسن الأعصم، الذي إليه وجهت هذه الرسالة، حيث كان الفاطميون يصدونهم عن مصر.

٣- إشارة إلى زوال دولة العباسيين وقيام الدولة الفاطمية.

«الرسالة التي أوردها المؤلف «الشيخ زين الدين» مأخوذة من كتاب «المعز لدين الله» تأليف: د. حسن ابراهيم و د. طه أحمد شرف، ص ٢٦٤ . دون ذكر الناشر والتاريخ.

الشيخ علي فارس ـ رضي الله عنه ـ
(سنة ١١١٦هـ / ١٧٠٤م)

* «للشيخ علي فارس شهرة واسعة عند شيوخ مسلك التوحيد، فإلى جانب كونه عَلَماً من أعلام التقى والورع والزهد والعلم، يمتاز بشعره الصوفيّ الرقيق الذي يتردد على أفواه شيوخ الطريقة في مجالس الذِّكْر. وقد وقف شعره على التعبير عن شوقه إلى شهود حبيبه الإلهي، ولقاء رسوله الكريم (صلعم)، وعلى التعبير عن حال الحب الذي لزم هذا المتصوّف العارف. كما وقفه على تضرعه لله سبحانه وتوسله إليه واعترافه بعجزه وتقصيره، وحاجته إلى عفوه ومغفرته ورضوانه. وقد استطاع أن يوفّق، في شعره، بين القلب والعقل، أو قلْ بين العلم والمعرفة. ذلك أن التصوف هو وليد التذوّق العرفاني والاختبار الروحي من جهة، والوعي العقلي والعلم المنطقي من جهة ثانية.

ولد الشيخ علي فارس في قرية «يركا» من قرى الجليل في فلسطين، من أبوين فقيرين، فأبوه لم يكن يملك إلا بيتاً متواضعاً وقطعة من أرض مزروعة شجرات من الزيتون. وكذلك أمه كانت فقيرة، ولكنها من بنات الصلاح، فصبرت على الزوج والفقر وقد توفيت أمه وعمره سنة واحدة، فربي يتيم الأم مع شقيقته الصغيرة.

وتزوج أبوه ثانية، وكانت زوجته هذه تعامل الولدين معاملة خالية من حنان الأم، ولما أنجبت أولاداً ازدادت معاملتها السيئة لعليّ الصغير وشقيقته. وكان الفتى عليّ قد ظهرت عليه علامات التديّن والصلاح والخير، منذ نعومة أظفاره، فكان لذلك يتقبّل معاملة زوجة أبيه بالرضا والتسليم لأمر الله تعالى.

* د. سامي مكارم: «الشيخ علي فارس» المركز الوطني للمعلومات والدراسات: المجلس الدرزي للبحوث والإنماء. الدار التقدمية. طبعة أولى ١٩٩٠. (بتصرّف).

إنكبّ الفتى عليّ على تعلم القراءة والكتابة، وأخذ يستشرق أسراراً روحية لم تكن لأترابه. وأخذ يتردد إلى قرية «جولس» ليزور عائلة آل الطريف، الذين عرفوا بالتديّن والورع، والاضطلاع بالتبعة الاجتماعية. وكان من أفراد هذه العائلة الشيخ سلمان طريف ـ رحمه الله ـ، ذلك الشيخ الديّن العالم، وفي زيارته لهذه العائلة كان يشعر بروحانية قلّما يشعر بها من هو في مثل سنه، وكان ذلك يدخل إلى قلبه عزاء على ما كان يعانيه في بيت أبيه من معاملة سيئة.

غير أن هذا الموقف لم يغيّر أو يخفّف من إساءة زوجة أبيه إليه، ففي موسم قطاف الزيتون كانت تأمره أن «يفرط» شجرة بأكملها، في حين أن أولادها كانوا يتعاونون على «فرط» شجرة أخرى. كان يعدّ هذه القسوة رحمة من الله عليه وتصفية لنفسه.

وقد حدّث الشيوخ الثقات، ومنهم الشيخ الجليل أبو يوسف أمين طريف ـ نقلاً عن السلف ـ أن الشيخ علي فارس كان وهو صبي يصعد إلى شجرة الزيتون التي كانت تأمره زوجة أبيه «بفرطها»، ويهز أغصانها ثلاثاً بيديه الصغيرتين فتتساقط الحبوب على الأرض، بينما أولاد المرأة فكانوا لا يستطيعون فرط شجرة إلا بعد وقت طويل. وربما قُصد من هذه الكرامة أن تكون درساً لزوجة أبيه علّها تتعظ، ولكنها لم تفعل وبقيت على قسوتها.

... وتمرّ السنون، ويواصل الشيخ الفتى عبادته ونسْكه وتقرّبه إلى الله تعالى، وتستمر صلته الروحية بآل طريفٌ في «جولس». وكان هؤلاء يلاقون الفتى علياً بالترحاب كلما زارهم، ويأنسون به كل الأنس، وتمكنت بينهم روابط الإلفة وأواصر الأخوّة. وأخذ اسم الشيخ علي يشتهر بين أهل الخير والصلاح، وهو مواظب على الدرس والعبادة.

وييأس الفتى الورع من إصلاح أبيه وزوجته، ويستنكف عن مساكنتهما، فهما يؤخرانه عن العبادة وتحصيل العلم. ولكن، كيف يمكنه أن يعيش إذا غادر بيت أبيه؟ وإلى أين سيذهب؟ وإذ يتوكل على الله، يغادر البيت، ويتخذ من مغارة في إحدى التلال صومعة له. في هذه المغارة الموحشة المقفرة وجد الأنس كل الأنس، إذ

أخذ في التعبد والصلاة، والتأمل والمناجاة، بعيداً عن الناس وعما يأتونه من شرّ.

وبقي الفتى في المغارة أياماً، لا يرى فيها أحداً ولا يراه أحد الا الله، وعلم والده بخبره، فذهب في أثره وأخذ يسترضيه ليعود إلى البيت. غير أن الشيخ الشاب لم يستجب لطلبه. عاد الأب أدراجه ليخبر آل طريف بالأمر، حيث ذهب أولاد الشيخ حسن إلى المغارة، وأخذوا يحاولون إقناعه بالرجوع إلى بيت أبيه. فأخبرهم أنه سبق منه القول أنه سيبقى مدة في المغارة، وبعد ذلك يفعل ما يلهمه الله أن يفعله.

إزاء هذا الموقف من الشيخ عليّ، إتفق الأشقاء الثلاثة فيما بينهم أن يتولى أحدهم - الشيخ محمد - بأخذ الطعام والماء إلى المغارة كل يوم، ويقوم الآخران بعمل شقيقهم المعتاد، إعتقاداً منهم أن خدمة هذا الشيخ هي خدمة لله، ومحبته هي محبة لله. وأخذ الشيخ محمد يحمل الماء والطعام - يومياً - للشيخ علي، ويقضي النهار معه في صومعته في الصلاة والعبادة. ولكن الشيخ علياً الذي كان يتخوّف من العودة إلى بيت أبيه، كان يرى أيضاً أنه لا يستطيع البقاء طويلاً في صومعته تلك. إذ أنه يكبّد الشيخ محمداً وشقيقيه عناء ومشقة. فأي عمل هذا الذي يسبب لغيره التعب والإحراج؟ وعزم أن يطلب منه الكفّ عن المجيء إليه.

ولكن الشيخ محمداً قال له: لن أقبل منك، فإن كنت لا تحتاج إلا لقليل من الطعام، فأنت بحاجة إلى الماء لسدّ الرمّق والنظافة والوضوء والتطّهر. وافترق الشيخان وكلاهما غير مقتنع بما يصرّ عليه الآخر.

وفي الصباح التالي، عاد الشيخ محمد إلى الصومعة، كعادته، وما أن دخل المغارة حتى رأى الماء ينقط من سقفها عذباً زلالاً. فوقف خاشعاً وهو يقول: لقد أظهر الله كرامتك أيها الشيخ. قال الشيخ علي: بل لقد استجاب الله دعائي لكي يظهر كرامتك أنت، ولكي يريحك ويخفف عنك العناء، فهنيئاً لك بذلك.

وفي صباح اليوم التالي عاد الشيخ محمد مصحوباً بشقيقيه الشيخين وأبيهم، وقد شاهد الجميع سقف المغارة ينّقط ماء. وكان من نتيجة هذه الكرامة أن زاد تبرّك إخوانه آل طريف به، وتعلّقهم بصحبته. ألحّوا عليه أن يصطحبوه إلى بيتهم في

«جولس»، فأعلمهم الشيخ علي أنه نوى البقاء في المغارة ستة وأربعين يوماً ـ على عدد طيور الأبابيل ـ وبعدها يفعل ما يلهمه به الله تعالى.

. . . ولما مضت تلك المدة، عاد الشيخ حسن وأولاده إلى المغارة، وسألوا الشيخ أن يصطحبوه إلى بيتهم، فنزل عند رغبتهم. وأصبحت المغارة ـ منذ ذلك اليوم ـ مزاراً للناس. وكان لعزلة الشيخ في المغارة أثر في مسلكه الروحي كبير، فقد تجاوز أُنسه بالخلوة إلى الأنس بالله. لذلك بقي أنسه بالله، بعد مغادرته لها، وبقي مستأنساً طوال حياته بالله وبأوليائه الصالحين.

ويحكى أنه لما غادر المغارة، تحسّن عند أحدهم أن يصعد إليها ويتعبّد فيها على غرار الشيخ. فلما صعد وأدركه الليل فوجئ بنمر يقترب من المغارة، فارتعد خوفاً، وفرّ عائداً إلى قريته ليخبر الناس عن ذلك النمر الذي كان يأتي إلى الشيخ ويربض أمام المغارة حارساً.

. . . وطبّقت شهرة الشيخ علي البلاد، وانتشرت أخبار تقواه وورعه، فأخذ الناس يتوافدون إليه، تبرّكاً به، ومشاركة له في العبادة، وهو لم يتجاوز العشرين من عمره. وكان يستقبل الوفود ببشاشته وأنسه، ويدعو لهم أن يوفقهم في مرضاته تعالى. . . وقد رحل بعد ذلك إلى دمشق ليدرس على علمائها الفقه واللغة وعلم الكلام والتصوّف، ثم عاد إلى بيت أبيه ـ في يركا ـ ليواصل مسلكه الروحي وتقشفه وعبادته. وجعلت شهرته تتسع، فاضطر إلى الرحيل عن بيت أبيه إلى إخوانه في «جولس» ليقيم هناك مدة حياته. كان يقول لإخوانه آل طريف: أنتم أهلي، أنتم أحبائي، وهنا بيتي، وبقي في هذا البيت يشارك الشيخ حسن وأبناءه وبقية العائلة العبادة والدرس.

بعض الكرامات التي خصّ الله بها الشيخ علياً:

«تلك الكرامة التي كرّم الله بها هذا الشيخ الموحد هي ثمرة لتوحيده الحق، والتوحيد يثمر الكرامات على أنواعها، إذا كان توحيداً حقيقياً، ذلك أن الموحد الحقيقي حبيب الله.

من هذه الكرامات ما كرّم الله به الشيخ عليا، في اليوم الذي سبق زواج الشيخ محمد ابن الشيخ حسن طريف: فبينما كانت النسوة يولمن للعرس سألت إحداهن الشيخ علياً أن يبارك العجين، فبادر الشيخ إلى ذلك. أخذت النسوة يخبزن، غير أن العجين بقي كما هو لم ينقص، فاحترْنَ بالأمر، وذهب أحد الرجال إلى الشيخ علي يسأله ما العمل، قال الشيخ: قلْ للنساء أن يقطعن من العجين، وأن تأخذ كل منهن قسماً منه إلى بيتها، ولا يرجعن شيئاً إلى المعجن، وهكذا كان.

روى هذه الكرامة الشيوخ الثقات عن أسلافهم المعاصرين للشيخ. ويروى عنه، وكان لا يأكل من الخبز إلا القديد، ومن الأدَم القليل القليل، أنه طلب يوماً من الشيخ محمد شيئاً من الجبن، وكان الجبن قد نفذ من عنده منذ أسبوع، ولكنه تعوّد أن لا يرد للشيخ علي طلباً، فذهب إلى الوعاء المخصص لذلك، لعله يجد بقية من الجبن. غير أنه فوجئ بالوعاء مملوءاً جبناً. أخذ قطعة منه وقدمها للشيخ، ثم ذهب إلى زوجه وسألها متى صنعت هذا الجبن، فأجابته أنها لم تصنع جبناً، وأنها تركت الوعاء فارغاً منذ أسبوع. فأيقن الشيخ محمد حينئذ أنها كرامة أخرى مُنحها الشيخ، إظهاراً لفضله وإكباراً وتعظيما في أعين الناس».

وفاة الشيخ علي:

«في ليلة الجمعة الرابع عشر من رمضان المبارك سنة ١١٦٧ هـ، بينما كان الشيخ علي فارس منصرفاً في عبادته، في مجلس ذكْر بين إخوانه، سجدوا وسجد الشيخ مستشرفاً شهود نوره تعالى. وإذ انتهى الإخَوان والمريدون في سجودهم، إلتفتوا إلى الشيخ فإذا لا يزال ساجداً. وطال سجوده، فأوجسوا خيفة وقاموا إليه، فإذا هو دون حراك، ولا يزال ساجداً، وقد فارق الحياة. وكان لوفاته وقع أليم على الناس، وعمّ نعيه البلاد، واجتمعت وفود المعزين والمشيعين من جميع مناطق جزيرة الشام. وتقدّم أبناء قريته «يركا» سائلين نقل الجثمان إلى مسقط رأسه، ولكن آل طريف أصروا على دفنه في قريتهم «جولس» بجانب الخلوة التي بنيت له ليتعبّد فيها. وصلّي على الجثمان الطاهر على مسمع ومشهد من الحشود، ووري الثرى

في المكان الذي اختاره آل طريف، حيث دفن إلى جانب تلك الخلوة التي كان يتعبد فيها. وقد بنى آل طريف حول القبر مقاماً واسعاً ليكون مزاراً للمتبرّكين، وزاوية للمريدين».

. . . «وآلت الزعامة الدينية لعائلة طريف الكريمة، إعترافاً لها بالجميل، وتقديراً لخدمة هذا السيد المطاع، والشيخ التقيّ الورع، الموحّد علي فارس - رحمة الله ورضوانه عليه -.

وأصبح الشيخ محمد الطريف، رفيق الشيخ علي وتلميذه، ومريده، وخادمه، رئيساً دينياً للطائفة في فلسطين. لقد كان الشيخ علي فارس قدوة للموحدين في حياته، وقدوة لهم بعد مماته. لقد عاش تقياً زاهداً ورعاً، مجاهداً نفسه على الخير، متوكلاً على الله، راضياً مسلّماً أمره، محباً له وعاشقاً، وقضى قتيل الشوق إلى الله، وإلى أصفيائه الأخيار».

نماذج من شعره :

«مقطع من القصيدة التي نظمها عند وقوعه عن سطح البيت، وقد رأى نجمة الصبح، وكسرت رجله ولم يشعر بها، حيث ظل يناجي الله :

أيا كوكباً بالشرق أشرقت زاهيا ... ومن أفْق أحبابي تبدّيت وافيا

فبلغهم عني السلام وقل لهم ... عُبَيدُكم المضنى، لقد صار واهيا

وأخبرهم يا طالع السعد إنني ... مقيم على عهد الولا لست ناسيا

وقل لهم لقد طلّق النوم خجْلةً ... ومن خوفه من عتبكم عاد ذاويا

ولا زال مسقوماً، ولا زال خائفاً ... ولا زال مهموماً، ولا زال باكيا

ينوح ويبكي خيفةً من لقائكم ... ودمعٌ له أضحى لخدّيه كاويا

فلا لذةً يلقى بنوم ويقظةٍ ... ولا يجد المأكول والشرب حاليا . . .».

وقال في وصف الزهاد :

«قوم رضوا بيسير من ملابسهمْ والقوت، لا تخطر الدنيا بهواجسهمْ
صدورهم خاليات من وساوسهمْ أسرارهم ناقياتٌ ما بها الدّغَلْ.
هجروا المنازل والدنيا وزينتها ومزقوا ثوب زهرتها وبهجتها
ولا أرادوا سناها بل ونزهتَها ولا استمالهم حلي ولا حلَلْ.
لبسوا ثياب التقى، يا حُسن ملبسهمْ وداوموا الذكر إجهاراً بمجلسهمْ
غابوا عن الكون بل عن ذات أنفسهمْ إذ قد تجلّى لهم محبوبهم ذهلوا. . . ».

ويعبّر عن وَجْده وشوقه وتحرّقه بقوله :

«أحسّ بشوق نحو ربْعٍ يضمكمُ وأشتاق حبّاً قد ثوى فيه جمعكمُ
وأهوى بلاداً كان فيها ملككم إذا نظرت عيناي ركْباً يؤمّكمُ
بكيت اشتياقاً أن أكون مع الرَّكْب.

. . . .

ويقول مشيراً إلى كون النبي (صلعم) ممثلاً لنور العقل :

«لأنك أصل الكائنات وروحُها وغاية إبداع بك الكون واثقُ
وأنت هيولى كل شيء وكوْنه وأنت إلى توحيد باريك سابقُ
فأبدعك الرحمن من محض نوره وخصّك بالنور الذي فيك شارقُ
تقدسْتَ بالامجاد عن كل خلقة فلا أنت مخلوق ولا أنت خالقُ
فأنت رسول الله بالحق والهدى ولولاك لم يُدرِ الإلهَ الخلائقُ
وأنت لأبواب الهداية فاتحٌ وباب الشرك والعمى والشك غالقُ
عليك صلاة الله ما النبْتُ نما وما قد دجا ليلٌ وما الصبح شارقُ».

في التضرع والابتهال وطلب المغفرة :

«. . . فقل لهم عبد إلى حيّكم أتى — وناح بناديكم وبالباب ثاويا
أفي عدلكم يا سادة الكون والملا — بأن تطردوا من صار للحيّ لافيا ؟
إذا ما كان أوفى حقوقاً وقد لفى — فصفحكم أولى ولو كان عاصيا
فشُرْعة أهل العلم إن قدروا عَفَوْا — وبالصفح قد يجزون من كان آسيا
ولولا كرام الطبع سادوا بحلمهم — لكان بكل الخلق ساد التساويا . . . »

ويعبّر عن تحرقه لغياب الأحباب، بقوله :

«أحبائي قد غبتم، فيا عُظْمَ وحشتي — لغيبتكم عني، ويا عظم لوعتي
وَمُذْ غبتم غاب السرور مع الهنا — وقد ضاق صدري في شجوني وحسرتي
أقلّب طرْفي في الديار فلا أرى — بها من يسليني ويؤنس وحدتي
فللّه كم من ليلة قضيتها — أنوح عليكم يا أهالي مودّتي
ترى ننظر الأحباب عادوا لحيّنا — ونحظى بلمّ الشمل بعد فرقة ؟»

ويقول في الشوق :

«يا سائلي عن نُهى السادات ما فعلوا — حتى رقَوْا لمقام فيه قد وصلوا . . .
إفهم رعاك الله كيف طُرْقُهمُ — قرّت بجمال نور الله عينهمُ

رسخ اليـقين وقـد راقت قلوبهمُ   واستشعروا لشهود الله ما غفلوا .

هاموا وقاموا على الأقدام مذْ شهدوا   نورَ الإله، فغابوا فيه واتّحدوا

أضحَوْا نشاوى بخمر الحب إذ وردوا   حانَ الحبيب فما فاقوا، وقد ثملوا .

نام الأنام وهم في سيْرهم نهضوا   وفي الليالي وفي الأسحار ما غمضوا

وفي فسيح مجال الحب قد ركضوا   ما مسّهم في السّرى عجزٌ ولا كسلُ»[1] .

(١) لمزيد من المعلومات عن هذا الشيخ الجليل، التقيّ الورع، والاطلاع على أناشيده الروحية، يراجع كتاب الدكتور سامي مكارم، المنوّه عنه سابقاً : الشيخ علي فارس - رضي الله عنه .

العابد الذي ثقلت عليه العبادة

ما تتحدث به السِّيَرَ أن عابداً متنسّكاً، منقطعاً عن الناس، قال لنفسه: لِمَ أنا على هذه الحال التي لا أرى فيها غيري يلازمها؟ قال هذا وخرج يمشي في السَفح، فوقع على عين ماء، حيث رأى عن بعد ثلاثة أشخاص فقصدهم، ولما بلغهم وجد اثنين فقط. وبعد تبادل السلام قال: رأيتكم ثلاثة فإذا انتم اثنان، فأين الثالث؟ فأشاروا إلى جثمان قرب صخرة، قائلين: لقد لسعته حية فمات. قلت: هل له أقارب؟ قال أحدهم أنا أخوه وقال الثاني وأنا أبوه. فقلت للأب: أما تحزن على ولدك وقرّة عينك؟ قال: ماذا ينفعني حزني وبكائي عليه؟إنما مثلي ومثله كقافلتين إرتحلتا من مكان إلى آخر فوصلت الأولى قبل الثانية، وإنا لله وإنا إليه راجعون. قلت لشقيقه: أما تحزن على شقيقك؟ قال: إنما مثلي ومثله كسفينتين سائرتين في بحر فوصلت الواحدة إلى مينائها قبل الأخرى، وإنا لله وإنا إليه راجعون. قلت: هل له قرابة غيركما؟ قال: له زوجة ذهبت لتأتي بطعام له، وأم عجوز في القرية.

مضيت في طريقي، فالتقيت بالزوجة وقلت لها: أجرك على الله بزوجك خيراً. قالت: ماذا أصابه؟ قلت: لسعته حية فمات. قالت: كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفّون أجوركم يوم القيامة وأنتم لا تظلمون. قلت: ألا تحزنين على زوجك وعشير عمرك؟ قالت: ماذا ينفعني حزني وبكائي عليه؟ إنما مثلي ومثله كعودين مطروحين في ماء، فهب ريح جمعهما ثم ريح آخر فرّقهما، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم قصدت القرية وسألت عن الأم العجوز، فقلت لها: السلام عليك يا أَمَةَ الله. قالت: سلاماً قولاً من ربٍّ رحيم. قلت: أجرك على الله خيراً بولدك، إنه قد مات. قالت: كل نفس ذائقة الموت، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وبأي أرض تموت، وإنا لله وإنا إليه راجعون. قلت: يا سبحان الله!! ألا تحزنين على ولدك وفلذة كبدك؟ قالت: المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والآخرة خير ثواب عند ربك وخير أملاً، وكان الله على كل شيء مقتدرا.

قال المتعبّد : ورجعت إلى كهفي مستشعراً ضعفي، وعلمت أن لله تعالى عباداً أنسوا به واتّقوه وهم عنده الأكرمون [1].

المرجع :

(١) ملحم كرامي : مرجع سابق. ص ١٥-١٧ .

دعاء وابتهال، للعالم العامل *
"الشيخ حسن بن يوسف بن مكزون السنجاري"
ـــ قدّس الله روحه، ونوّر ضريحه، آمين ـــ

«الحمد لله المتجلّي لأبصار أهل البصائر، الظاهر بحلل البهاء في المظاهر، العالي عن شَبَه المخلوقين، البريء من شَبَه المتخلفين، المعنى الحق والإله الصدق، ذي الأمر الأزلي والخالق السّرمدي، والأحد القادر بذاته، الغني عن أسمائه وصفاته. مُبدئ بداية العالمين، الذي لا بداية لأوليته ولا نهاية لآخريتّه. لا تدركه البصائر ولا تحجبه السواتر، الغيب المنيع المشهود، المتعالي عن النعوت والحدود، مقيم الحجب والأبواب، ومرتب المراتب والأسباب، وصاحب الصحف والأسرار، مرشداً أرباب القلوب، والدالّ إليه بابه من مكان قريب.

ممتحن العباد بالعبادات، وفي السنن المفترضات، إبصاراً لأبصار المؤمنين، وآصاراً في أعناق الجاحدين. إستعمل كلاً على شاكلته، وأوقف كلاً عند استحقاقه في سابقته. سبيل قصده إلى محل مجده، وأشهد أنه الأحد لا من عدد، الظاهر بذاته من غير جسد، المتنزه عن الصاحبة والولد، وأشهد أن الواحد أول مبتدعاته، وأجلّ مخترعاته، ومبدئ مرضاته، وموقع أسمائه وصفاته.

حمْده المحمود وبيته المقصود، وعرش استوائه ومقام استعلائه. وأشهد أن الوحدانية باب رحمته وسبيل رشده ومعرفته، والمؤذن بأحديته، شهادةً مبرأةً من الشك والارتياب، مدّخرة ليوم العرض والحساب. وأسأل المعنى القديم، الصلوات على الحجاب العظيم والباب الكريم، وأن يفيض من صلواتهما على الأُلف اليتيم والأربعة التابعين له، صلاة متصلة: بالنقباء والنجباء والمختصين، والمخلصين

* (زين الدين. كتاب مفتوح. مرجع سابق). ص: ١٩٤

والممتحنين. . . موصلة لأسرار المؤمنين باللاحقين، وملحقةً اللاحقين بالمستحقين، والمستـمعين بالسائحين، والسائحين بالمقدسين، والمقدسين بالروحانيين، والروحانيين بالكروبيّين، والكروبيّين بالمقربين. . .

وأن يوفّر من فواضل بركاتهم، ونوافل صلواتهم، نصيب من أجرى إليّ النعمة على يديه، وجعلني حجة له لا حجة عليه . . . وعصمني من الزّيغ والزلل، وقادني إلى العلم والعمل، وأفادني عقل عاقل، اللهم آمين !! . . ».

"دعاء وابتهال لأبي حيّان التوحيدي" *

«اللهم إني أبرأ من الثقة إلا بك، ومن الأمل إلا فيك، ومن التسليم إلا لك، ومن التوكل إلا عليك، ومن الطلب إلا منك، ومن الرضا إلا عنك. أسألك أن تجعل الاخلاص قرين عقيدتي، والشكر على نعمك شعاري، والنظر إلى ملكوتك دأبي، والانقياد لك شأني وشغلي، والخوف منك أمْني وإيماني، واللّياذ بذكرك بهجتي وسروري... الله إني أسألك خفايا لطفك وفواتح توفيقك، ومألوف برّك وعوائد إحسانك. وأسألك القناعة برزقك والرضا بحكمتك، والنزاهة عن محظورك، والورع في شبهاتك. اللهم اجمع من أمري شمله، وانظم من شأني شتيته، واحرسني عند الغنى من البطر، وعند الفقر من الضجر، وعند الكفاية من الغفلة، وعند الحاجة من الحسرة، وعند الطلب من الخيبة، وعند البحث من الإعتراض عليك. أسألك أن تجعل صدري خزانة توحيدك، وجوارحي خدمة طاعتك، فإنه لا عز إلا بالذلّ لك، ولا غنى إلا في الفقر إليك، ولا أمن إلا في الخوف منك... اللهم إليك نشكو قسوة قلوبنا وغلّ صدورنا، وفتنة أنفسنا، وطموح أبصارنا، ورَفَث ألسنتنا، وسخف أحلامنا وسوء أعمالنا... الهم أطب عيشنا بنعمتك، وأرحْ ضمائرنا وأرواحنا من كدّ الأمل في خلقك... اللهم أنت الظاهر الذي لا يجحَدك أحد إلا زايلته الطمأنينة وأوحشه القنوط، وتردّد بين رجاء قد ناء عنه التوفيق، وأمل قد حفّت به الخيبة... اللهم إني أسألك جدّاً مقروناً بالتوفيق، وعلماً بريئاً من الجهل، وعملاً عرياً من الرياء، وقولاً موشحاً بالصواب، وحالة دائرة مع الحق، وفطنة عقل مَضروبة في سلامة صدر، وراحة جسم راجعة إلى رَوْح بال وسكون نفس.

اللهم اجعل غدوّنا إليك مقروناً بالتوكل عليك، ورواحنا عنك موصولاً بالنجاح إليك، ولا تُخْلنا من يد تستوجب الشكر، ومن شكر يمتري خلق المزيد،

* مخطوط البستان. مرجع سابق. ص: ١٣٥-١٣٧

ومن مزيد يسبق اقتراح المفترض، وصنع يفوق ذَرْع الطالبين. . . أنقلنا من مواطن العجز مرتقياً بنا إلى شرفات العزّ، فقد استحوذ الشيطان وخبثت النفس، وساءت العادة وكثر الصادفون عنك، وقلّ الداعون إليك والمراعون لأمرك، وفُقد الواقفون عند حدودك، وخلَت ديار الحق من سكانها، وبيع دينك بيع الخلَق. . . اللهم فأعد نضارة دينك، وأمدد علينا ظل توفيقك. اللهم إننا بك نعزّ، كما أننا بك نذلّ، وإياك نرجو ومن غيرك نيأس.

اللهم إنك تملك العالم كله وما بعده وما قبله، ولك فيه تصاريف القدرة، وخفيّات الحكمة ونوافذ الإرادة. ولك فيه ما لا ندريه مما تخفيه ولا تبديه. جلَلْت عن الإجلال وعظُمت عن التعظيم، فكن عند ظننا بك، وحقق رجاءنا فيك، فما خالفناك جرأة عليك، ولا عصيناك تقحّماً في سخطك، ولا اتبعنا هوانا استهزاء بأمرك ونهيك، ولكن غلبت علينا جواذب الطينة التي عجنتنا بها، وبذور الفطرة التي أنبتّنا منها، فلسنا ندّعي حجة ولكن نسألك رأفة إنك أهل لذلك، وأنت على كل شيء قدير».

"دعاء للشيخ الفاضل" ـ رضي الله عنه ـ

«يا من لا تدرك الأوهام عظيم جلال لاهوته، يا من لا تحوط الأفهام بقدرة مقام جبروته. يا من لا تدرك الأبصار باهر أنواره، ولا تحوط الأفكار بقدرته وجلال ملكوته. يا من حوى كل شيء لاهوته، يا من قهر كلّ شيء جبروتُه، وتعالى في عظيم ملكوته. يا من علا بسلطانه على كل سلطان، وتعالى من كل شان، يا عظيم الأركان، يا شديد البطش والإيمان، يا رحيم يا رحمن، يا وليّ الفضل والإحسان ومن لايحوط به مكان، ولا يشغله شان عن شان. يا من لا تدركه الخواطر والأوهام، يا خالق الكل ومولى الأنام، قدّوس قدوس يا رب العالمين، يا راعي البرايا ومعطي العطايا، ومفرّج الكروب العظام، خلّصنا من كل همّ وغمّ، ومن جميع شدائد الدهر. لتكن يمينك يا ربّ مرفوعة علينا، وواقية لنا بلطفك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

متّكلين راجين وُسْعَ رحمتك بحدودك العالين وانبيائك المرسلين، وملائكتك المقربين، أن تغفر لنا ذنوبنا وتمحو خطيئاتنا، وتعفو عن سيّئاتنا وتتوب علينا يا قابل التائبين. تتقبّل دعانا وتجبر كسرنا، وتلحقنا بعبادك الصالحين، وتخلصنا من ظلمة المنافقين والكافرين، وتعطينا من فضلك الثبات والصبر واليقين، وتنقذنا من شرور نفوسنا وشرور أعدائنا، وتكفّ عنا شرّ الظالمين وكيد الحسّاد والمعاندين، بالقدوة الإلهية، وبالعزّة الفردانية الصمديّة، وتشمل بهذا الدعاء ـ مولانا ـ نفوسنا ونساءنا وأبناءنا وإخواننا المؤمنين الصادقين الثابتين على هذا الدين، بجاه سيد المرسلين وآله الطاهرين.

وصلّ عليهم يا ربّ أجمعين. في كل وقت وحين، إلى يوم العرض والدين. أجب دعانا يا مولانا، والحمدلله رب العالمين»[1].

ومن مواعظه ايضاً :

«بسم الله الرحمن الرحيم .

كن مع الله يسلم قلبك، واقطع علائق الدنيا يسلم دينك، واحذر من الناس يصلح حالك . كلّ امرىء يكدّر انفض يدك منه تصفو نفسك، ومتى استوحشت من الخلائق يعظم بالخالق أنسك .

يا نفس ! ! ليكن نظرك الى الدنيا اعتبار وسعيك اليها اضطرار، ورفضك لها اختيار وطلبك للآخرة ابتدار، فالبدار البدار .

اللهم اجعل توحيدك مذهبي وعبادتك مقصدي، وذكرك مطلبي، والثبات على حكمة التوحيد ربحي ومكسبي . اللهم أسْكنْ قلبي بعبادتك وتوحيدك، واجعل لساني مفتاحاً لتقديسك وتجريدك، واجعلَ جوارحي خدماً في طاعتك يا رب العالمين .

اللهم اني اسألك وأتوسل إليك، أن تقلع من نفسي الهُداس، ومن قلبي الوسواس، وتشغلني في ذكرك وطاعتك عن سائر الخلق والناس . اللهمّ بحقّ العزّة الفردانية الصمدّية أن تجعل يا إلهي، ذنبنا مغفوراً، وعيبنا مستوراً، وكسرنا مجبوراً، وعدوّنا مقهوراً، وبيتنا معموراً برحمة منك يا عزيز يا كريم، يا غفور يا رحيم .

اللهم على مواثيقك أنشيني، وبالمناجاة تنجيّني، وبالتقديس تشفيني، وبالذكر تهديني، وبالتحذير من الخطايا تحذّرني، وبالإعذار تخلصني إذا خفّت موازيني، ومن النار توقيني . اللهم بحقّ المجالس المعمورة، وبحق المائة وأربع عشرة سورة (سور القرآن الكريم)، إجعل عيوبنا وعيوب إخواننا وأخواتنا مستورة . اللهم ارفع عنا وعنهم كل همّ وغمّ وبلاء وضرورة . اللهم اجعل نفوسنا ونفوس إخواننا وأخواتنا في الدنيا سعيدة وفي الآخرة مسرورة . آمين، آمين يارب العالمين، وصلى الله على سيد المرسلين وآله وأصحابه أجمعين» [٢] .

المراجع :

(١) الشيخ الفاضل ـ رضي الله عنه ـ هو الشيخ محمد أبو هلال. ولد سنة ١٥٧٩ م في قرية «الشعَيرةْ» في وادي التيم، وعاش معظم حياته في قرية مجاورة تدعى «كوكبة». وتوفي في قرية «عين عطا» بتاريخ ١٧ كانون الأول ١٦٤٠ م. وقد اشتهر بالتقوى والورع، وهو من كبار الشيوخ الموحدين الأفاضل.

(١) مخطوط مجهول المصدر دون تاريخ ولا صفحات.

(٢) مخطوطة. دون ذكر كتاب او تاريخ...

موعظة *

عن وليّ من أولياء الله تعالى : . . . لما تفكّر في معنى التكليف والبلوى، ولم يجد وجه الحكمة فيهما، قال في مناجاة ربه : ربّي !! خلقتني ولم تستأمرني، وتوفيتني ولم تستشرني، وأمرتني ونهيتني ولم تخبرني. ركّبت في نفسي شهوات مكروزة، وجعلت في عينيّ دنيا مزيّفة، وخوّفتني بوعيد وتهديد، وقلت لي : إحذر الشيطان لا يُغوينّك، والدنيا لا تغرّنك، وتجنب شهواتك. أوصيك بمعيشة الدنيا فاطلبها من وجه الحلال، وأما الآخرة فلا تَنْسَها ولا تُعْرِضْ عنها فتخسر الدنيا والآخرة. فقد حصلت يا ربِّ بين أمور متضادّة فلا أدري كيفَ أعمل، وقد تحيرت في أمري، فادركني يا رب ودلّني على سبيل نجاتي وإلا هلكت. . .

فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه وألهمه، وقال : يا عبدي، ما أمرتك بشيء تعاونني فيه، ولا نهيتك عن شيء كان يضرّني إن فعلته، بل إنما أمرتك لتعلم بأن لك ربّاً وإلهاً هو خالقك ومصوّرك ورازقك، وحافظك وهاديك، وناصرك ومعينك. وأنك محتاج في جميع تصرفاتك من أمر دنياك وآخرتك إلى تأييدي لك، وأنه لا يخفى علي من أمرك صغيرة ولا كبيرة، سراً وعلانية. عند ذلك لا تنساني، بل تكون دائم الأوقات في ذكري، وتعلم أني معك حيث ما تكون، أراك ولا تراني. فإذا عرفت هذا كله تركت كل شيء وراءك، وأقبلت عليّ وحدك، فعند ذلك أقرّبك مني وتكون من أوليائي وأهل جنتي مكرّماً مفضّلاً. فلا تظن بي يا عبدي ظن السوء، واذكر إنعامي عليك وإحساني إليك : عرّفتك الحدود والأحكام والعدل والانصاف والحق والخير والسيرة العادلة ليدوم لك الفضل والنعم وينصرف عنك العذاب والنقم.

يا عبدي . . . إذا تعذّر عليك فعل شيء مما أمرتك به، فقل : «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». وإذا أصابتك مصيبة، فقل : «إنا لله وإنا إليه راجعون».

---

* «رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء». إعداد وتحقيق الدكتور عارف تامر. الجزء الأول ص ٣٤١-٣٤٤ (بتصرف). منشورات عويدات. بيروت-باريس ١٩٩٥ .

وإذا أشكل عليك أمر وأردت صواباً، فقل كما قال خليلي إبراهيم : «الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين» . وإذا أصابتك مصيبة أو غمّ أو حزن، فقل كما قال يعقوب : «إنما أشكو حزني إلى الله» . وإذا جرت فيك خطيئة، فقل كما قال موسى : «هذا من عمل الشيطان» . وإذا صُرِفتْ عنك مصيبة، فقل كما قال يوسف الصدّيق : «وما أبرئ نفسي» . وإذا ابتليت بفتنة، فافعل كما فعل داود : «استغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب» . وإذا رأيت العُصاة من خلقي والخاطئين من عبادي ولا تدري ما حكمي عليهم وفيهم، فقل كما قال المسيح : «إن تعذّبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» . وإذا استغفرتني وطلبت عفوي، فقل كما قال النبي الكريم : «ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصْراً كما حملت على الذين من قبلنا» . وإذا خفْتَ من عواقب الأمور، ولا تدري بماذا يُختم لك، فقل كما قال أصفيائي وأوليائي : «ربنا لا تُزغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهبْ لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب الكريم» .

مختارات من أقوال الأولياء الصالحين والزاهدين المتقشفين

. . . «الصدق سيف الله في أرضه، ما وضع على شيء إلا قطعه» (ذو النون المصري)

«صحة الجسم في قلة الطعام، وصحة الروح في قلة الآثام»

«حقيقة الغنى أن تستغني عمن هو مثلك، وحقيقة الفقر إن تفتقر إلى من هو مثالك» (النخشبي).

. . . .

«حقيقة الصدق أن تصدق في بلد لا ينجيك منه إلا الكذب».

«الوقت إذا فات لا يستدرك، وليس شيء أعزّ من الوقت». (الجنيد البغدادي).

. . . .

«لسانك ترجمان قلبك، ووجهك مرآته، يتبيّن على الوجه ما تضمر القلوب. والقلوب ثلاثة: قلب مثل الجبل لا يزيله شيء، وقلب مثل النخلة أصلها ثابت والريح تميلها، وقلب كالريشة يميل مع الريح يميناً وشمالاً».

«تُبْ قبل موتك بيوم واحد. ولما كنت لا تعرف ذلك اليوم فكن دائماً تائباً». (سريّ السقطي).

. . . .

«على الإنسان أن يبدأ باصلاح نفسه قبل إصلاح غيره».

«لولا ثلاثة ما حنى ابن أدم رأسه: المرض والفقر والموت» (الحسن البصري).

«الدنيا ثلاث ساعات : ساعة مضت، وساعة أنت فيها، وساعة لا تدري أتدركها ام لا».

«لا حيلة لصاحب الرأي أمام سيف الطغاة، إنهم لا يقابلون الحجّة بالحجة، بل بالسيف والقهر والبطش والعذاب». (أبو ذرّ الغفاري)

. . . .

«إلهي! إن كنت أعبدك مخافة النار فاحرقني فيها، وإن كنت أعبدك رغبة في جنتك فابعدني عنها. وإن كنت أعبدك لذاتك فلا تصرف عني جمالك السرمدي».

«إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يومك ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل، وانت تعلم. فاعمل عملاً صالحاً يبقى ذكراً بعد ذهابك».

وقالت في المعنى نفسه (عن عبادتها لله) :

«أحبك حبّين، حب الهوى ... وحبّاً لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك دون سواكا

وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا».

(رابعة العدوية).

. . . .

«طلبت الرفعة فوجدتها في التواضع، وطلبت الرئاسة فوجدتها في نصيحة الخَلق، وطلبت المروءة فوجدتها في الصدق، وطلبت الشرف فوجدته في القناعة، وطلبت الراحة فوجدتها في الزهد والعبادة» (أويْس القرني).

. . . .

«القوة تزرع في قلبي وأنا أحصد السنابل وأعطيها أغماراً للجائعين. الروح تحيي هذه الجفنة الصغيرة وأنا أعصر عناقيدها وأسقيها للظامئين. السماء تملأ هذا السراج زيتاً وأنا أنيره وأضعه في نافذة بيتي من أجل العابرين في ظلمة الليل. أنا فاعل هذه الأشياء لأنني أحيا بها، وإذا منعتني الأيام وغلّت يدي الليالي طلبت الموت، فالموت أخلق بنبيّ منبوذ في بلده، وشاعر غريب بين أهله» (؟؟)

. . . .

«إذا تصدّقت فتصدق من حيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك، فالذي يرى الخفيّات يجزي علانية» (الامام الغزالي).

«إن تعليم العلم والفن للشخص اللئيم هو وضع السيف في يد قاطع الطريق. فالعلم والمنصب والجاه والثروة تبعث الفتنة على يد اللئام، والفضائح التي تصدر عن الجهال بسبب المناصب لا تصدر عن مائة أسد، فالمال والمنصب الذي ينالهما اللئيم يصبحان سبباً لفضح نفسه».

«ما لم تكن لك الرجولة فلا جدوى في الخناجر، وما لم يكن القلب قوياً فلا فائدة هناك، لأنه إذا كان مليئاً بفقدان الرجولة، فاللحية والشارب يكونان باعثْين على الضحك والسخرية».

«نحن في زمان المعروف فيه زلل، والصواب خطل، والإحسان مثل» (جلال الدين الرومي).

. . . .

«إن الكلب إذا طرح إليه الذهب والفضة لم يعرفهما، وإذا طرح إليه العظم أكبّ عليه. كذلك السفهاء لا يعرفون الحق» (مالك بن دينار).

. . . .

«ليس أحب إليّ من الضيف، لأن رزقه ومؤونته على الله، ولي أجره»

«خسارة يوم وليلة، من دُعيَ إلى طعام فلم يُجب، وخسارة سنة من زرع ولم يحصد، وخسارة العمر كله من لم يقرأ ويكتب» (البلخي)

. . . .

«من أظهر لأخيه الودّ والصفاء بلسانه، وأضمر العداوة والبغضاء في قلبه، لعنه الله وأعمى بصيرة قلبه» (الفضَيْل بن عيّاض).

. . . .

«سمع أبو يزيد البسطامي رجلاً يقول: «الله أكبر» فقال له: ما معنى الله أكبر؟. قال الرجل: الله أكبر من أي شيء سواه. فقال البسطامي: يا ويلك!! أوَ كان معه شيء فيكون أكبر منه؟ فقال له الرجل: ما معناها إذاً؟. قال: الله أكبر من أن يُقاس بالناس، وأن يدخل تحت المقياس، وتدركه الحواس». وقال أيضاً: «أربعة ترفع قدر الإنسان: لسان بغير كذب ولا غيبة، وقلب بغير مكر ولا خيانة، وبطن بلا حرام أو شبهة، وعمل بغير هوى ولا بدعة» (البسطامي).

. . . .

«العجلة من الشيطان إلا في خمس: إطعام الطعام إذا جاء ضيف، وتجهيز الميت إذا مات، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدّيْن إذا وجب، والتوبة من الذنب إذا أذنب».

«أطلب نفسك في أربعة أشياء: العمل بلا رياء، والأخذ بغير طمع، والعطاء بغير منّة، والإمساك بغير بخل».

«الظالم نادم وإن مدحه الناس، والمظلوم سالم وإن ذمّه الناس، والقانع غني وإن جاع، والحريص فقير وإن ملك» (حاتم الأصمّ).

. . . .

«سئلت رابعة العدوية - شهيدة العشق الإلهي -، هل تحبين الله؟ فقالت: أحبّه

حقاً. وهل تكرهين الشيطان ؟ قالت : إن حبي لله قد منعني من الاشتغال بكراهية الشيطان».

. . . .

«أقرب الخلق إلى الله أوسعهم خلقاً» (أحمد بن خضر).

. . . .

«عجبْتُ للتاجر كيف يَسْلَمَ، وهو بالنهار يحلف، وبالليل يحسب» (قتادة).

. . . .

مرّ أحد الزهاد في باب دار أهله يبكون ميتاً، فقال : عجباً لقوم يبكون مسافراً قد بلغ منزله»

«تحويل جبل من مكانه أسهل من حب الرئاسة، إذا استحكم» (رباح القيسي).

. . . .

«كان للجنيد البغدادي مريد يحبّه أكثر من الجميع، فحسده الآخرون. وأدرك الشيخ بفراسته ذلك، فقال لهم : إنه يفوق الجميع فهماً ونباهة، ونحن مزمعون الامتحان حتى يتبيّن ذلك. أمر مريديه أن يحضر كل منهم - في اليوم التالي - دجاجة، وقال لهم، عندما حضروا وأحضروا ما طلب : ليأخذ كل واحد منكم طائره ويذبحه في مكان لا يراه فيه أحد، ثم يأتيني به.

ذهبوا جميعاً، وذبح كل منهم طائره في مكان اعتقد أنه لا يراه فيه أحد، ثم عادوا بها، إلا ذلك المريد فإنه عاد بالطائر حيّاً. فسأله الشيخ : لماذا لم تذبح طائرك، كما قلت لكم ؟ فقال : لقد أمرتنا بذبح الطائر في مكان لا يرانا فيه أحد، وأنا كلما ذهبت إلى مكان، وجدت الله يراني. فقال الشيخ : أرأيتم الفرق بين فهمه وفهمكم؟

فاستغفروا جميعاً، نادمين على ما كان منهم»[1].

. . . .

. . . سأل أحدهم الحكيم الهندي «راما كريشنا» : هل نحصل على رضى الله بمجرد قراءتنا للكتب المقدسة ؟ فأجابه : إن أوراق التقاويم الهندية ـ الروزنامات ـ مليئة بتحديد الأيام التي تهطل فيها الأمطار. ولكنك إذا عصرت جميع أوراق هذه التقاويم فإنك لن تحصل على نقطة ماء واحدة. كذلك الكتب المقدسة فهي مليئة بالتعاليم الروحية المثالية، ولكن مجرد قراءتها لا يكفي لجعل الإنسان مثالياً ومتقدماً في روحانيته. فالأمر المهم هو ممارسة هذه التعاليم، وبذلك يحصل على نعمة الله ومحبته. ويكون ذلك عن طريق التقوى والعبادة والقيام بالأعمال الصالحة التي ترضي الله سبحانه، والابتعاد عما نهى عنه، وعدم القيام بأعمال سيئة وممارسات شاذة، تفقده روحانيته، وتبعده عن رضى الله وثوابه»[٢].

المراجع :

١ـ هذه الأقوال مأخوذة ومختارة من «مخطوط البستان» للشيخ جميل ابو ترابي. وهو مرجع سبق ذكره.

٢ـ سعيد حمود ملاعب : «حضارة الحكمة والحكماء». مرجع سبق ذكره أيضاً. الجزء الثاني طبعة أولى ١٩٨٥ .

الفصل الثالث

"أهل التوحيد"

الموحدون المسلمون الدروز:

"أعلام ومآثر وأقوال".

فهرس الفصل الثالث

. . «فـوجـدت كلمـة : كلمـة الموحـد الدرزي الديّان أفضل من صكّ مسـجّل لدى محاكم عدول دول العالم».

«شارل ديغول»

«أنا إنسـان من لبنان، الإسلام ديني، والدرزية مذهبي، والمسيحية شعاري. . إنسان لبناني المولد. . عربي اللسان والهوية والانتماء. . إنسانيّ الأفق. . وأنا من المؤمنين مع الشاعر العربي الكبير «رشيد سليم الخوري» (المعروف بالشاعر القروي)، بما قاله :

«ما دمتَ محترما حقّي فأنت أخي
آمنت بالله أم آمنت بالحجر».

- عن كتاب «ارمينيا والحصار» للدكتور صالح زهر الدين. (ص: ٩٧)

المسلمون الموحدون الدروز

«الموحدون الدروز، في النسب عرب أقحاح، لا يوجد في العرب الجالين عن الجزيرة العربية أصحّ عروبة منهم. فالتواريخ التي عند الدروز، والتي عند الطوائف الأخرى المساكنة لهم في جبل لبنان متفقة على كونهم أبناء اثنتي عشرة قبيلة عربية، هاجروا من ديار حلب إلى لبنان في أوائل عهد العباسيين، ولا تزال بقيّة منهم في الجبل الأعلى تجاه حلب. وهذه القبائل قد أوْطنت بلاد «معرّة النعمان» منذ أوائل الفتح العربي، ثم إن التواتر فيما بينهم مأثور من الخلف عن السّلَف يؤيد هذه التواريخ المكتوبة»[١].

«ولم تقتصر الدرزية، بمفهومها الحقيقي، ـ التوحيد ـ على درزية اليوم، بل هي كانت منذ أقدم العصور مستترة في جميع الأديان ومسالك العرفان. فدعوة التوحيد إنما هي استمرار للمسالك العرفانية القديمة وتطوّر لها، وقد استبطنتها الشرائع السماوية، كما احتضنها الإسلام فيما بعد وغذّاها . . . ونحن إذا دققنا النظر، نرى أية صلة وثيقة تربط مسالك الحكمة، عبر التاريخ، بعضها ببعض. فالموحدون جماعة كانت منذ كان الوجود»[٢].

«إن الموحدين عُرفوا في الماضي باسم «الأعراف» أيضاً، كما أطلق على الذين في حوران ووعرائها لقب «آل معروف». ثم كان من حظ هذا اللقب الإنساني، ومن حظ الموحدين، أن ذاع على أقلام الصحافيين والأدباء لقباً لجميع أهل المذهب في لبنان وسورية وفلسطين، فانتشر في العالم العربي، مطارداً اللقب الخطأ (الدروز) ـ وليته استطاع ـ فصار الموحدون يُعرفون ببني معروف، ويُعرفون بالدروز على السواء»[٣].

وقد نشأ المذهب الدرزي التوحيدي في عهد الخليفة الفاطمي «الحاكم بأمر الله» وانتشر في أنحاء كثيرة من العالم، بينما دين التوحيد دين وُجد منذ بدء الخليقة. وكما ورد في القرآن الكريم: «كما بدأكم تعودون، فريقاً هَدَى وفريقاً حقّ عليهم

الضلالة، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون» (صدق الله العظيم) [٤].

وقد اشتهر المسلمون الموحدون ـ الدروز ـ بمحافظتهم على العادات والتقاليد العربية الأصيلة، التي توارثوها جيلاً بعد جيل، منها: الكرم والشجاعة، إغاثة الملهوف، حفظ الجار والجوار، الامتناع عن المال الحرام، العفّة والزهد والحلم... والتاريخ حافل بمآثرهم الحميدة، فما رضخوا يوماً لحاكم مستبّد، وهم «لا يعتدون على أحد، ولا ينامون على ضيم».

وكما في سلمهم، كذلك في حروبهم. يحافظون على الأرض والعرْض، ويبذلون دماءهم رخيصة في سبيل صيانتهما والحفاظ عليهما. ولهم من عَقيدتهم في التقمص ـ وإن اعتقدها البعض بدعة ـ الدافع الأكبر للتفاني واستهانة الموت دفاعاً عن الشرف والكرامة. وقد شهد لهم بذلك الأعداء قبل الأصدقاء. أما لجهة التقمص فيستندون الى الآيات القرآنية الكريمة، والتي منها: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون» [٥] وقوله تعالى: «وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم، ثم إليه ترجعون» [٦]. وكذلك في قوله ـ جلّ من قائل ـ: «لا ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل وكسبت في إيمانها خيراً» [٧]. لذلك كان التقمص من صلب عقيدة التوحيد. ذلك، بالإضافة إلى ما ورد في الفلسفات القديمة، كاليونانية والفارسية والهندية... وسواها.

أما للدلالة على مناقبهم، فنكتفي بشهادة الجنرال «ديغول» ـ رئيس فرنسا ـ التي أدلى بها أثناء زيارته للبرازيل، وكان ذلك خلال فترة محاكمة البطل الدرزي المغوار «نواف غزالة» الذي اغتال المجرم السفاح أديب الشيشكلي، رداً على انتهاكه حرمة أبناء جبل العرب (جبل الدروز) وأعماله التعسفية ضد أهاليه. لقد قال الجنرال ديغول:

«إن هذه العشيرة المعروفية هي من أشرف العرب وأكرمهم. بيوتها ومضافاتها فنادق مجانية ومقاهي مجانية. إنها تحب الحق وتموت في سبيله. لا تتعدى على أحد ولا تنام على ضيم، تحمي الضيف والدخيل بالدم وتبذل الغالي والرخيص

فداء كرامته، وحمايته واجب مقدس عندها. عاداتها وتقاليدها من أشرف العادات... حاربناها، ولكنها هزمتنا، ولم يذلّ الجيش الفرنسي إلا أمام هذه العشيرة المعروفية - فقط - رغم كل الانتصارات التي حققها في أكبر المعارك المصيرية»[٨].

فلا غرو إذا لُقّبوا ببني معروف، وهم ما عليه من شجاعة وشهامة وكرم وإباء، وحسن ضيافة ومروءة، وصُنع للمعروف والأمْر به ونهي عن المنكر. وفي الصفحات التالية نبذات عن هذه العشيرة المعروفية، مستقاة من مصادر عدة، وإنها وإن كانت غيضاً من فيْض، فهي تبين إلى حدّ ما بعضاً من جوانب المذهب التوحيدي - الدرزي - ونزراً يسيراً من مآثر الموحدين.

المراجع :

(١) د. سعود المولى: «بنو معروف، أهل العروبة والاسلام». ص ٧١-٧٢. (القول للأمير شكيب ارسلان).

(٢) د. سامي نسيب مكارم: «مسلك التوحيد» ص ١٠٠

(٣) يوسف ابراهيم يزبك: من مقدمة كتاب «الدولة الدرزية» - مرجع سابق - ص ٦.

(٤) سورة الأعراف ٢٩و٣٠ -(٥) سورة البقرة ٢٨ -(٦) سورة الحج ٦٦ -(٧) سورة الأنعام ١٥٨.

(٨) د. صالح زهر الدين: «أسرار من التاريخ». دار الكاتب. بيروت. ١٩٨٥. الطبعة الأولى ص ٢٢٩. وكذلك للدكتور صالح «تاريخ المسلمين الموحدين الدروز» المركز العربي للابحاث والتوثيق، بيروت. ط١، ١٩٩١ص ٢٩٦.

نشأة الدروز *

«بعد موت النبي محمد (صلعم)، تمّت البيعة لأبي بكر الصدّيق، فتركت في نفس أتباع علي بن أبي طالب (شيعته) ألماً، ثم تولى عمر بن الخطاب الخلافة، فعثمان بن عفان ومن بعده الإمام علي. وكان أتباعه يعتبرون أنه أحق بالخلافة من الثلاثة الأول. وبقيت الشيعة على وفائها وولائها حتى بعد موت علي بن أبي طالب، إذ بايعت بعد مقتله إبنه الحسن الذي مات مسموماً، فتولى الخلافة الحسين بن علي، الذي قتل في معركة كربلاء المشهورة.

وقد كان الحسين كثير الشبه بوالده، لشجاعته وعلمه وتقواه، وورد على لسان النبي محمد (صلعم) قوله وهو يشير إلى الحسين: «ولدي هذا إمام ابن إمام وأبو أئمة تسعة أفضلهم القائم». ومن أقواله أيضاً: «لو لم يبقَ من عمر الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج ولدي القائم المنتظر، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً». وروي عن الإمام عليّ قوله: «متى أُنبئتم بقتل النفس الزكية بين الركن والمقام، إستبشروا بظهور القائم المنتظر». وقد أجمع المؤرخون على أن النفس الزكية هو الحسن بن الحسن المثنّى الذي قتل بين الركن والمقام..

وهكذا فإن القائم بأمر الله - المنتظر - هو تاسع إمام بعد الحسين - كما بشّر به النبي الكريم - إذ بعد الإمام الحسين تولى الامامة ابنه **زين العابدين**، ثم **محمد الباقر** فـ **جعفر الصادق** ابن محمد، الذي نُسب إليه المذهب المعروف باسمه (الجعفري). وانقسم أهل البيت بعد وفاته إلى قسمين: فريق مع ولده **إسماعيل** وفريق مع ولده موسى. وعرف اتباع اسماعيل بالإسماعيليين، وأبناء موسى بالشيعة (المتاولة).

---

* أمين طليع: محاضرة، نقلاً عن كتاب «الواقع الدرزي وحتمية التطور» منشورات رابطة العمل الاجتماعي ص: ٥١ وما بعدها - بتصرّف -.

وكانت الدعوة الاسماعيلية سريّة (دور الستر) وستبقى سرية إلى أن يأتي القائم. بعد اسماعيل انتقلت الدعوة والإمامة إلى ابنه **محمد**، ثم خلفه ابنه **أحمد الرضي**، الذي عرف باسم (أبو زكريا)، وكان عالماً فيلسوفاً، وهو صاحب نظرية الابداع والحدود. جاء بعده الامام **الحسين الوفيّ** الملقب بـ «العليّ»، ثم ولده علي الملقب بـ **«المعلّ»** وهو الامام التقي الورع المتقشف الزاهد. وكان سعيد الخير مرافقاً له ووصياً على ولده محمد الذي كان قاصراً. وقد أخذ سعيد الخير يتصرف بأموال الدولة فنقم عليه القرامطة وهددوه، فهرب إلى مصر وسمّى نفسه (عبيد الله المهدي)، وهو مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب. وبعد المعلّ جاء ابنه **محمد علي المعلّ** وهو القائم المنتظر، ولقب بالقائم بأمر الله. فيكون بهذا الامام التاسع بعد الحسين (كما بشر به النبي)، وكان أول خليفة فاطمي.

بعد القائم بأمر الله تسلّم الإمامة ابنه «أبو طاهر» الملقب بالمنصور بالله، ومن بعده انتقلت الإمامة والخلافة إلى ابنه «معدّ» الملقب بالمعز لدين الله، وفي عهده توسع نفوذ الفاطميين وازدهرت دولتهم. وكان فيلسوفاً عالماً واسع الاطلاع، تقياً ورعاً، وهو الذي بنى جامع الأزهر وأمر بعدم تعدد الزوجات. ثم خلفه ابنه «نزار» الملقب بالعزيز، وفي عهده كثرت الخيرات ونمت الثروات. وبعد العزيز جاء «أبو علي المنصور» الملقب بالحاكم بأمر الله.

إستلم «الحاكم» الخلافة وعمره إحدى عشرة سنة (سنة ٣٨٦هـ) كان مهيب الطلعة، شجاعاً كريماً. وكان من الحزم ـ رغم صغر سنه ـ والفطنة ما يقصر عنه أعاظم الرجال. إشتهر بالشجاعة والسخاء من ماله الخاص، وبالمحافظة على أموال الخزينة، والزهد والتقشف.

«ومما يروى عنه أن «جيش بن الصمصامة» ترك بعد وفاته مالاً كثيراً ونعماً وافرة، فأوصى بها إلى الخليفة «الحاكم»، وقَدِم أولاده إلى مصر مع أموالهم وإبلهم فقدّموا للخليفة وصية أبيهم. ولما قرأها قال لهم: لقد وقفت على وصية والدكم رحمه الله، وما أوصاه لي فخذوه هنيئاً مباركاً لكم، وخلع عليهم الخلع والعطايا». (عن المقريزي).

أنشأ الحاكم بأمر الله «دار الحكمة»، وفي عهده لاقت الدعوة الفاطمية نجاحاً عظيماً، وكشف عنها سنة ٤٠٨ للهجرة. فسمّي هذا الدور «دور الكشف». وكان على رأس الدعاة - بعد دعاة النّذُر - نخبة من العلماء أولهم حمزة بن علي ودعاته الأربعة وهم: محمد اسمعيل التميمي، سلامة بن عبد الوهاب السامري، محمد بن وهب القرشي، ثم أبو الحسن علي بن أحمد السمّوقي والملقب ببهاء الدين).

هؤلاء الدعاة الخمسة قامت على يدهم وانتشرت الشريعة التوحيدية، (ولقب أتباعها بالموحدين، الذين عرفوا باسم «الدروز». وهكذا نشأ المذهب التوحيدي وانتشر في أنحاء كثيرة من العالم على يد الدعاة، علماً بأن المذهب التوحيدي موجود منذ بدء الخليقة». (كما أشرنا إلى ذلك سابقاً).

علاقة الدروز بالمسلمين *

«لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لستَ مؤمناً»

سورة النساء، آية ٩٤

لسعادة أمير كتّاب العرب الأمير شكيب ارسلان.

الدروز فرقة من الفرق الاسلامية أصلهم من الشيعة الاسماعيلية الفاطمية. والشيعة هذه من الشيعة السبعيّة القائلين بالأئمة السبعة، وهم من جماعة المسلمين كما لا يخفى. وإذا قيل أن الدروز هم من الفرق الباطنية التي لا يُحكم لها بالاسلام، فالجواب أن الدروز يقولون إنهم مسلمون ويقيمون جميع شعائر الاسلام، ويتواصون بمرافقة الاسلام والمسلمين في السراء والضراء، ويقولون إن كل من خرج عن ذلك منهم فليس بمسلم. ولهذا فأصبح من الصعب على المسلم الذي فهم الإسلام كما فهمه السلف الصالح والذي سمع حديث (فهلاّ شققت عن قلبه) أن يخرج الدروز من الإسلام. وفي الشرع المحّمدي قاعدة: نحن لنا الظاهر والله يتولّى السرائر. وقد قال الله تعالى: «ولا تقولوا لمن القى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عَرَضَ الحياة الدنيا»، وهؤلاء لا يلقون السلام فقط، بل يلقون السلام ويقولون إنهم مسلمون، ويحفظون القرآن.

وإذا قيل إنهم مع كل هذه المظاهر تحتوي عقيدتهم الباطنية التي تعرفها طبقة العقّال، على ما يصادم عقيدة السنّة والجماعة ولا يتفق معها في شيء، فالجواب أنه قد وجد في الاسلام أئمة كبار يُترضّى عنهم عند ذكرهم ولهم قباب تزار، وكانوا يقولون بوحدة الوجود، فهل وحدة الوجود مما يطابق السنّة؟. كلا. وهل أخرج المسلمون هؤلاء الأئمة من الإسلام؟ كلا. أما تجسّد الإله فليس من عقيدة الدروز كما يتّهمهم البعض، والتجسد شيء والترائي شيء آخر.

---

*د. سعود المولى: بنو معروف، أهل العروبة والاسلام. مرجع سابق. ص ٧٥-٧٧.

وأما تأويل آي القرآن الكريم بزعمهم، فكم من فرقة في الاسلام انفردت بتأويل الآيات الكريمة. وقد رأينا مؤخراً عالما من علماء الاسلام يؤلف كتاباً في أصول الحكم، وينفرد بتأويل آيات من القرآن الكريم على حسب مذهبه، وقد طبّق ذكر كتابه الشرق والغرب، مع أن تأويله مخالف لتأويل الجمهور من أهل السنّة، فلم يخرجه أحد من الاسلام بل دافع عنه أناس كثيرون.

وكم من فتن في الاسلام من أجل المذاهب، حتى كانت تقع الوقائع بين أهل الحديث وأهل الرأي، أي بين الشافعيّة والحنفيّة، وتقع بين الأشعرية المجسّمة، أي الشافعية والحنبلية أو المالكية والحنابلة، وهلم جراً. . . فلما ضعف الاسلام وانهارت جوانبه بـ«مَشَتْ سكّة الأجنبي في حقله» على رأي «زيمور»، ثم انفتأت مراجل العداوات المذهبية بين دول الاسلام وطوائفه والدولة العثمانية، أيام كانت هي الخلافة الاسلامية عرّفت الدروز مسلمين.

لهذا، أنا لا أفهم ما وجه الضرورة لفتح مسألة ديانة الدروز وإظهار ما فيها من مخالفة للإسلام؟ في وقت يسفك فيه الدروز دماءهم بإسراف في الدفاع عن حوزة تسعة أعشارها بل أكثر من المسلمين. لأن الدروز في سورية ١٥٠ ألف نسمة، والمسلمون يزيدون على مليونين. فكان الدروز يقاتلون جنباً إلى جنب مع إخوانهم المسلمين، ويرفضون الصلح الذي كان عرضه عليهم الفرنسيين بأحسن الشروط. وهذا منهم محض مروءة وإنسانية ونزعة عربية، المقصد منها تأييد استقلال عربي أكثر من يستفيد منه المسلمون فالنصارى، وهذا من جملة الأدلة على موالاتهم للمسلمين، وأنهم في مصارعة المسلمين للافرنج لا بد أن يكونوا في صفوف المسلمين، وهذا شأنهم مع الصليبيين ومن أيامهم.

فإذا قلنا أن بعض الجرائد المتفرنسة الساقطة الخائنة لأوطانها تروي قصصاً من شأنها الشقاق وإيغار الصدور خدمة لفرنسا، وفصْماً لعروة الاتحاد بين هاتين الطائفتين اللتين تذبّان عن ذمار سورية وتردّان اعتداء فرنسا عليها، وإذا كانت امرأة قبيحة فرنسوية لا يليق بالكاتب نعتها بأوصافها حاولت التشنيع على الدروز بحسب ما رأت في ذلك من مصلحة فرنسا، فلا نفهم اختيار هذه الخطة التي تسوء المسلمين أكثر من الدروز في جرائد لا نعرفها ساقطة، ولا نعرفها حاطبة في الحبال الأجنبية.

(برلين).

التقمص

«ليس المذهب الروحاني ديناً، بل هو مفهوم متطور واع للحقائق الدينية التي هي صلب كل دين إلهي، فلا يباعد بين الإنسان ودينه الأصلي بل يساعد على التمسك بدينه، والرسوخ في اعتقاد الحقائق الإلهية، والتقيد بالناموس الأدبي والقانون الإلهي. لذلك نرى القائلين بالروحية هم على درجة رفيعة من التديّن والالتزام بالقيم الإنسانية العالية» (١).

«والمذهب الدرزي مذهب روحاني توحيدي، ومن صلب عقيدته التقمص، ونظرية التقمص مرت في مراحلها الهندية والأوروفية والمصرية والفيثاغورية والأفلاطونية بتعاريف مختلفة، كالتناسخ . . . إلى أن تولتها فلسفة التوحيد وبلورتها بشكلها الحاضر» (٢).

«وإذا كان التناسخ يقول بحلول الروح في الحيوان أو النبات أو الجماد، فإن الرأي السائد عند العلماء أن المقصود بمسخ الإنسان حيواناً، هو أن يكون لمن يستحق المسخ الصفات التي تميز بها كل هذه الحيوانات، لا أن تكون لهم جسومها. وعلى هذا جرى تفسير كلام أفلاطون الذي هو بهذا الموضوع، وتفسير القرآن الكريم في قوله: «وجعل منهم القردة والخنازير» (سورة المائدة/ ٦٣). والمعروف أن الدروز يعتقدون بالتناسخ، ولكي لا يلتبس مع غيره من أشكال التناسخ استعملوا كلمة «التقمص»، وعنهم أخذت هذه التسمية» (٣).

«والتقمص لغة تعني لبس قميصاً. أما المدلول المعنوي فهو أن الروح تركت جسداً لتلبس جسداً آخر (٤). ومن المسلّم فيه، منطقيا وجدلاً، وجود قوة فاعلة، جبارة، حكيمة ومعلّة، كانت وتبقى علّة كل شيء، ولولاها لما كان شيء. . . وهذه القوة الفاعلة هي الله، والتي لا تطالها المحسوسات ولا تقع تحت حصر، أو تخضع لحدّ، أو تنوء عند نقص أو عجز» (٥).

«ولما كان الله (تبارك وتعالى)، وعلى غير إرادة مخلوقاته، ولسرّ في ذاته وفي

مخلوقاته، أخضع البشر لمبدأ التفاوت في الكيان المادي الواحد بين الناس، فقد أصبح من الطبيعي أيضاً أن يُميَّز بين القمصان البشرية بفارق وصفيّ مادي من اللون والصوت والجمال والكمال والقدرة والاتزان، طبقاً لهذا التفاوت» [٦].

«أما وقد آمن البشر بكمال الصفات في ذات الله، وسموّ العدالة، ورصانة الحق والمساواة، فلا يمكن أن يثيب أو يعاقب الإنسان على حياة واحدة. فالتقمص ظاهرة موجبة لتبرير مبدأ الله جل وعلا في الثواب والعقاب. وهو أيضاً ظاهرة موجبة في إطاريه الزمني والروحي لإشاعة العدل والمساواة بين الخلق. فالهيكل المادي، وهو الذي تَلجُه الروح زمناً وتتخذه قميصاً في طور لاحق، ليس هو إلا ميدان امتحان الروح، ودليل مساواة وعدل في ذات القوي الخالق الذي هو الله. وما العدل والمساواة إلا صفتان متأصلتان في ذاته لا يمكن نفيهما، وبالتالي لا يمكن حدّهما»[٧].

. . . «ومروراً بهذا المبدأ تصبح الروح المخلوقة، الخالدة الطوّافة، وقد تعرضت لجميع المباهج ومختلف الافتراضات البشرية، وجهاً لوجه أمام مسؤولياتها. ويكون مبدأ التقمص قد ساعد على تحقيق ثلاثة أسس لازمة للوجود :

١ـ خلود الروح والإيمان المطلق بالحشر والنشر.

٢ـ مسؤولية الانسان وانطلاقاً منها مثوله أمام محكمة الخالق (الدينونة).

٣ـ مبدأ العدل والمساواة في ذات الله تعالى.

وإن اعتناق مبدأ التقمص يقود الإنسان إلى النتائج التالية : القول بإله واحد قدير مستمّر، تأكيد خلود الروح، وجدانية جوهر الدين في الطوائف المتعددة بين البشر»[٨].

. . . «ومن الأدلة الثابتة على التقمص، الدوافع الداخلية التي تتفاعل في المولود الجديد، حتى ولو كان هذا المولود ابن يومه. فتراه يبكي، ولا من سبب لبكائه، وطوراً يبتسم ولا من خيال محبّ يهشّ له بابتساماته، وطوراً آخر يقطّب جبينه ثم يزعق ويثور، وكأنه بذلك يفاعل أناساً أو صوراً لأناس، فهو يعطيك

صوراً وخيالات بعيدة عن محيطه.

فمن أين للطفل هذه التفاعلات؟.. من أين له هذه الصور؟.. أتراها من نسج أم، أم من وحي أب؟.. أتراها ثورة على المجتمع؟.. لا.. لا.. إنها ليست من هذه ولا من تلك. إن هذه التفاعلات الداخلية في الطفل هي من مخزونات الروح في طوافها الزمني عبر المادة من الأجيال السابقة.. إنها ذكريات روح من ماضٍ عَبَر تتردد في نفس الروح وفي حاضر تتهيأ لعبوره»(٩).

... «ثم، وهل عدل من القوة المبدعة أن يعيش إنسان ما قبل المسيح، وإنسان ما قبل ذلك الإنسان في الكهف عرياناً، نوره من الخشب، وطعامه من لحوم الحيوانات والوحوش، ويعيش إنسان اليوم في النور والمعرفة والبحبوحة، وعلى أجنحة الكهرباء والذرة؟..»(١٠).

... «وأين مبدأ الثواب والعقاب ومبرراته؟ إذ ليس من الحق والعدل والمساواة أن يُحاسَب إن لم يُقرّ بمبدأ التقمص، من يجيء بجيل البعث نفسه كمن جاء منذ ملايين السنين، فالأرواح، كل الأرواح، تعود ولا فارق بالعودة، تعود، وتعود، وتعود... إلى ما هنالك، «فعند أبي منازل كثيرة» حتى اليوم الموعود، يوم الحشر والنشور»(١١).

«من حيث المبدأ، وصحة التقمص، يتبين أن أسئلة كثيرة لا يمكن الإجابة عنها إلا بقبول نظرية التقمص، فمنها: إذا كانت النفس خالدة، وهي كذلك، أين كانت قبل الولادة؟ وأين تذهب بعد الموت؟ وإذا كانت خلقت من العدم عند الولادة، فلا يمكن أن تكون خالدة، لأن العدم مصيره العدم، وهي ليست كذلك. إذ أنه ما دامت الروح خالدة فيجب أن يكون لها ماضٍ قبل الولادة، وأن يكون لها مستقبل بعد الولادة، ولا يمكن أن تغرق بعد الموت في بطالة الانتظار الغير مجدٍ، والذي يمتد ويتطاول جزافاً إلى يوم القيامة لاجراء الحساب»(١٢).

.. «فالتقمص عند الموحدين الدروز معتقد ثابت وراسخ يعرفونه ويؤمنون به منذ ألف سنة، وهو جزء لا يتجزأ من معتقدهم الديني، بل هو من الركائز الأساسية فيه»(١٣).

. . «وقديماً قال أفلاطون الحكيم : «بعد موتنا تقودنا الأرواح الموكول إلينا أمرها في هذه الحياة إلى مكان يساق إليه كل ذاهب إلى «هاوس» لتأدية الحساب، وبعد المكث هناك الزمن الضروري تعود بنا ثانية إلى التقمص في جسد جديد»[١٤].

. . «ومن كلام أوريجينوس: الروح وهي لا مادية ولا منظورة لا تستطيع أن تكون في أي مكان مادي بدون أن تلبس جسداً يلائم هذا المكان. إنها تخلع في يوم من الأيام الجسد الذي كان ضرورياً لها وعادت لا تحتاج إليه، وتتخذ جسداً آخر بدلا منه». وقال: لماذا تستجيب الإنسانية طوراً إلى الخير وطوراً إلى الشر؟ يجب أن نبحث عن السبب في ولادات سابقة لهذه الولادات الجسدية»[١٥].

حالات كثيرة ووقائع سمعنا بها أو قرأنا عنها، ومنها ما لمسناها لمس اليد، تؤكد صحة نظرية التقمص ـ المبدأ ـ، من هذه الحالات أذكر الحادثة التالية :

حدثني أحد أبناء بلدتي (هاني سلمان نصر)، وهو ما زال على قيد الحياة، قال: «كنت في الجيل الماضي أدعى «أبو قاسم حسين زهر الدين»، وما زلت أذكر تماماً أن أحد منخريّ كان (مشروماً) ـ يؤكد هذا القول المسنّون الذين عاصروا أبا قاسم ـ، ولم أكن أشمّ به أية رائحة، بينما كان المنخر الثاني طبيعياً. وفي هذا «الجيل» ولدت فاقداً حاسة الشم كلياً، مع أن أنفي بحالة طبيعية، فلا أميّز بين الرائحة الطيبة وبين الرائحة الكريهة». وعندما أبديت دهشتي من هذا الأمر، قال : «صدقني، لا أعرف الرائحة العطرة الذكية ـ كما يقولون ـ كيف تكون، ولا الرائحة الكريهة كيف هي، فسيّان عندي إن شممت رائحة الكولونيا أو أية رائحة أخرى كريهة، فإنني لا أميز بينهما ولا أشعر برائحتهما».

وقد جاء في مقال نشرته مجلة العربي في عددها رقم ٤٢٦ / مايو ١٩٩٤، للكاتب شوقي رافع ما يلي : (المقال بعنوان : الحياة بعد الموت).

«التقمص هو من المعتقدات الموغلة في القدم وعرفته الحضارات الفرعونية والهندية والصينية، وورد ذكره في كتاب الموتى عند الفراعنة، كما عند أهل «التبت». وهو يقوم على تشبيه الجسد بالقميص، فالانسان يستبدل قميصه القديم عند الموت بقميص جديد عند الولادة، وبالتالي يصبح الموت هو محطة عبور إلى

حياة جديدة» (ص : ٧٩).

وقد استشهد الكاتب بعدة حوادث تقمص في بلدان مختلفة وأرفقها برسوم عائلية في الحياتين لهؤلاء المتقمصين. وأكتفي بذكر حادثتين منها، الأولى :

يقول الكاتب : «الجريمة وقعت قبل تسع سنوات، في إحدى قرى جبل لبنان، ودخلت ملفات الشرطة باعتبارها جريمة عاطفية ارتكبها «مجنون». هنا بعض تفاصيلها مع تغيير الأسماء لأن أبطالها ما زالوا أحياء.

«خالد . م» يملك شاحنة للنقل، في شتاء عام ١٩٦٢ تدهورت الشاحنة، وقطعت جثة خالد نصفين. كانت ابنته «سارة» عندما قتل في الثانية من عمرها، بينما كانت زوجته «غالية» في الثانية والعشرين. بعد ست سنوات تزوجت غالية ثانية، ولكنها لم تنجب أطفالاً. وبعد ١٢ عاماً دخل فتى بصحبة والديه إلى منزل المرحوم «خالد» وقال : أنا خالد وقد نطقت.

كانت الأسرة من الموحدين الدروز، وكانت تؤمن بما يسمى بـ «النقلة والخلقة»، أو التقمص، ولذلك استقبلت الفتى بالترحاب والحب، وقال إن اسمه الحالي هو «وهيب» وبدأ يذكر تفاصيل حياته السابقة، وطلب من «غالية» أن تذهب إلى «القبو» وأن تبحث عن عشر ليرات ذهبية أخفاها تحت بلاطة في الزاوية اليمنى من القبو. وهلّل الجميع عندما رفعت «غالية» البلاطة لتجد القطع الذهبية تماماً كما وضعها خالد في «الجيل الماضي».

وبعد تلك اللحظة باتت «سارة» تناديه : يا أبي، مع أنه أصغر منها بسنين. وعلى مدى ١١ عاماً توالت زيارات «وهيب» لأسرته «القديمة»، إلى أن قرر زوج غالية أن يبيع قطعة أرض تملكها زوجته، وكان الزوج شيخاً طاعناً في السن. احتجت الزوجة، بينما صرخ وهيب : ولكن هذه الأرض هي من حق ابنتي سارة، ولا يمكن أن تبيعها !! . . وأصرّ الزوج، وفي صباح يوم البيع، فاجأه وهيب بثلاث طلقات من مسدسه أمام زوجته، ثم أطلق رصاصة أخرى على رأسه، وسقط منتحراً . . واحتفظت الزوجة مع ابنته بالأرض التي دفع «خالد» ثمنها مرتين». (ص : ٧٨-٧٩).

اما الحادثة الثانية فمكانها الهند: «ولد طفل ويده اليمنى دون أصابع، قال الطفل: إنه قطع أصابع يده اليمنى في «الجيل السابق» بينما كان يعمل على منشار لقطع الأخشاب، وعند بداية تذكره لحياته الماضية يقول: لقد كان هناك عرس في القرية، فجأة شاهدت شابين وعرفت أنهما أخواي، ركضت إليهما وناديتهما بالاسم فلم يتعرفا إليّ، ولكن بعد أن حكيت عن تفاصيل حياتي السابقة، ركضت إلى قريتي الأولى حيث حضرت والدتي وقالت لي: لن أصدقك حتى تخبرني كيف قطعت أصابعك. فذكرت لها التفاصيل، ثم عدت معها إلى المنزل، بحثت عن المنشار في الحجرة التي كان يوجد فيها، لم أجده، ثم واصلت البحث فوجدته في الحجرة الثانية. قالوا: إنهم غيروا مكانه...»

«ويعلّق الدكتور «ستيفنسون»* على هذا بقوله: إن أهمية هذه الحالة هي أنها يمكن أن تكون شهادة دامغة على انتقال العاهة من جيل إلى جيل، إن من الشائع أن يولد أطفال من دون أصابع في اليدين، وليس في يد واحدة، ومثل هذه الحالة يمكن أن تحدث مرة واحدة من أصل نصف مليون ولادة». (ص: ٨٣-٨٤).

وأخيراً... «كان الفيلسوف وعالم الرياضيات اليوناني فيثاغورس يروي لتلاميذه ذكرياته عن «الحياة السابقة» في «الجيل الماضي»، فيزعم (كذا) أنه كان المحارب «ايغوريوس» الذي قتل في حصار طروادة... ولم يكن فيثاغورس يشعر بالتناقض بين حقائق العلم ومسلّمات الإيمان» (ص: ٨٤).

---

* الدكتور «إيان ستيفنسون»- البروفسور- من جامعة فرجينيا في الولايات المتحدة الأميركية. وقد ورد في المقال المذكور في المجلة، وهو بعنوان «الحياة بعد الموت» أن «ستيفنسون جال في زوايا الأرض الأربع، وسجل ٢٥٠٠ حالة موثقة لأطفال تحدثوا عن حياتهم في «جيل سابق»، ووضع هذه الحالات في أربع مجلدات للنشر.

المراجع :

(١) محمد خليل الباشا : «التقمص». دار النهار للنشر، ١٩٨٢ . ص ١١٣ .

(٢) د. سامي ابو شقرا : «عقيدة الدروز». مرجع سابق.

(٣) الباشا : المرجع السابق، ص ١٨١-١٨٣ .

(٤) الذبياني : «التقمص». مطابع بيبلوس الحديثة ١٩٦٧ . ص ١٧ .

(٥) نفس المرجع. ص ٤٢ .

(٦)المرجع نفسه. ص ٥٠ .

(٧)و(٨) المرجع نفسه. ص ٥٦-٥٩ .

(٩) نفس المرجع : ص ٩١ .

(١٠)و(١١) المرجع نفسه : ص ١٣٣و١١٥ .

(١٢) الباشا : مرجع سابق ص ١٩٠-١٩١ .

(١٣) نفس المرجع، ص ٦ .

(١٤)و(١٥) المرجع نفسه ص ١٤٣و١٤٨ (نقلاً عن كتاب «التقمص وأسراره، تأليف «ناتاف» (Nataf).

- مجلة العربي : تصدر عن وزارة الاعلام بدولة الكويت. العدد ٤٢٦ / مايو ١٩٩٤ . ص: (٧٩-٨٤). المقال للكاتب «شوقي رافع» وهو بعنوان : «الحياة بعد الموت».

من أقوال حكماء الهند في التقمص

شاعت نظرية الحياة بعد الموت، ليس في الهند فقط، بل في الصين أيضاً، وفي اليابان والتيبت واليونان القديمة. فلاسفة عديدون أمثال، فيثاغورس، افلاطون، أفلوطين، كانْت، هيوم وغيرهم... اعتقدوا بالعودة وعبّروا عن آرائهم المتعلقة بالتقمص والتناسخ.

مؤلفات حديثة أكدت صحة هذا الاعتقاد، منها مؤلفات العلاّمة الاميركي الدكتور «إيان ستيفنسون»، والمعالج الروحي الدكتور «إدغار كابس»، و «جون غرانت» وكثيرون غيرهم...

فالهنود يؤمنون بالتجسّد ولحكمائهم العديد من الأقوال في هذا الموضوع:

يقول الحكيم: «أناندا»: «الروح بعد الموت تصون كل المشاعر والانطباعات والأفكار والتجارب التي مرّت بها ومعها عبْر أعمارها السابقة على الأرض. وهذه التجارب والاختبارات تتعلق بالروح، أما الجسد فإنه يعمل على نقل هذه المشاعر والأفكار. الروح تولد من جديد، عندما تتوفر لها الظروف الملائمة لتنمو وتتطور».

وتقول الـ «بغفاد ـ غيتا»: «وكما يلبس الإنسان ثوباً جديداً، ويطرح جانباً الثوب البالي، هكذا النفس تلبس أجساداً جديدة، حينما تطرح الأجساد البالية».

- «مع تأجج النار الشهوانية تنتقل الروح من عالمنا هذا إلى عالم آخر. وما التقمص سوى انتقال هذه الروح».

ويقول الحكيم «شري مهاشاريا»: إن التباين الشاسع في القدرات الأدبية والعقلية والنفسية يتجه بنا نحو ماضٍ تطوّري. وبإمكاننا أن نقول: إن النبوغ لا ينتقل من إنسان إلى آخر بطريقة وراثية. هناك طفل أعجوبة يتكلم ثلاث عشرة لغة وهو في الثالثة عشرة من عمره، وطفل آخر يقرأ التوراة ويشرحها وهو في سن الرابعة، وطفل ثالث يذهل الموسيقيين والمولعين في فن الموسيقى وهو في عمر

الخامسة. كيف نفسّر ذلك دون الرجوع إلى فكرة التقمص والبحث فيها ؟. يتذكر بعض الأشخاص حيواتهم السابقة، ويحدث ذلك غالباً في مرحلة الطفولة. عند الغربيّين، الأهل لا يأبهون لهذه الظواهر، أما في الشرق وفي الهند بالذات، فإن هذه الأمور تؤخذ بمنتهى الجدية».

وقد ذكرت مجلة «الموقف» في عددها الصادر في نيسان ١٩٩٧ - العدد ١١٩- في الصفحة ٦١، ما يلي:

الطفل المعجزة:

«حقق طفل اميركي في العاشرة من عمره ثلاثة انجازات تم تسجيلها في كتاب «غينيس» الشهير بتدوين الأرقام القياسية. فقد حصل الطفل (مايكل كانزي) على «درجة الباكالوريوس في علم الاجناس مع مرتبة الشرف، من جامعة «ثاوث ألاباما» وعمره لم يتجاوز العشر سنوات وخمسة أشهر. كما انه يعتبر أصغر طالب يدخل الجامعة وهو في عمر ست سنوات وسبعة أشهر. أما الجازه الثالث فكان حصوله ديبلوم الدراسة الثانوية وهو في عمر ست سنوات وخمسة أشهر فقط.

وكان الطفل المعجزة يذهب الى الجامعة بصحبة والدته التي كانت تساعده في كتابة المحاضرات الدراسية. لأنه لم يكن سريعاً في الكتابة كغيره من الطلاب الأكبر منه سناً».

(الخبر مرفق برسم للطفل ووالديه - في المجلة- لتأكيد صحته).

ويقول الحكيم «أتمنندا»: الذي يموت هو الجسم الكثيف، هو القميص، وإن «الأنا الجوهرية» - الروح - لا بد أنها تلبس قميصاً جديداً، وتستمر في ترقيها على سلّم التطور اللولبي الصاعد»*.

---

* نقلاً عن كتاب: «كمال جنبلاط واليوغا والحكمة الهندية» تأليف د. قيس غوش. الطبعة الأولى ١٩٩٥. منشورات جرّوس برس. طرابلس - لبنان. ص ١٩١ - ١٩٤ (بتصرف).

«جاء على لسان «كريشنا» : ليس صحيحاً أنه كان وقت لم أكن فيه موجوداً، أنا وأنت ، أو ملوك الناس هؤلاء. وليس صحيحاً أيضاً أن أياً منا سينقطع عن أن يكون».

«وكما أن النفس تمرّ جسدياً في الطفولة والشباب والشيخوخة، فإنها تمرّ أيضاً من جسد الى جسد. إن ما هو موجود حقيقة يستحيل أن ينقطع عن الوجود، وما كان غير موجود فلن يبدأ بالوجود».

«الروح المتقمصة تخلع الجسوم القديمة وتتخذ لها جسوماً جديدة، كما يستبدل الإنسان ثيابه البالية بثياب جديدة».

«حتى وإن كنت تفكر في أن الروح عرضة للولادة والموت، يجب أن لا تحزن، لأن الموت حتم على من يولد كما أن الولادة حتم على من يموت. وما كان محتوماً يجب أن لا يسبّب أي حزن».

وقال «شري اورنيدو» : «تتناقل الروح بعد موت الجسد إلى عوالم أخرى تكمل دورتها لتتناسخ في أجسام جديدة».

وقالت «السوامي رامراس» : «التناسخ نظرية منطقية ضرورية للتطور الروحي: إنها ليست نظرية فحسب، بل هي حقيقة لا مرْيةَ فيها. وعلينا أن نكون متأكدين من أننا مررنا بحيوات سابقة، وأنه لا بد لنا، باستثناء بعض الحالات النادرة ـ من المرور في حيوات أخرى».

وقال «غاندي» : «إنني أؤمن بتعاقب الحيوات كما أؤمن بوجود جسمي الحالي، وبأن الإنسان ارتفع إلى حالة عملية بعد ولادات كثيرة» [1].

ويروى عن النبي (صلعم) قوله للإمام علي ـ رضى الله عنه ـ : «لم أزل أنا وأنت يا عليّ من نور واحد، ننتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية، كلما ضمّنا صلب ورحم ظهر منا قدرة وعلم حتى انتهينا إلى الجدّ الأفضل والأب الأكمل عبد المطلب، فانقسم النور نصفين في عبد الله وأبي طالب. فقال الله تعالى : كن يا هذا «محمداً»، وكن يا هذا «علياً».

وعن ابن العباس، قال رسول الله (صلعم) : «فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح، وقذف بي في صلب ابراهيم، ثم لم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة حتى أخرجني من أبوين لم يلتقيا على سفاح»[٢].

المراجع :

١- محمد خليل الباشا : «التقمص». مرجع سابق. ص ١٨٠و١٨١ .

٢- الشيخ زين الدين : «كتاب مفتوح...» مرجع سابق ص ٣٢٤ـ٣٢٥ .

سيرة الأمير السيّد جمال الدين التنوخي *

«الأمير السيد» من سلالة التنوخيين الذين جاؤوا من معرة النعمان ونزلوا منطقة الغرب، وكان من سلالتهم حكماء وأبطال وأدباء وذوو فضل معروف.

«ولد الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي ـ المعروف بالأمير السيد ـ في عبيه ٢٢ ربيع الأول سنة ٨٢٠ للهجرة الموافق ٨ أيار ١٤١٧م. أبوه الأمير علم الدين سليمان وأمه الست ريمة بنت الامير شهاب الدين أحمد. توفي في عبيه في ١٧ جمادى الثانية سنة ٨٨٤ للهجرة الموافق فيه ٤ أيلول سنة ١٤٧٩ ميلادية.

كان التنوخيون الذين نزلوا في وادي التيم مسلمين ثم استجابوا إلى دعوة التوحيد بعد الرسالة التي وجهها اليهم بهاء الدين المقتنى، وهي الرسالة المعروفة بـ «الجميهيريّة». وهم من طلائع الموحدين وأوائلهم. وكان منهم الأمير كرامة بن بحتر أول من سكن حصن سر حمول، والأمير سعد الدين خضر وكثيرين غيرهما.

ولد الأمير جمال الدين والمعنيون يحكمون الشوف وعاصمتهم دير القمر. توفي والده ونشأ يتيماً، ربّته أمه الست ريمة تربية صالحة وزرعت في نفسه التقوى وخوف الله. وقد طاف القرى طلباً للعلم، واشتغل بعبادة الرحمن، وبلغ من كثرة حفظه أنه صار يتلو القرآن جميعه عكساً. وقد امتحن في ذلك بقراءة سورة كبيرة من القرآن، فشاع خبره في البلدان. وبلغ من العلوم الدرجة السامية فأقبلت عليه التلاميذ من جميع الجهات. وكان من أول تعاليمه أن الحكمة لا يليق ذكرها إلا عند الكرام وأن لا يقبلها اللئام.

وحيث أن بيته يعجّ بالوافدين من طلاب العلم، رأى أنه بحاجة إلى سيدة رصينة تدير شؤونه، فاختار الست عائشة المشهورة بـ«ستّ العيش» وكانت طاهرة

* يوسف ابراهيم يزبك: وليّ من لبنان. منشورات أوراق لبنانية ١٩٦٠ (بتصرّف).

الأخلاق، رضيت بالزواج من الأمير السيد نظراً لتقواه. ورزق من هذا الزواج: عبد الخالق وفاطمة ومحمد وماتوا جميعهم صغاراً. أما الرابع وقد أسماه «سيف الدين عبد الخالق» فقد عاش ثماني عشرة سنة، ومات ليلة زفافه برفسة فرس. وقد كان صحيح العقل، عذب الكلام، متعبداً ورعاً عزيز النفس. أخذ العلم عن أبيه، ثم زفّت إليه ابنة عمته، ولكن مشيئة الله شاءت أن لا يكمل الفرح بزفافه، إذ أنه مات يوم عرسه. وتوافد الناس يعزون والده، ولشدّ ما كانت دهشتهم عندما وجدوه قد تقبّل مصابه بالصبر، وأخذ يدعو الناس إلى التعقل.

لقد سار الأمير السيد ـ قدس الله سره ـ على خطّة السلف الصالح، فما أمر بشيء إلا وعمله، ولا نهى عن شيء إلا تجنّبه. وقد عاش مثالاً يُقتدى به، فكان رسول خير ومحبة وعنوان تقوى وصلاح. رحل إلى دمشق وأقام فيها اثنتي عشرة سنة ـ في محلّة الشاغور ـ وذاع صيته لما كان يأمر به من المعروف وينهى عن المنكر. فحسده وقاومه الشيخ أحمد بن أبي فرن من مشايخ الميدان، وردّ عليه بالبراهين والحجج حتى أسكته. ثم عاد بعد ذلك إلى عبيه».

... «سأله يوماً عالم في دمشق: كيف تكون الصلاة عندكم؟ فأجابه ما قاله حاتم الأصم ـ المتصوّف الشهير ـ لفقيه سأله نفس السؤال (كيف تصلّي)؟ قال: الصلاة عندنا هي أنني أقوم بالأمر، وأمشي بالسكينة، وأدخل بالقصد، وأكبّر بالتعظيم، وأقرأ بالتوسّل، وأركع بالخشوع، وأسجد بالخضوع، وأسلّم بالنيّة، وأتمثل الجنة عن يميني والنار عن شمالي، وأقول في نفسي: إن الله حاضر معي، وإني لست أصلي صلاة بعدها». وعندئذ التفت الفقيه الى أصحابه وقال: قوموا بنا نُعدْ صلاتنا فليس فينا من يصلي [1].

لم يكن عند الأمير السيد كبير في القانون، يحكم بالحق ولو على نفسه أو ولده. لذلك، كان يقصده المتخاصمون فيقضي بينهم بالحق والعدل. حتى أن النصارى واليهود كانوا يقصدونه فيحكم بينهم، ويذهبون كل قانع بحقه.

كان الشيخ بدر الدين التنوخي العينداري ـ رحمه الله ـ يعدّ في الأمير أربع عشرة خصلة بعضها من خصال الأنبياء:

(١ ولد في أكبر بيت . ٢ـ ربي يتيما . ٣ـ عاش فقيراً . ٤ـ٥ـ٦ـ٧ـ تسلم الحكمة وختمها وبلغ وأخذ المشيخة في شهر واحد . ٨ـ٩ـ كان يُفتي ، حتى القتل . ١٠ـ قلمه كان يسبق فكره . ١١ـ قوله : «وفي قوى النفوس في فيض الملك القدوس ، ما لا تفي بشرح معانيه الطروس» ١٢ـ ما شرح شرحاً الا وعمل به . ١٣ـ قسم نهاره إلى ثلاثة أقسام : أحدها للكتابة والثاني للقراءة والثالث لقضاء مصالح الناس . وكذلك قسم ليله إلى ثلاثة أقسام : ثلثه للسهر في تعليم تلاميذه وثلث للنوم والراحة وثلث لعبادة ربه والدعاء والاستغفار . ١٤ـ إنه جمع الشواهد على قوله «وإنجاز ما وعدكم به» في كتابين(٢)» .

. . . «مرّ الامير السيد يوماً مع جماعة من تلاميذه قرب حصن قديم ، فقالوا له : لو حَسُن عند مولانا الأمير أن ينظر إلى هذا الحصن العجيب . توجه إليه ووجده من عجائب الأبنية : حجارته من الصخور الكبيرة وقد تلاحمت حتى لا تكاد الابرة أن تدخل بين حجر وحجر . لكن جذراً من جذور شجرة قريبة امتدت في الأرض وخرجت من بين الأحجار فشقّت لحامها وفصلت بينها . إلتفت الامير السيد إلى جماعته وقال : إن هذه الجذور الصغيرة قد علمتني شيئاً جديداً ، وهو أن لا يستغرب المرء أو يستصغر أي ذَنْب تافه ، فقد يكبر هذا الذّنْب ويعظم فيشبه هذه الجذور التي شقت لحام الصخور التيَ نراها» (٣) .

مواعظه :

. . . «عندما توفي ولده عبد الخالق ، أخذ يعظ الناس ويقول :

سبحان الله والحمدلله ولا حول ولا قوة إلا بالله . له البقاء الدائم وهو الحكيم الحاكم العالم ، له الأمر النافذ ، وهو الواهب والآخذ . نحمده على ما أولى ونشكره على ما أبلى . لقد أعطى ومنع ، وتكرم وأشبع ، فيه الامتنان وعليه التّكلان وإليه الإيمان . هو العظيم الجليل ، وأنا العبد الذليل الواقف بباب الرحمة وطالب من كرمه النعمة» .

وكان يوم الدفن يوماً مشهوداً ، مشت فيه البلاد كلها . ولما دُفن ولده وقف يتقبّل

التعازي، ثم عاد إلى منزله وأمر بإحضار الطعام، وأخذ يعظ الناس وقال : «أيها الناس ! لا فوْت من الموت، لكم عند الله من الخير ما تكنزون، ونحن وأنتم في قبضة المالك، وهو المنجّي برحمته من المهالك. فعليكم بقبول أوامره طاعة وصبراً، والإنابة إلى رحمته سراً وجهراً، وطوبى لمن قبل أوامر الله بالطاعة، وجعل مدة الحياة ساعة، وقيّد نفسه بقيد الوراعة، وجعل من حق الموت أمانة الرضى بتسليم الوداعة.

أيجوز أن يعترض العبد على ربه في ما أبدع، أو يغضب من قبضه ما أودع ؟ أو يعصي قوله، أو يظن أن حكم الله وقدَره لهما مردّ ومدفع ؟ . أيها الناظرون إليّ ! ! أتظنون أن صبري على فقد ولدي جهالة ؟ أم أنني نسيت فيه علمه وحزمه وأفضاله؟ كلا . ولكن الطاعة مطيّة من اتقى، والتسليم منارة من ارتقى. إن الله خلقكم وأسبغ عليكم من نعمه، وفرض الحق عليكم، ونهاكم عن الباطل، وحذركم من سخطه، فويل لمن عصاه. أنتم كسمكة خلقها الله بإرادته وأعطاها سبعة بحار تغوص فيها وتعوم وترزق. خلقكم من لا شيء وفضّلكم، ونقلكم من ضيق الدنيا إلى فسيح النعمة، أما ترضون بالرؤوف المليء شفقة ورحمة ؟ المانع الحاكم بالحق والنَّصَفَة. أتظنون أنكم إذا اعترضتم عليه في حكمه تبلغون هواكم، وإذا أهملتم طاعته تخلصون من بلائكم ؟ .

أيها الناس ! ! إنكم كطير مسجون في قفص الإرادة، يتحرك في طلب هوائه فلا يجد مطاراً ولا قراراً ولا زيادة. لقد بلغ العصر آخره، وحكم فيه خالقه وقادره، وعمّا قليل يظهر الجزاء، فيعرف العامل عمله بأوله وآخره، ولا يضيع مثقال ذرة بين يدي ناهيه وآمره. فيا فوز المتّقين ! !»[٤].

وفاته :

«كان الأمير السيّد، بعد وفاة ولده وبعض تلاميذه، أن اشتد شوقه إلى لقاء ربّه، فأخذ في شرح التوحيد وكشف ما خفي وعلُن. وقد كان عرّف تلاميذه المذاهب الفاسدة، وعلّمهم الأخلاق المحمودة. ولعله شعر بقرب أجله، فوقف

الأوقاف على المستحقين، وبذل ما يملكه على الفقراء والمساكين، وتأهب ليوم ربه كل التأهب الكامل في الورع والخير، وقال لتلاميذه: «إذا نقلني الله من دار الحياة، فلا تسمحوا لأحد أن يرفع لأجلي صوتاً ولا نوْحاً، بل اجتمعوا حولي واصبروا صبراً جميلاً، وأقرؤوا القرآن، وأكثروا من التهليل والتكبير، واذكروا مواعظي. ومن نقض هذه الوصية كانت نفسي منه بريّة».

ولبث الأمير السيد في فراشه على هيبته الجليلة وحسن الصورة، ووضع كفه تحت خدّه، إلى أن نفذ قضاء الله. فبادرت إليه الإخوان يقبلون يده، ويتذكرون أنعامه وفضله. وهتف هاتف: أيها الناس!! إعتصموا بحبل الله إله العالمين، واقتدوا بما رسمه لكم وعرّفكم من العلم واليقين، وعليكم بسيرته وكتبه معشر الموحدين التابعين والحافظين، فلم ينقله عنكم حتى أقام حجته عليكم وفيكم جماعة الطالبين.

وجاءت زوجته ـ أم الناس ـ وهي تقول: يا معلم الخير من أوصيت بي، وأنا لا والد لي ولا ولد؟ فقال الهاتف: لك الله الواحد الأحد الفرد الصمد. قالت: عليه توكلت، وإياه في مصابي أستعين، فأرجو حسن مآب، وهو نعم المعين.

وهبّ الناس ينادونه بلسان واحد: يا ميزان العدل وصاحب المحلّ الأعلى، ماتت الحقوق وجاءت المظالم، فمن بعدك يخلص المظلوم من الظالم؟.. وحملوه إلى نعشه حيث دفن. وما زال ضريحه ـ في عبيه ـ يزوره الناس تبّركاً ـ قدّس الله سرّه» (٥).

(من أقوال الأمير السيد) ـ قدّس الله سرّه ـ «دعاء»

«اللهمّ إني أصبحت عبدك وابن عبدك، معترفاً بألوهيتك، مقرّاً بإمامة وليّك وصحة توحيدك، وأن لا إله غيرك ولا معبود سواك، وبأخوّة فريق الهدى وأنهم الفرقة الناجية، وبالقضاء والقدر أنه عدلٌ جار منك، وبانتقالات النفوس أنها حكمة بالغة، وبعجز نفسي وعظم ذنبي. قاصداً بابك الكريم، متوجهاً إليك بالتوبة قدر الاستطاعة، طالباً منك المَعونة بجاه نبيّك ووليّك وصفيّك، معترفاً بجميل

لطفك وسترك وإحسانك، وعظيم فضلك وجودك وكرمك وامتنانك، وعطفك وعفوك وغفرانك. متوسلاً إليك بالسيّد الكريم، سيّد المرسلين، وآله الأعوان وحزبه الإخوان، بأن تغفر لنا ما مضى من الذنوب والعصيان، وتعصمنا في ما بقي من الأجيال والأزمان، وأن لا تؤاخذنا بسوء نياتنا، وان تسمح لنا بما سلف من ذنوبنا، وأن تثّبتنا على عبادتك وتوحيدك بجاه نبيّك وحدودك، وأن تزيدنا توحيداً وتقديساً من تقديسك، بجاه الأمة التي أخلصت لنفسك بتجريدك. وأن ترزقنا الرزق الحلال وسترة الحال، وتوفقنا لصالح الأعمال، وتلحقنا بالأطهار والأبدال، وتدفع عنا شرّ أهل الضلال، وتختم لنا خاتمة خير في كل حال، إنك أنت العلي المتعال. أجب دعاي مولاي، والحمد لمولانا على كل حال»(٦).

المراجع :

(١)ـ يزبك. المرجع السابق ص ٦٢ .

(٢)ـ المرجع نفسه ص ٨٠ .

(٣)ـ المرجع نفسه ص ٧٦ .

(٤) المرجع السابق نفسه ص ٨٤ . و د. صالح زهر الدين (تاريخ المسلمين الموحدين «الدروز»). ص ٤٥

(٥) المرجع السابق : وليّ من لبنان. ص ٨٨ـ٩١ .

(٦) يزبك : المرجع السابق ص ٩٨ـ٩٩ .

الشيخ حسين ماضي والجزّار *

الشيخ حسين ماضي (شيخ عقل الدروز، في حينه) من العباديّة، كان له الدور المهمّ والمؤثر في عملية عزل الأمير يوسف الشهابي والإتيان بالامير بشير الثاني حاكماً على الجبل. وفي مقال بعنوان: «علم تاريخيّ من أعلام الدروز واجه الجزّار بجرأة أوقفت بطشه». أشار الشيخ «صالح عبد الخالق» كاتب المقال - إلى هذه العملية مؤكداً دور الشيخ حسين فيها، قال:

«لا يخفى على أحد أن الدور الأول في تولية الحكام وعزلهم كان الزعماء «الدروز» فيه الحد الفاصل، فاتفق هؤلاء الزعماء يوماً على اجتماع يعقدونه، واختاروا مكاناً له «نبع الصفا» ليسهل وصول الشيخ حسين ماضي إليه. والغاية من ذلك الإجتماع تعريف «أحمد باشا الجزار»، والي عكا، بما تنطوي عليه أعمال الأمير «يوسف الشهابي» من سوء تصرّف في البلاد عامة.

أرسل الزعماء رسولاً إلى المرحوم الشيخ «حسين ماضي» لحضور الاجتماع فلبّى الشيخ الطلب، إلا أنه وصل متأخراً لسبب «ما» فاستماحهم عذراً مقبولاً، فقال له الزعماء: لقد طال الوقت وتأخرتم حضرتكم، فلقد اتفقنا جميعاً على أن نرفع «عريضة» إلى والي عكا لنعرّفه سوء تصرف الأمير «يوسف» وأخطاءه، وأنه لا يصلح للحكم في البلاد، وهذه هي «العريضة» وقد وقّعناها كلنا وتركنا لحضرتكم المقام الأول للتوقيع، إلا أننا تداولنا في مَنْ يأخذها للجزّار.

وكانت ميزة ذلك السفّاح أنه في أكثر الأوقات يفاجئ من يدخل عليه بالسؤال الآتي: هل أنا عادل أم ظالم؟ فإن أجابه المخاطب أنت عادل قتله، وإن أجابه أنت ظالم قتله أيضاً.

---

* د. صالح زهر الدين: (تاريخ المسلمين الموحدين «الدروز»). المركز العربي للأبحاث والتوثيق. بيروت. طبعة أولى ١٩٩١. ص ١٧١-١٧٣. وكذلك، مجلة «الأنباء» (الناطقة بلسان الحزب التقدمي الاشتراكي) العدد ١٣١٣. الاثنين ١٦ حزيران ١٩٨٠، ص ١٤.

فعندها أطرق الشيخ قليلاً، ورفع رأسه وأخذ العريضة ووقّعها وقال : إن شاء الله تعالى لن أقبل أن يأخذها إلى «عكا» أحد غيري. فأجابه الزعماء : لا نقبل أن تضحيّ بشخصكم الكريم الفاضل أمام هذا السفّاح، فأجابهم الشيخ بكل سكينة وتواضع، لقد قررت أن أذهب بنفسي، فالروح عاجز أن يمسّها بأذى، والجسم يفعل به ما يشاء.

وهكذا شاءت الأقدار، فسار ذلك الشيخ على بركة الله إلى أن وصل مدينة عكّا وطرق باب الجزار فأذن له بالدخول. دخل وسلّم ولم يكن يعرفه من قبل، ورفع «العريضة» إليه، ولم يظهر الجزار ما في نفسه، بعد أن قرأ مضمونها، لأنه كان يميل إلى الأمير «يوسف»، إنما بادره بالسؤال قائلاً :

- يا شيخنا، هل أنا عادل أم ظالم ؟ فأجابه الشيخ بكل جرأة وإقدام : لا أنت عادل ولا ظالم، إنما من قبَل الأعمال تأتي المصائب، فأكثر هذا الشعب قد أهمل واجباته الدينيّة فسلّط اللهَ عليه حاكماً مثلك، وما أنت بين يديه تعالى يوم الحساب إلا عبد ضعيف.

فعندما أدرك الجزار ما للشيخ من قوة في اليقين وجرأة على الحكام مهما تجبّروا، وقف بخشوع واحترام وقال : أهلاً وسهلاً بالجليل الطاهر، فإنني سأنفذّ كل ما تطلبونه مني. وطلب من الشيخ أن يتريّث قليلاً، وأمر بعض حاشيته فإذا به يأتيه بكيس مليء بالنقود الذهبية، ورفعه إلى الشيخ قائلاً : هذا لحضرتكم تصرّفوا به كما تشاؤون. فأجابه الشيخ بكل جرأة : أنا لن آكل إلا من أتعابي. فقال له الجزار : أنفقه في سبيل الخير. فأجابه : إن الدولة بحاجة إلى هذه النقود وهي أحق بها. فعندها أمر الجزار له بجبّة من الصوف، فقال له الشيخ : أنا لا ألبس إلا من نسج يدي. فزادت دهشته في ذلك الجليل الوقور، وقال له : يا شيخي، أتقبل مني هذه الهديّة الأخيرة ؟ وقدّم له مصحف القرآن الكريم، فأجابه : بكل اعتزاز، نعم أقبلها فهذا كتاب الله العزيز.

وكانت مقابلة الشيخ للجزار هي السبب الأكبر لعزل الأمير «يوسف الشهابي» وتولية الأمير «بشير عمر الشهابي». وعاد الشيخ منفّذاً تلك المهمة الشاقّة غير آبه

بالحكام الظالمين، لا تأخذه في الحق لومة لائم، موفور الكرامة، ثابت اليقين، والله يؤيد بنصره من يشاء».

ويعتبر الشيخ حسين ماضي من المراجع الروحية الكبرى لدى الطائفة الدرزية ويحتلّ المكانة المرموقة عند العقال الدروز»[1].

المرجع :

(١) د. زهر الدين، المرجع السابق، ص ١٧١ ١٧٣ .

حقائق لا أساطير *

«عمائمنا في أفواه المدافع»

كيف سدّ الشيخ أبو علي الحنّاوي المدفع بعمامته ؟

عندما خرج بنو معروف من حروبهم مع ابراهيم باشا المصري منتصرين ظافرين، لم تأخذهم نشوة النصر، ولا سيما في (جبل حوران) مركز تجمعهم الجديد، الذي كانوا قد بدأوا يتوافدون إليه من أنحاء شتى : حلب، لبنان، وادي التيم، وشمالي فلسطين، بل استفادوا من انتصارهم الباهر والتاريخي بأن شرعوا يعززون كيانهم السياسي في معقلهم الجديد، ويمارسون عناصر السيادة المحلية الحقيقية، مما كان عاملاً على تعزيز الهجرة إلى هذا المعقل، وتضاعف عدد بني معروف فيه.

وتصادف أن ظهرت للدروز في جبل حوران، وهم في غمرة انتصارهم هذا، زعامة جديدة قوية تولاها المرحوم (أبو محمد اسماعيل الأطرش)، مؤسس أسرة آل الأطرش المعاصرة والجدّ الثاني لعدد كبير من أفرادها في يومنا هذا.

وإلى جانب اسماعيل الأطرش، ظهرت مجموعة من القادة الحربيّين والسياسيين، كان لرجالها الأفذاذ الفضل في تثبيت دعائم الوجود الدرزي في جبل حوران، ثم في سوريا بصورة عامة، منهم : هزيمة هنيدي ومحمد أبو عساف (الملقب بالقميْزي) والشيخ أبو علي الحنّاوي، الذي كان أبرز رجال هذه المجموعة، وشاعرهم وقائدهم في عصره الذي نتحدث عنه.

ولعل من أسباب علوّ شأن الشيخ هذا، ارتباطه مع الشيخ اسماعيل الأطرش بالمصاهرة. إذ أن الشيخ اسماعيل عندما انتقل من المقرن الجنوبي في جبل حوران

---

*نقلاً عن مجلة «الضحى». كانون الثاني ١٩٦٥ . تصدر عن دار الطائفة الدرزية. (نسخة مصورّة) دون ذكر الصفحة.

متجهاً نحو السويداء بقصد بسط نفوذه على الجبل بأكمله، تزوج بشقيقة الشيخ الحناوي، من بلدة «السهوة»، فأنجبت منه مؤسسي بيوت الأطارشة في «عرى» و «السويداء» و «رساس» ثم «ذبين».

وكان الشيخ أبو علي الحنّاوي، بالإضافة إلى ما عرف عنه من الشجاعة الخارقة، والتمرّس في فنون القيادة الحربية، كان من رجال الدين الأتقياء، كما كان شاعراً مشهوراً في عصره. وبعد جلاء الفاتح المصري عن سورية في عام ١٨٣٩، عاد الأمر فاستقرّ فيها للسلطان العثماني من جديد. وكانت حملة ابراهيم باشا هذه قد نبهت العثمانيين إلى ما أخذ يعتري سلطنتهم الكبيرة المترامية الأطراف من عوامل الضعف والانحلال، فراحوا يسعون لتدارك ذلك بتشديد الوطأة على الشعوب المحكومة، لا سيما في البلاد العربية.

وبين غمرة الدروز في انتصاراتهم في حروب ابراهيم باشا، ومحاولة العثمانيين لفرض هيمنتهم وهيبتهم بالقوة والشدة، حصل تقارب وتناقض، لم يمكن تلافيه، فأدى إلى نشوب أول حرب بين الدروز والعثمانيين في سورية سنة ١٨٥٤، عرفت بحرب (حسين باشا)، وهو الوالي العثماني الذي قاد الحملة العسكرية ضد الدروز آنئذ. إلا أن هذه الحرب لم يطل أَمَدُها، إذ تداركها القائد التركي المذكور بالحكمة والرويّة، نظراً لما شهده من شجاعة الدروز، وما يتحلون به من الفضائل. فسعى لدى الباب العالي لعقد صلح معهم، وأبقاهم على ما كانوا يتمتعون به من الاستقلال الذاتيّ، والامتيازات الدينية والسياسية.

وفي تلك الحرب، التي كان من أشهر فرسانها الشيخ أبو علي الحنّاوي، حصلت الحادثة الطريفة النادرة التي ما زال الرواة يتناقلونها دون معرفة حقيقتها، أو نسبتها إلى صاحبها الأصيل: وهي أن أحد فرسان الدروز سدّ المدفع بعمامته. هذا الفارس كان الشيخ «أبا علي قسّام الحنّاوي»، الذي تصادف أن زار لبنان في سنة ١٨٦٢، فنزل ضيفاً في قصر المختارة، على الزعيم الكبير سعيد باشا جنبلاط. كما تنقّل في مختلف أنحاء الشوف وقضاء عاليه، يعقد الندوات مع وجوه الطائفة وأعيانها، ويشترك في الندوات الدينية مع إخوانه رجال الدين المعاصرين.

وفي إحدى تلك الندوات، ألحّ الحاضرون على الشيخ الحناوي كي يروي لهم كيف سدّ المدفع بعمامته . . . فحاول التهرب من رواية هذا الحادث الفريد في بداية الأمر، إلا أنه لم يجد مفراً من الاستجابة لرغبة إخوانه الملحّة. فروى لهم الحادث على النحو التالي: «عندما طلعت علينا الحملة العسكرية، وتقابلنا، وثار الطّوب (أي المدفع) جمحت بي الفرس فعرقلت في عجلة المدفع. وعندها، وقد أصبحت على موازاة فوهة المدفع، خلعت عمامتي عن رأسي وحشوت بها فوهة المدفع. وتمكنت بعدها من تخليص الفرس، وقدتها إلى حيث مواقع القتال . . . (ولم يشأ بعد ذلك أن يتمّ رواية مغامراته في تلك المعركة، تواضعاً منه، لأنه كان يعتبر ذلك من باب الغرور ومديح النفس).

(هذه الحادثة هي غيض من فيض عن شجاعة بني معروف واستبسالهم في المعارك والحروب. ومأثرة فريدة من مآثرهم الجمّة، وفضائلهم العديدة).

بين الأمير والشيخ

(جرت وقائع هذه الحادثة بين الأمير يوسف الشهابي، حاكم الشوف في عهد الأمراء الشهابيين، وكان مركزه في دير القمر، وبين الشيخ «أبو زين الدين يوسف أبو شقرا» من عماطور-الشوف، والذي كان معاصراً للأمير يوسف. وكان شيخ المشايخ في عصره، وهذا اللقب هو بمثابة شيخ عقل، إذ أن هذه الزعامة الروحية كان يتقلدها من اتّصف بالورع والتقوى واشتهر بهما).

أما الوقائع فهي: «كان الأمير يوسف الشهابي شديد الانحراف على الدروز، ففرض عليهم الكثير من الضرائب. وكان ألأمَّها ضريبة «الشاشيّة»، أي الضريبة على العمائم. فاعترض المشايخ الدروز على هذه البْدعة، ولم يُعره اعتراضهم اهتماماً، فذهب الشيخ أبو زين الدين يوسف ابو شقرا إلى مقره في دير القمر-بتفويض من المشايخ-وحاول اعتراضه وحمْله على إلغاء هذه الضريبة، فلم يفلح. واحتدم الجدال بينهما، فقال له الأمير: «البلاد لا تتسع ليوسفين». أجابه الشيخ «المزروك يرحل»، وخرج غاضباً. التقى بالشيخ سعد الخوري، فلامه هذا على إغضاب الأمير وقال له: إنه سيحمي فرن الدير بشاشات العقال، فانتهره الشيخ ابو زين الدين مهدداً وموبّخاً، وذهب إلى بعقلين.

لم يَنَمْ الشيخ إلا بعد أن كتب إلى وجوه البلاد الكتاب التالي:

«إخواننا أبناء الطاعة.. يقتضى حضوركم في النهار الفلاني إلى مرج بعقلين بالأسلحة الكاملة والمؤن والذخائر الوافرة لأمر يحبه الله».

وفي اليوم الموعود، كان راكبا بغلته وسائراً نحو دير القمر وهو ينشد: «عالمصطفى زيدو الصّلا» ووراءه سبعة آلاف مقاتل يرددون أناشيده الدينية فترتجّ منها أودية الشوف. وقع الرعب في قلب الأمير وحاشيته واستعدّ للهرب، فأمسكه شيوخ آل نكد أصحاب دير القمر، ودخلوا في الصلح. فاضطر الأمير لإلغاء تلك الضريبة التي ابتدعها وضرائب أخرى.

وبعد هذا الحادث راق جوّ العلاقة بين الأمير والشيخ وكثرت الاجتماعات بصفاء من قبل الشيخ، ودَغَل من قبل الأمير. إلى أن حان الوقت الذي رآه الأمير مناسبا، فأمر بأن يدسّ له السم وهو على مائدته ـ مائدة الأمير ـ فمات الشيخ يوسف ومرافقه الشيخ خطار نجم أبو شقرا، وكان ذلك سنة ١٧٨٥ م»*.

(ومن المعلوم أن الأمير يوسف الشهابي أعدم على يد أحمد باشا الجزار في عكا، فنال جزاء تعسّفه وغدره، وصحّ فيه القول المأثور: «ولا ظالم إلا سيبلى بأظلم»).

---

* محمد خليل الباشا: «معجم أعلام الدروز». مرجع سابق. ص ٤٢و٤٣.

أيضاً: د. صالح زهر الدين (تاريخ المسلمين الموحدين «الدروز»). ص ١٦٩-١٧٠.

شيخ العقل وأبو سليمان جرجس سالم*

يروى أن في مقدمة النازحين المسيحيين إلى الشوفين، أبو سليمان جرجس سالم وأخوه «لطيْف»، وهما الجدّان الأولان لعائلتي «سالم» و«لطيْف» المعروفتين. لقد قدما من ناحية الفرزل ـ البقاع ـ إلى عماطور ـ الشوف ـ، ثم انتقل «لطيْف» إلى قرية بعذران. ولعل الانفصال من حيث اسم العائلة قد سببّته مقتضيات الحزبية والغرضيّة آنذاك، فقد مال «لطيْف» إلى آل عبد الصمد، بينما انحاز «جرجس» إلى آل أبي شقرا.

في تلك الأثناء، أحيلت رئاسة الدروز الدينية (مشيخة العقل) إلى الشيخ ناصيف أبو شقرا. ولم يكن منصب الرئاسة في ذلك الوقت قد أُخضع للأهواء الإقطاعية، فقسم إلى منصبين، بل كانت الرئاسة واحدة لجميع الدروز، في لبنان وغير لبنان من أنحاء برّ الشام.

بعد أن استقرّ المقام بأبي سليمان جرجس سالم في عماطور، ابتنى بيتاً ودكاناً للحدادة، واقتنى مهرة. ولما لم يكن له أملاك زراعية، كان مضطراً أن يأتي بعلف مهرته من العشب الذي يجمعه من الحقول في جوار القرية.

ذات يوم ذهب ابنه إلى بعض الحقول ليأتي بالعشب عشاء للمهرة، فبصر به الناطور، وكان شقراوياً من أقرباء الشيخ ناصيف، فاعترضه ومنعه من جمع العشب، ولم يكتف بذلك بل زاد فصادر منجله، علامة على أن الغلام تطاول فأخذ ما لا حقّ له بهَ، ثم هدده بألاّ يدخل الحقول بعد ذلك. رجع الغلام بخفيّ حنيْن وأخبر أباه بما حصل. في المساء أشار أبو سليمان إلى ابنه أن يأخذ مخلاة المهرة ويمضي إلى بيت الشيخ ناصيف ليأتي لها بالعلف من بيت الشيخ. وصل الغلام وطلب عشاء المهرة، وعلم الشيخ بالأمر، فطيّب خاطره وأشار بأن تملأ المخلاة شعيراً وتبناً.

وفعل ذلك في اليوم الثاني والثالث، ولحظ الشيخ أن في الأمر سراً، على مثل

اليقين بأن أبا سليمان لا يمكن أن يفعل ما يفعل طمعاً وتوفيراً، وتأكد له أن لا بد له من شأن في ذلك :

تلك الليلة بعث الشيخ فاستدعى الناطور واسترد المنجل منه . . . .

وعالنه بالغضب، ونوى أن يجازيه على فعلته، فأشار إليه أن لا يبقى في عماطور وأن يرتحل إلى بلدة غيرها. فانتقل الناطور إلى قرية «عين الشعرة» من إقليم البلاّن، ولم يرجع إلا بعد أن أذن له الشيخ بالرجوع. ويقال أن غيابه زاد على سنة.

---

*عارف ابو شقرا : مجلة «أوراق لبنانية» لصاحبها يوسف ابراهيم يزبك. المجلد الأول. الجزء الثالث آذار ١٩٥٥. دار الرائد اللبناني. ص ١٣١-١٣٢.

من مآثر السلف الصالح

ما أحوجنا نحن اليوم أن نتذكر ما كان لأجدادنا من مآثر تنمّ عن روح سامية وقلب طاهر، وقد أصبحنا في زمن طغت فيه الرذيلة واستشرى الفساد. والشباب ملزمون، أكثر من أي وقت مضى، بالسير على طريق السلف الصالح، والتحلّي بالفضائل، والتمسك بالتقاليد العربية الأصيلة، ونحن في عصر تغلّبت فيه القيم المادية على القيم الروحية والأخلاقية.

والحادثة التالية، وقد سمعتها، ورواها لي، أحد الشيوخ المسنّين، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على سموّ الخلق وطيب السريرة :

كان في بلدة «المعاصر» إحدى قرى الشوف، شيخ جليل القدر (لم يَذْكُر إسمه)، إشتهر بالعفة والطهارة والورع، وكان له شاب عالي الهمة، كريم الخلق. ولكن طيش الشباب وغروره لهما مكان في نفسه. بينما كان الشيخ المذكور وولده يتفقدان أرزاقهما، وجدا راعيا - مسيحياً - يرعى قطيعه من الماعز في أملاكهما. فما كان من الشاب - ابن الشيخ - إلا أن اتّجه نحوه يمنعه عن رعي القطيع. وتحول الجدال فيما بينهما إلى عراك، وشاء القدر أن يضرب الراعيَ ضربة من عصاه على رأسه أودت بحياته.

تقدم أهل القتيل بدعوى يطلبون فيها محاكمة القاتل وإعدامه، ولم ينزلوا عند رغبة المصلحين الذين تدخلوا لحلّ هذه القضية ومصالحتهم. وأثناء المحاكمة طلب القاضي من المدّعين تقديم شهود يثبتون صحة إدعائهم. لقد كان هؤلاء يعلمون جيداً أنه لم يكن هناك من شاهد سوى والد القاتل، ومع هذا فقد طلبوا شهادة الشيخ، وقالوا للقاضي: نحن نرضى بشهادة والده، لأنه لم يكن أحد غيرهما موجوداً ساعة وقوع الحادث.

تعجب القاضي - وكذلك الحاضرون -، فهل يُعقل أن يشهد والد على ولده بجريمة قتل قد تجرّه إلى الإعدام ؟ ولكنه لم يسعه إلا الرضوخ للأمر الواقع، وفي

قرارة نفسه أنهم قد خسروا دعواهم سلفاً، أو أنهم قد خففوا عن القاتل الحكم الذي يستحقه.

أرسل القاضي في طلب الشيخ كي يؤدي شهادته - وهو لم يكن يعلم من أمره شيئاً -. وفي الموعد المقرر للجلسة حضر الشيخ. طلب منه القاضي - وفقا للعرف والقانون - أن يقسم اليمين قبل أداء شهادته. قال الشيخ للقاضي: إن الدين يحظّر علينا أن نحلف بالله - حتى ولو كان ما نقوله صدقاً - لذلك فإنني اعتذر عن القسَم، ولكن أعدك بأن أقول الحقيقة كما هي.

بُهت القاضي لهذا القول، وتهيّب طلعة الشيخ البهيّة الوقورة ونظراته الصادقة البريئة، وكلامه الذي سمعه منه، ثم سأله: يقول أهل القتيل أن ولدك قتل ولدهم، وكان ذلك بحضورك أنت، فماذا تقول؟

أجاب الشيخ، بكل تواضع ورصانة: تقول الآية الكريمة «فإذا جاء أجَلُهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون» وإن لكل منيّة سبباً. وعندما حان أجل القتيل، ودنت ساعته نفذ المقدّر، وضرب ولدي بعصاه ضربة على رأس خصمه، فكانت مشيئة الله أن تكون الضربة قاضية، فابني ضرب والله قتل.

لقد اعترف الشيخ - ضمناً - بجريمة ولده، إذ أنه لم يسعه إلا قول الحقيقة كما وعد. تعجب القاضي والحاضرون من شهادته الصريحة، وزاد في أعينهم نظرة الاحترام له والتقدير لجرأته وصدقه. إلتفت القاضي إلى أهل القتيل وقال لقد سمعتم وسمعنا ما قاله الشاهد - والد القاتل - ولقد اعترف بجريمة ابنه اعترافاً صريحاً، فماذا تطلبون؟ قالوا: لقد وصلنا حقنا، وإننا نسقط دعوانا إكراماً للشيخ الجليل الصادق.

وهكذا كان، حيث تصالح الفريقان في قاعة المحكمة. وصدق قول الشاعر:

«الصدق في أقوالنا أقوى لنا   والكذب في أفعالنا أفعى لنا».

الشهامة زينة الرجال

قال أحد الشعراء:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة بلغت من العلياء أوج مكان

وما زال قول الحكيم اليوناني الشهير «أرسطو» مضرب المثل، إذ يقول: «خير الامور الوسط» ويعني بهذا من جملة ما يعنيه أن الشجاعة وسط بين التهور والجبن، كما ان الكرم وسط بين البخل والإسراف. . .

هذان القولان ينطبقان على بَطلَيْ قصتنا هذه التي يرويها الخلف عن السلف عنيْت بهما: الشابان «سعيد محمد ضو» و «حمد محسن العياش» الأول من بلدة بشتفين - قضاء الشوف، والثاني من بلدة بعورته - قضاء عاليه - لبنان.

أما القصة فهي التالية: [1]

«اشتهر حمد محسن العياش بالشجاعة والإقدام والبطش، وهو من بعورته، لكنه كان يقضي أكثر ايامه في عبيه. . . وعلى الجانب الآخر من الجبل - في بشتفين من مقاطعة المناصف- إشتهر رجل آخر بالقوة والشجاعة، وهو سعيد محمد ضو. وقد ذاع صيته بسرعة عندما استأجر دكان «جسر القاضي»[2] من آل حمدان وفتح فيه متجراً وردّ عنه قطاع الطرق واللصوص والأشقياء الذين كانوا يعيثون فساداً في تلك المنطقة قبل أن ينزل فيها سعيد.

في أحد الأيام نزل سعيد محمد ضو إلى بيروت، لشراء البضائع اللازمة لدكانه، فاشتراها باكراً وعاد إلى «خان محمود أحمد» لاستئجار الدواب اللازمة لنقلها إلى جسر القاضي. وكان هذا الخان محط رحال رجال الغرب وغيرهم من الجبليين، ينزلون فيه ويربطون دوابهم، ويتجمعون عند الرحيل من بيروت

فيخرجون منه قوافل وسرب - والخان كان حيث هي سينما روكسي بمنطقة ساحة الشهداء- .

وصدف في اليوم الذي نزل فيه سعيد ضو إلى بيروت كان فيها ايضاً حمد العياش، وهذا ايضاً ربط فرسه في «خان محمود أحمد». ولسبب لم يعد أحد يذكره حصل احتكاك بين الرجلين مما أثارهما، فهجم كل واحد منهما على الآخر، لكن الموجودين في الخان دخلوا بينهما، ولم يتمكن أحد منهما من الوصول إلى الآخر بضربة أو بلطمة.

تفرقت القوافل في كل الاتجاهات. وعظم الأمر على حمد عياش، فقد كان أكبر سناً وأبعد صيتاً من سعيد ضو. فكيف يجسر هذا الفتى على تحدّيه والوقوف في وجهه؟

لكز فرسه فأسرعت به إلى بلدته بعورته، فلما بلغها تقلّد سلاحه واتجه إلى «قبرشمون» حيث سيمر سعيد في طريقه من بيروت إلى جسر القاضي، ومن هناك مشى نحو «عيتات» فوجد مكمناً مناسباً، فقبع خلف صخرة ينتظر مرور سعيد. ولم يمض وقت طويل حتى سمع وقع حوافر دواب، فاستعدّ.

في الطريق، لدى مغادرة سعيد ضو بيروت لم يتكلم أحد من «المكارين» عن حادثة الخان، وهذا يتمشى تماماً مع عادة شائعة في القرى، وفيها الكثير من الحكمة. فعند وقوع حادث ما يتركون الكلام عنه حتى تخفّ الحدّة من النفوس وترتاح الأعصاب من التوترّ. وعندما انتهى المكارون من صعود درج «عيناب» وساروا في السهل باتجاه «قبرشمون» لم يعد هناك بأس من الكلام عن الحادثة - وكان من غريب المصادفات أن القافلة وصلت إلى حيث أصبح حمد عياش يسمع أصوات رجالها. فقال أحدهم لسعيد: «أنت ياسعيد جمرة المناصف، فكيف أفلتّ من يديك حمد العياش؟

وسمع حمد هذا الكلام، حيث أن الأصوات في الليل تذهب بعيداً. وثار فضوله متلهفاً لسماع جواب سعيد.

وتكلم سعيد، فقال: «كان الأجدر أن تسألوني كيف أفلتّ انا من يدي حمد العياش. والله لست أنا من أنداده فهو سيد الرجال، وأنا لا أصلح ان اكون خادماً له».

وما أن اكمل سعيد كلامه - وقد سمعه حمد - حتى قفز هذا الى وسط الطريق، وصاح قائلاً: إسمع يا سعيد. أنا حمد العياش، وقد جئت إلى هنا لألتقيك وأقتلك. لكنني سمعت كلامك وأدركت علوّ شمائلك، وشهامتك. إن الذي يقرّ لخصمه كما أقررت أنت إنما هو زينة الرجال وقدوة الأبطال. والذي قلتَه عني يليق بك، وأنا يجب أن أكون خادماً عندك».

ورمى حمد سلاحه ونزل سعيد عن دابته وتعانقا، متعاهديْن على أن يكونا طوال حياتهما، لا كصديقين فحسب، بل أخوين محبيْن مخلصيْن لبعضهما».

المراجع :

١ - محمود صعب: قصص ومشاهد من جبل لبنان. مرجع سبق ذكره. ص (١٦٤-١٦٦) - بتصرّف.

٢ - «جسر القاضي» وهو جسر يصل المناصف بالشحّار. أول من بناه هو قاضي «عين كسور» الأمير زين الدين التنوخي. ويحكى أن الذي دفعه لبنائه هو أنه بينما كان يشرف على بناء طاحون على النهر شاهد امرأة تعبر النهر، وقد رفعت ذيل ثوبها فبانت قدماها. فأوقف بناء الطاحون وانصرف إلى بناء الجسر، وسمي باسمه «جسر القاضي».

تعايش الدروز والمسيحيين *

«هذه القصة الواقعية بأسماء أبطالها المعروفين، تؤكد القول عن أن اللبنانيين يتعايشون إخوة بررة، لا تفرقهم فارقة المذهب الديني. وإنما كانوا ذوي أغراض حزبية، يجمع الغرض الواحد مسيحياً ومسلماً في جبهة واحدة، ضد مسيحي ودرزي ومسلم من أصحاب الغرض الآخر. والقصة التالية تؤكد هذا التعايش الدرزي المسيحي سابقاً :

كان الشيخ زين الدين أبو اسماعيل من قرية دير بابا، رجلاً كامل الصفات الخلقية، وكان وكيلاً لأملاك الشيخ سليم أبو نكد. وكان لخليل متري المعلوف، من قرية كفرقطرة، أملاك وأرزاق مجاورة، فتوثقت بينه وبين الشيخ زين الدين عرى الصداقة حتى تآخيا . . . إلى أن وقعت حوادث ١٨٦٠ المشؤومة.

كان المعلوف قد بنى لنفسه بحسن سيرته، وجاهة في بلدته والقرى المجاورة، وكان المشايخ آل نكد - وأخصّهم ناصيف بك وبشير بك - الإقطاعيين المسيطرين على منطقة المناصف، أوعز بعضهم إلى الدولة العثمانية بأن اجتماعات سرّية تعقد بين خليل متري والمطران البستاني في بيت الدين، للمطالبة بحماية فرنسا للبنان. طلب بشير بك من رجاله أن يأتوه برأس خليل متري، مهما كلف الأمر. وكان خليل قد اختبأ في منزل «حبيب الشاويش» في دير القمر.

وقعت الحوادث المشؤومة، ولم يعثر بشير بك على مخبأ المعلوف. وأخيراً وصل إليه أنه مختبئ في دير القمر، كما علم بهذا الخبر أيضاً الشيخ زين الدين، فانسلّ هذا الأخير عند منتصف الليل إلى دير القمر، وقرع باب المنزل الذي يختبئ فيه صديقه. لم يجرؤ خليل على فتح الباب، فناداه باسمه معلناً عن نفسه ورغبته في إنقاذه. ولكن خليلاً ظن أنها حيلة سيما وأن الشيخ زين الدين هو وكيل بشير بك نفسه. فأقسم له الشيخ بأنه باق على صداقته، ويريد إنقاذه.

---

* يوسف ابراهيم يزبك : «أوراق لبنانية». مرجع سابق. المجلد الأول. الجزء الثامن. آب ١٩٥٥ . ص ٣٥٤-٣٥٥

وكان أن خرج الإثنان من دير القمر وسارا باتجاه بلدة كفرحيم - موطن بشيربك، فارتاب خليل المعلوف. لكن رفيقه أخذه إلى بيته في مزرعة «بَقْعون» ثم هرب به إلى صيدا، بعد ملاحقة رجال بشير بك لهما. وفي الطريق حصل اشتباك بين الرجلين ورجال البك، وتمكنا من الإفلات والاختباء في مكان أمين في صيدا.

عاد الشيخ زين الدين إلى بيت خليل في كفرقطرة، وطمأن زوجته، وحمل لها ولأولادها المآكل والملبوسات، وقد كانوا في أشد الحاجة إليها، بعد أن حرق بيتهم. وبقي خليل متخفياً في صيدا إلى أن بلغه خبر نزول الحملة الفرنسية في بيروت، فقابل قائدها وقصّ عليه قصته. ربّت القائد على كتفه وطمأنه وسلمه إجازة بحمل السلاح، ثم توسط له لدى الدولة العثمانية، فدفعت تعويضاً عن مسلوبات بيته.

وبعدها، توثقت عرى الصداقة بينه وبين أخصام الأمس، من المشايخ النكديين، خصوصاً بشير بك. حتى أن هذا اتخذ أسعد بن خليل المعلوف كاتباً خاصاً له. وانتقلت روابط الصداقة والأخوة من السلف إلى الخلف. وكان أولاد متري المعلوف يعتبرون أنفسهم أبناء عمومة لأولاد الشيخ زين الدين أبو اسماعيل، ويتقاسمون الأفراح والأتراح، ويتبادلون الزيارات بصورة دائمة.

فنعم العمل الأخوي، وهل يعتبر أصحاب النفوس المريضة والأفكار الهدامة التي تطغى على فئة من المسيحيين في يومنا هذا ؟؟ (القول للمؤلف يوسف ابراهيم يزبك)».

الوفاء *

«كان الشيخ علي جنبلاط - إبن أخ الشيخ بشير الكبير - عاقلاً وشجاعاً من الطراز الأول. وكان سيفَ عمه في الملمّات. وله في معركة «المزّة» في دمشق سنة ١٨٨٢م(؟) حكايات في البطولة كثيرة. وظهرت منه شجاعة وافرة وإقدام زائد. أما عقله فكان دليلاً على حكمته، حيث أن عمه الشيخ بشير جنبلاط، صار في أيامه الأخيرة يعتمد عليه في كثير من شؤونه.

ولما حلّ الأمير بشير الشهابي الثاني حاكماً في بيت الدين، وكان بينه وبين الشيخ بشير خلافات كثيرة، حيث توسّط مشايخ العقال للصلح بينهما، وأن يرجع الشيخ معاوناً للأمير كما كان، أجابهم الأمير إلى طلبهم، ولكنه طلب دفع ألف ألف قرش، فارتضى الشيخ ودفع نصف المبلغ. ولكن الأمير طالبه بالنصف الثاني فالتمس منه إعفاءه فلم يجبه إلى طلبه والتماسه.

ونزح الشيخ بشير إلى «جباع» وبقي فيها نحو ثلاثة أشهر، ثم رحل بعدها إلى راشيا، وبقي ابن أخيه - الشيخ علي - مكانه على المقاطعات، مأموراً من الأمير، برأي عمه.

وفي معركة بيت الدين - السمقانية، بين جماعة الأمير بشير والشيخ بشير، أصيب الشيخ علي بجرح بليغ فلجأ إلى مغارة، وكان يرافقه مدبّره «غنطوس القهوجي» الذي كان مؤمّناً على أملاكه وأرزاقه وأعماله. فكان هذا ينتظر حلول الليل، ويخرج من المغارة قاصداً القرية، فيأتي بالطعام والعلاج لسيده. وبعد أيام توفي الشيخ عليّ في المختارة.

ومضت الأيام، واستقلّ الشهابيّ بالحكم، بعد أن نكّل بمنافسيه وأعوانهم تنكيلاً رهيباً، وقضى عليهم واحداً بعد الآخر . . . فرأى غنطوس القهوجي أن

* يوسف ابراهيم يزبك: «أوراق لبنانية». مرجع سابق. الجزء السابع تموز ١٩٥٥.

يطلب الصفح من الأمير بواسطة شيخ كريم من النكديين، فعفا عنه الأمير. ولما مثُل بين يديه، قال له هذا متهكّماً: كيف حال سيدك «بو حسين»، وهو لقب الشيخ علي. فبكى الرجل الوفيّ متأثراً، وقال للشامت الرهيب: «لو كان بو حسين بعدو طيّب ما كنت شفتني هون».

قال الراوي: وأعجب الحاكم الشهابي بوفاء ابن القهوجي، فوظّفه عنده»[1].

(١) من المرجع نفسه ص ٣٢٠

وصية شيخ *

«قلنا لرجل تقدمت به السنّ : هل كتبت وصيّتك ؟؟

قال : أيجوز للمؤمن أن يبيت ليلته إلا ووصيّته تحت وسادته ؟ لقد أوصيت وأنا في شرخ الشباب، في الحادية والعشرين، فكيف بي وقد خنقت الثمانين وأشرفت على التسعين ؟.

قلنا : وكيف أوصيت ؟ إننا لا نسألك بما أوصيت من مال، فهذا شأنك، ولكن نريد أن نعرف ما يتعلق بالمراسم الإجتماعية والدينّية وملابساتها، فلعله يكون بذلك أسوة لنا.

قال : هذا شيء خاص ارتضيته لنفسي، وما أحسبكم تطيقونه.

قلنا : هات ونحن نسمع ونرى.

قال : رأيت الناس تزعجهم هذه المناحات وأكثرها لا موجب له. يُنعى بشخص لا علاقة لهم به، وقد يكونون لا يعرفونه. يجيء من يجيء متكلّفاً مرهقاً، ويعود منزعجاً متذمراً. هذا شيء لا أريده. فلا أريد أن أُنعى فأزعج الناس، فمن جاء من ذات نفسه فله أجره.

قلنا له : هذا صعب.

قال : كل نفس وما اختارت.

قلنا : وبعد ؟

قال : وهذا الندب والصياح لا أحبه فلا أريده. فجلال الموت الصمت. وهذه التوابيت الضخمة الفخمة التي يُرادبها الأبّهة والعظمة ولم يكن لنا عهد فيها من

---

*عارف النكدي : مجلة «الميثاق». الجزء الرابع عن شهر نيسان ١٩٧٤ . أعيد نشرها في كتاب : «فقيد العروبة الخالد ـ عارف النكدي» ـ مطابع قدموس الحديثة. ص ١١و١٢ .

قبل. إنها مظاهر فارغة لا تعجبني. بحسْبي كفنٌ أُلَفّ به أو تابوت عادي يصنعه نجار على ما كان يقع من قبل هذه السنوات الأخيرات.

قلنا: هذا قد يكون له وجه.

قال: وهذه (الترجومة) التي يسمونها صلاة، وليست صلاة، بل هي تأبين، تقوم على غير أساس من أسس المذهب، وفيها من المبالغات التي لا يستسيغها عقل ولا منطق، لا تعجبني وأنا أمقتها، وفي غنى عنها، وكان لها زمن وانقضى.

قلنا: وبعد؟

قال: يُجمع ما كان ممكناً أن يصرف من مال، ويضاف إليه مثله، وينفق في سبيل من سُبل الخير.

هذه وصيتي، وهذا ما أريد وأشدّ عليه. راجياً العمل به تنفيذاً لرغبتي، ووصيّة المرء واجبة التنفيذ والتحقيق.

إذا وجد الشيخ في نفسه نشاطاً فذلك موتٌ خفي
ألست ترى أن ضوء السراج له لهب قبل أن ينطفي».

القيم الأخلاقية في الريف اللبناني

«حكاية الحياة في القرية اللبنانية تمجّد الفضيلة الحقّة والشرف وجميع القيم الإنسانية. من هذه الحكايات: قصة الشيخ الذي رهن شعرة من ذقنه لقاء مبلغ من المال استدانه من أحد المرابين. وقد سدّدد دينه في الوقت المحددّ واستردّ الشعرة.

وقصة الشاهد في المحكمة الذي تأخر عن موعد أداء شهادته، ففُرضت عليه غرامة مالية. ولكن أحد الموظفين نصحه بتقديم عذر بأن سيارته تعطلت في الطريق. فكان جواب الشاهد أن شكره على عاطفته ونصيحته، وقال له: لم يحدث أي عطل في سيارتي، وأفضّل أن أدفع أضعاف الغرامة من أن أسعى للتخلص منها، بعذر ليس له أساس من الصحة.

وهناك قصة الفلاح العائد من حقله، فجفلت بقرته وهربت. لحقها وهو منهوك القوى وتبعها حتى وصلت إلى البيت، وهو في غاية التعب، لاهثاً والعرق يسيل من جسمه. فلما أدركها، أمسك برسنها وقال بهدوء تام: يا مباركة، تعبت وتعّبتيني معك. إلى ما هنالك من قصص وحكايات كثيرة تصبّ كلها في خانةَ القيم الأخلاقية.

... توجهت إلى حاصبيا بعد إنهاء دراستي في أوروبا، وكان مرض «الفيلوكسرا»، وهو مرض يصيب دوالي العنب، قد انتشر بين الكروم. وقمت بالكشف على العرائش، والعمل على التخلّص من هذا المرض الفتاك. قلت للمشايخ: لكي تتخلصوا من هذه الآفة عليكم بغرس نصوب الكرمة الأميركية وتطعيمها، فإن لهذه النصوب مناعة ضد هذا المرض. تكفلّت لهم بإحضار النصوب، ولكن أحدهم قال لي: هل توزع هذه النصوب مجاناً من قبل الدولة أم بثمنها؟ لأننا ـ كما تعلم ـ نريد أن نشتري النصوب بمالنا الحلال الذي كسبناه بعرق جبيننا وكدّ يميننا، فنحن نكره المال الحرام ونقدس المال الحلال. فإذا كنت مستعداً لقبض ثمن هذه النصوب فأهلاً ومرحباً بك. إن نصوب الحكومة المجانية، في

نظرنا، حرام علينا استلامها.

وهكذا كان، ودُفع ثمن النصوب. ومن قبيل الصدف أن النصوب التي دفعت أثمانها عاشت ونمت بنسبة كبيرة، أما النصوب التي وزعت مجاناً فقد ماتت ويبست بنسبة كبيرة. والسبب بسيط، هو أن النصوب التي كان أصحابها قد دفعوا ثمنها، اهتموا بها واعتنوا في معاملتها، فنمت وعاشت. أما النصوب المجانية فقد أهملها أصحابها ولذلك يبست.

فعلينا أن نحافظ على هذه القيم التي هي درّة من درر تراثنا الأخلاقي *.

*فؤاد النجار: محاضرة من كتاب «الواقع الدرزي وحتمية التطور». مرجع سابق. ص ٥١ـ٥٤. (بتصرّف)

نساء درزيات شهيرات*

«إن نتصفّح التاريخ تطالعنا أول ما تطالعنا «الست نسب» والدة الأمير فخر الدين الثاني الملقب بالكبير. تولى إمارة الشوف (في القرن السادس عشر) وهو في الثانية عشرة من عمره. وقد نشأ على احترام والدته وحبها وطاعتها. وعندما تولى الإمارة، وهو طري العود غير ذي تجربة، كان يلجأ الى والدته. وفي حملة أحمد باشا الحافظ، في غياب الأمير، صمد له الجيش ودافع دفاعاً مجيداً. ولما نكّل أحمد باشا بالأهلين قصدت إليه الست نسب في معسكره، وأنّبته على إهلاك رعايا السلطان وخراب البلاد. فاتفق معها على الانسحاب مقابل مبلغ كبير من المال. ويحدّث التاريخ عن تخطيط مشروع للوحدة اللبنانية، ويشير إلى أنه مشروع مشترك بين الأمير ووالدته.

-«الست حبوس ارسلان» (في القرن التاسع عشر)، العهد عهد الجزار والأمير بشير الشهابي، والشيخ بشير جنبلاط. هي إبنة الأمير بشير محمد ارسلان وزوجة الأمير عباس فخر الدين ارسلان. وقد طغت شخصيتها على شخصية زوجها ووالدها، فأعلن الامير بشير الشهابي إمارتها على الغرب بعد وفاة زوجها. من أعمالها أنها أجْلت الشهابيين عن الشويفات واستصْفتها للارسلانيين، وأنها ناوأت الأمير بشير في سياسته بجرأة. وكان هذا في الظاهر يرعى خاطرها، وفي الباطن يحقد عليها ويسعى للتخلص منها. ثم إنها وهي نازحة إلى حوران حاربت البدو وتغلبت عليهم. وكانت تجلس للقضاء في دعاوي الناس وتتصدر المجالس الدينية. وُصفت بالبذل والسخاء في الضيافة وفتح أبوابها للوافدين.

-«عمشة القنطار» وُصفت بالقوة البدنية والبراعة في استخدام السيف والرمح. وكان آل القنطار حكام منطقة راشيا ووادي التيم في أوائل القرن التاسع عشر، غير أن عمشة تجاوزت منطقتهم فاقتطعت زحلة وحكمتها.

---

*عفيفة صعب: محاضرة، عن كتاب «الواقع الدرزي وحتمية التطور». مرجع سابق ص ١٢٨-١٣٨ (بتصرّف)

ـ «الست نايفة جنبلاط» إبنه الشيخ بشير جنبلاط وزوجة الشيخ خليل شمس في حاصبيا. كانت ذات جلال ووقار، وحصافة وذكاء، وتقى عميق. شديدة العطف على الفقراء، قوية العارضة مع الحكام والمسؤولين. قال عنها الأمير شكيب أرسلان: «لقد زرت كثيراً من الكبراء فلم أتأثر بشخصية تأثري بشخصية هذه السيدة». عندما اشتد الحصار على الشهابيين في سراي حاصبيا، خرجت من دارها تحت الخطر الشديد وسارت إلى السراي بين جثث القتلى، وأخرجت النساء والأطفال من بين المحاصرين، ونقلتهم إلى دارها وحمتْهم. ولم تكن تبيع غلالها من القمح، بل كانت توزعه على المحتاجين. بَنَتْ خلوة من خلوات البيّاضة ووقفت لها أملاكها، ودفنت بجانب هذه الخلوة.

ـ وفي جبل الدروز لمع اسم «سعدى ملاعب» في معركة «عيون» عام ١٨٩٥، ودورها في التغلب على الجيش العثماني المؤلف من أربعة آلاف مقاتل.

كما لمعت اسماء «بستان شلغين» و «شمّا أبو عاصي» و «عبلة حاطوم» و «ترفا المحيتاوي». اللواتي حوّلن مقدرات معركة المزرعة مع الفرنسيين عام ١٩٢٥ من الهزيمة إلى النصر الساحق، وأنقذْنَ بقوة السلاح كثيرين من الجرحى في معركة اللجاة.

كما برز اسم «شهيرة هنيدي» واسم «لبيبة عامر» إبان الحرب العالمية الأولى، في مجال المروءة والإغاثة أيام المجاعات. ويبرز اسم «ميثاء الأطرش» التي تزعمت بلدة صلخد بعد زوجها. و «شيخة عزام» التي اتصفت بإصالة الرأي والنفوذ في حل المشاكل.

ـ «الست نظيرة جنبلاط». العهد عهد الانتداب الفرنسي، وقد فقدت دار المختارة سيدها فؤاد بك جنبلاط. وكان الوريث طفلاً في الثالثة من عمره. فهي من هذه الناحية شبيهة بالست نسب والدة فخر الدين المعني. كانت شديدة الذكاء، عالية الهمّة، فقبضت على زمام الأمور بيد مجرّبة خبيرة، وتسلمت زعامة دار المختارة على الشوف. أرادها الفرنسيون لحفظ أمن الشوف، وأرادت هي ألا تقطع معهم شعرة معاوية، وهم أصحاب السلطة. كما أرادت ألا يذلّ الشوف ـ موطن

الدروز ـ الذين ما رضخوا يوماً لحاكم ولا ذلّوا لمتجبّر. فحالت دون الاصطدام بينهم وبين الفرنسيين. ففي عام ١٩٢٥ ـ عام الثورة السورية ـ تجمع الدروز في بعذران، فسار إليهم الجيش الفرنسي وأحرق بلدة المزرعة على أمل إحراق بعذران أيضاً. فأرسلت الست نظيرة تطلب مقابلة القائد العام، وأبلغته بأنها تأخذ على عاتقها إعادة الأمن إلى الشوف، وأقنعته بالرجوع. وقد احتفظت بنقابها مسْدلاً، واستنّت لنفسها في اتصالاتها مع السلطة الفرنسية استدعاء شيخ العقل لحضور تلك المقابلات. وقد قيل فيها الكثير، من ذلك، القول الشائع: إن «الكبراء الأجانب الذين يزورون لبنان، لا يكونون قد أنصفوا أنفسهم إذا لم يزوروا البطريرك الماروني في بكركي، والست نظيرة جنبلاط في المختارة». واستمرت دار المختارة في مهمتها التاريخية حتى بلغ الوريث الشرعي ـ كمال بك جنبلاط ـ أشدّه وتسلم ميراثه سليماً عام ١٩٤٢».

"الأميرة زهر أبي اللمع" *

«عُرف آل أبي اللمع بالمقدّمين، وهو لقب عسكري، تولّوا منطقة المتن، واشتهر جدهم أبو اللمع بشجاعته وذكائه، وهو أبو الفوارس معضاد الفوارسي. وبعد معركة عيندارة (سنة ١٧١٠م)، وقد أسهموا فيها إسهاماً فعالاً، منحهم الأمير حيدر الشهابي لقب أمير بدلاً من مقدّم.

إعتنق جدود اللمعيين مذهب التوحيد الدرزي منذ بدء الدعوة، وظلوا عليه إلى أن تنصّر الحكام الشهابيون، فحملوا اللمعيين على الاقتداء بهم تدريجياً. ولم يكن ذلك لنفْرة من مذهب التوحيد، ولا لرغبة في النصرانية، بل لعوامل سياسية. وخرج من هذه الأسرة زعماء وحكام وأبطال ورجال فضل وعلم، كانت من بينهم الأميرة زهر ابنة المنصور بن مراد أبي اللمع.

كانت هذه الأميرة من فضليات النساء وصاحبات العقل النيّر والرأي الثاقب، تناظر الرجال في العلم والمعرفة، وتبزّ سيدات مجتمعها في المحامد والمكارم وأعمال البر والإحسان. وكانت تنعي على أهلها وذويها انحرافهم في اعتناق النصرانية، لا حبّاً بها ولا كرهاً بالتوحيد، بل رجاء فوائد مادية آنيّة ألبستها السياسة الفئوية ثياب البهرجة والإغراء.

وقبل وفاتها بإحدى عشرة سنة، وقفت أملاكها الشاسعة وقصرها في صليما لعائلتي «سْعيد ومصري» مناصفة ووزعت ما عندها من أموال وأثاث ومنقول في أوجه الخير والإحسان، دون تفريق طائفي. وقصرها في صليما يقوم فيه مجلس القرية، اليوم. وذكر أن ذويها كان غضبهم عليها شديداً ومزدوجاً: الأول لأنها لم تسلك مسلكهم في اعتناق النصرانية، والثاني لأنها حرمتهم من ميراثها. ويقال أن أخاها صمّم على قتلها، فأتى إلى صليما وترجّل عن جواده شاهراً سيفه بيمينه،

---

* محمد خليل الباشا: «معجم أعلام الدروز». الدار التقدمية. المجلد الأول. طبعة أولى ١٩٩٠. ص ٩٠و٩٢.

فما أن وطئت قدماه داخل القنطرة الخارجية حتى سقط ميتاً. والقنطرة ما زالت قائمة حتى اليوم.

وتوفيت الأميرة زهر، وهي محافظة على انتمائها الديني لمذهب التوحيد، في نحو سنة ١٢٢٢ هجرية (١٨٠٧م)».

السيدة زهية البعيني *

في مطلع عام ١٩١٩ قتل امين قاسم البعيني بينما كان عائداً من صيدا إلى بلدته مزرعة الشوف. أعلنت السلطات - آنذاك - أن أميناً قتل في ظروف غامضة، وأن التحقيق لم يكشف عن هوية القاتل أو القاتلين.

لكن الأمر لم ينته، ولم يلبث أن أُخذ بثأر أمين. وفوجئ الناس بتحرك السلطة السريع والطائش، إذَ لم يمض ثلاثة أيام حتى وجهت التهمة إلى خمسة من بني البعيني، وكلفت قيادة الدرك في بيت الدين مختار المزرعة شاهين محمد أبي كروم أن يطلب من هؤلاء الخمسة تسليم أنفسهم، فرفضوا جميعاً.

عندئذ توجهت قوة من الدرك وفاجأت المزرعة، فانسحب الرجال المطلوبين الى الجبال، ثم عادوا مع بزوغ الفجر. لم تمض ساعة من الزمن حتى قامت الضجة وعلا الصياح، إذ أن رجال الدرك تظاهروا بالانسحاب من البلدة ثم اختبأوا في البساتين المجاورة. ولما اطمأنوا إلى عودة بني البعيني تجمعوا وبدأوا التقدم نحو منازلهم.

وكان أول من التقاه رجال الدرك من بني البعيني حسن شاهين واسمه في رأس قائمة المطلوبين فأمروه بالاستسلام. أخذ يحاورهم ويتأخر إلى الوراء حتى استدرجهم الى الساحة المسماة «ساحة العين». وهناك «وقعوا في أحضان أبيهم»، إذ أطبق عليهم ليس فقط بنو البعيني بل أيضاً بعض بنات البعيني من كل الجهات ودارت معركة بالأيدي أسفرت عن تجريد رجال الدرك من أسلحتهم وتسريحهم. وكان اللواء في هذه الوقيعة معقوداً للسيدة زهية البعيني (مطلقة حسن شاهين)، وقد عملت أعمالاً تعجز عنها الرجال.

ومن المعروف عن أخواننا البعينيات أنهن لسن أقل سطوة وبطشاً من إخواننا البعينيين. ولهن تاريخ مجيد في هذا المضمار، ومنهن كثيرات ما زالت تروى عنهن قصص وحكايات كأنها من نسج الخيال»...

---

*محمود خليل صعب: «قصص ومشاهد من جبل لبنان». منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء - بيروت - ١٩٨٠. ص ٨٢-٨٣.

السيدة فاطمة حسام الدين *

«سنة ١٨٧٤ خطب سليم أبو غانم من كفرنبرخ امرأة من آل كوكب في كفرمتى. ولما حان موعد الزفاف جاء وفد من كفرنبرخ إلى كفرمتى لإجراء عقد القران وأخذ العروس. وكان في الوفد حوالي عشرة من الرجال المتقدمين في السنّ وعدد مماثل من النساء، وقد تخلّف الشبان وبقوا مع العريس يحتفلون ويفرحون.

كان المقدم على الوفد الشيخ مصطفى الدويك. وكان جواداً أبياً شجاعاً، وفوق هذا كان شيخاً تقياً ورعاً. ناموا في كفرمتى، وبعد تناول طعام الفطور في الصباح استعدوا للرحيل، وكانوا قد قدموا إليها على الخيل والبغال والحمير. وخرجت العروس بعد وداع عسير وأعدّت الفرس التي ستحملها إلى بلد شريك حياتها.

في تلك الزحمة، تقدم شاب من آل الغريب ورمى جرناً في الأرض ثم صاح قائلاً: «يا مشايخ، كل ايامكم فرح، عقبال العاوزين عندكم» ثم مدّ يده إلى الجرن ورفعه إلى فوق رأسه وأعاده إلى الأرض. ثم طلب من «أهل العريس» أن يتقدم أحدهم ويرفع الجرن كما جرت العادة في الأعراس.

بُغت رجال كفرنبرخ، منهم لم يصطحبوا معهم بعض الشباب، فتكلم مصطفى الدويك وقال للشاب: «يا ابني، ترى أننا جميعاً من الشيوخ، لذلك نرجو أن تعفينا من رفع «القيْمة» هذه المرة». لكن الشاب أصرّ على ذلك وقال له: «كيف ترضى البلد التي اطلعت ملحم بك العماد ووهبه أبو غانم ومصطفى الدويك أن تأخذ عروساً دون أن ترفع «قيْمتها» ؟.

غضب الشيخ مصطفى الدويك من تحدّي الشاب، وكاد رغم زيّه الديني أن يتقدم بنفسه ويرفع الجرن ـ وقد كان مشهوراً بقوته ـ، لكنه تذكر أمراً فصاح على أحد رفاقه وقال له: «يا أسعد، إذهب وناد فاطمة». وأسعد هذا هو أسعد اسماعيل

---

* محمود صعب: «المرجع السابق. ص ١٢٧-١٢٨.

نصر. وبهت الناس من بادرة الشيخ مصطفى ولم يتبينوا شأن فاطمة في قضية لا تعني إلا الرجال.

وعاد أسعد ومعه امرأة ممتلئة الجسم، طويلة القامة، متينة التركيب، وقد تلثمت بمنديل أبيض فلم يظهر من وجهها إلا عين واحدة. فصبّحت الرجال بشيء من الخفر والخجل. فقال لها الشيخ: «يا فاطمة، تقدّمي و (قيمي) هذا الجرن». فارتبكت الامرأة وقالت له: «يا سيدي، كيف (اقيم) الجرن وأنا امرأة عاجزة؟». فألح عليها الشيخ مصطفى، فقالت له: «يا سيدي، أخاف أن يبعدني الأجاويد عن ديني». فقال لها: «ويحك يا فاطمة، أنا الدين، وأنا الأجاويد، فمن يبعدك عن دينك؟ تقدمي».

عندئذ تقدمت فاطمة فشدّت لثامها على رأسها شداً محكماً، ثم رفعت أذيال (قمبازها) وأدخلتها تحت زنارها، وأمسكت الجرن وصاحت: «يا معونة الله» ورفعت الجرن دون مشقة او عناء ورمته إلى الأرض وذهبت مسرعة إلى ما بين النساء.

إلتفت الشيخ مصطفى إلى الشاب الذي وقف مشدوهاً أمام إنجاز تلك الفتاة الحييّة، وقال له: «يا إبني، إن قيمات كهذه نتركها للنساء».

أما بطلتنا فهي فاطمة حسام الدين زوجة حسن حمود عابد من كفرنبرخ، وقد اشتهرت بأمرين: أولاً بشدّة تديّنها وصحة تقواها، ثم بقوة بنيتها ومتانة عضلاتها...».

دموع لا كالدموع

ليس البكاء من شيم الرجال، فالرجل الرجل يتلقى المصائب والمصاعب بنفس مترعة بالإيمان، فيتحملها ويذللها وهو ثابت الجنان، برباطة جأش وقوة إرادة. صحيح أن الإنسان يبكي وينتحب لدى فقد عزيز أو قريب، وذلك لأن عاطفته تدفعه إلى البكاء، حيث أن جوارحه التي تصدمها المصيبة لا تتحمل وقع المفاجأة، فتعبّر عن حزنها بالبكاء.

أما أن يبكي زعماء تتردد أسماؤهم على كل شفة ولسان، وقد خُطّت أمجادهم على صفحات التاريخ بأحرف من نور، عنيت بهم: قائد الثورة السورية الكبرى سلطان باشا الأطرش، وأمير البيان الامير شكيب ارسلان، والقائد الشهيد المعلم كمال جنبلاط، فهذا الأمر يختلف تماماً عن المعنى التقليدي للبكاء، ودموعهم لا كبقية الدموع.

فما هي المناسبة التي دفعت كلاً من هؤلاء الزعماء إلى البكاء ؟؟ نبدأ بالمجاهد الكبير سلطان باشا الأطرش، على أن نذكر البقية فيما بعد.

عندما بكى سلطان باشا الأطرش :[1]

يروي هذه المناسبة الكاتب الشعبي سلام الراسي، فيقول :

«... كان شكيب وهاب من أقطاب الثورات والحركات المسلّحة في لبنان وسوريا، وقد اقترن اسمه بالرجولة والعنف... وبعد إخفاق الثورة السورية سنة ١٩٢٦، رافق سلطان باشا الأطرش، قائد الثورة، في منفاه إلى شرقي الأردن. وبعد عقود مليئة بالذكريات والأحداث، رجع شكيب وهاب إلى مسقط رأسه «غريفة - الشوف» ليعيش آخر أيامه مع بني قومه.

قصدته يوماً في بيته (والكلام للكاتب)، وتطرق الحديث إلى البكاء، فقال شكيب : الإنسان يبكي من ثلاثة أسباب : من وجع، ومن حزن، ومن «كسرة خاطر»... وانتقل بنا الحديث إلى البكاء من «كسرة الخاطر» فقال الشيخ شكيب :

إن سلطان باشا الأطرش بكى مرة واحدة في حياته، وهو الذي قاد المعارك الطاحنة، ورأى الشهداء من رجاله يسقطون بين يديه، وبقي رابط الجأش. فسألته لماذا بكى سلطان باشا؟

قال: بكى سلطان حين رأى بعض رجاله، في المنفى، يتقاسمون رغيفاً واحداً من الخبز. كان ذلك بعد لجوء سلطان ورجاله، ومنهم شكيب وهاب، عقيب الثورة إلى النّبك في شرقي الأردن، حيث عاشوا في وادٍ مقفر عانى فيه سلطان باشا ورفاقه شظف العيش.

ويشير الأمير عادل ارسلان ـ أمير السيف والقلم ـ وأحد رفاق سلطان باشا في الثورة، وفي المنفى الاختياري، إلى حادثة اقتسام الرغيف في أبيات منها:

«يا ساهراً في النبك أين الألى ... أنت من الشوق إليهم قريحْ

في مَهْمه قفرٍ كأن السما ... لم تروه بالقَطْر من عهد نوحْ

إنسانُه ضَبٌّ، وأشجاره ... شيحٌ، وأصوات التغنّي فحيحْ

وعصبة عرباء، فوق الثرى ... لكنها من مجدها في صروحْ

أخْرسها الصبر ومن حقّها ... من طول ما عذّبها أن تصيحْ

كل رغيف أهلُه تسعةٌ ... كأنما صلى عليه المسيحْ»

المرجع :

١- سلام الراسي: «جود من الموجود» مؤسسة نوفل. طبعة اولى ١٩٩١. ص ١٤١ - ١٤٢ (بتصرّف)

سلطان باشا الأطرش والثورة السورية *

«اندلعت الشرارة الأولى للثورة السورية الكبرى في جبل الدروز، وكان من أهم بواعث هذه الشرارة إعتقال أدهم خنجر (الثائر العامليّ) في منزل سلطان باشا الأطرش، وتعسّف الجنرال الفرنسي (كاربييه) حاكم الجبل آنذاك. كان هذا الحاكم قد أخذ يستعمل سياسة شاذة من القسوة، فكان لا يتذرع عن ضرب وصَفْع وإهانة البارزين والشيوخ من سكان الجبل على مرأى من الناس، حتى بلغت تصرفاته حداً لا يمكن احتماله. ويروى أنه من أجل قطته السوداء الضائعة استعمل قواته العسكرية وسلطاته الواسعة للحصول عليها، واعتبر ضياعها مؤامرة يقصد بها النيْل من فرنسا ومن ضباطها وشرفها...

وأخذ الناس يرفعون عقيرتهم بالشكوى والتذمر، ثم ألّفوا لجنة وطنية برئاسة سلطان وأرسلوا وفداً إلى المندوب السامي «الجنرال سراي»، يطالب بسحب «كاربييه» وإعطاء منصب الحاكم إلى رجل من أبناء الجبل. ولكن «سراي» إستقبل الوفد بفظاظة واحتقار، وهددهم بالنفي والتنكيل والسجون. وكانت هذه البادرة السيئة من قبله، بالنسبة لأهالي الجبل، بمثابة «طفوح الكيل». فبدأوا بحركات شبيهة بالعصيان قوبلت من جانب السلطات الفرنسية بالقمع والاعتقالات، وفرض العقوبات والاعتداءات المختلفة [1].

وكانت قد بدأت الانتفاضة الأولى بتاريخ ٢١ آب ١٩٢٠، أي بعد الاحتلال بشهر واحد، عندما بوشر بجمع الغرامات الحربيّة التي فرضتها سلطات الاستعمار الفرنسي، على لسان غورو، إذ لم تشأ هذه السلطات أن تتكبد نفقات الاحتلال والقمع والتدمير من خزائن وزارة المالية الفرنسية، رغم أن هذه الخزائن ألقت عن كاهلها أعباء الصرف على عشرات الألوف من الموظفين غير الأكفاء، والعاطلين

---

* فارس زرزور: «البطولات، معارك الحرية». بدون تاريخ وبدون دار نشر.

عن العمل، واللصوص، والمرتزقة، وغيرهم. . . هؤلاء الذين استُبعدوا إلى سورية المحتلة لكي يعيشوا من أموالها وأرزاقها» [٢].

«أما حادثة اعتقال أدهم خنجر، فقد وقعت في ١٧ تموز ١٩٢٢، عندما وصلت إلى جبل الدروز حملة كبيرة لاعتقاله، حيث كان ملتجئاً إلى سلطان باشا الأطرش، ومحتمياً في كنفه. فتمكنت من اعتقاله وسوْقه إلى السويداء. وكان سلطان باشا غائباً عن الجبل. وذلك إثر إذاعة القيادة الفرنسية البيان التالي:

«في يوم ٢٣ حزيران ظهرت على طريق القنيطرة عصابة خطيرة تبيّن أن أحد أفرادها اسمه أدهم خنجر. يُطلب رأسه حياً أو ميتاً بجائزة كبيرة. وبعد أن قضت هذه العصابة مآربها الإجرامية، إنسحبت إلى الخلف دون أن تخلف أثراً. . .».

وكانت هذه العصابة قد قطعت الطريق على الجنرال «غورو»، وانهال الرصاص على سيارته من كل جانب، وتبادل رجال الحرس النار مع الثائرين حيث تراجع هؤلاء بعد أن تركوا السيارة مثقبة كالمصفاة، معتقدين أن ركابها - بمن فيهم الهدف الحقيقي - قد أصبحوا كومة من الجثث [٣].

فما أن علم سلطان باشا بهذه الحادثة الرهيبة - اعتقال أدهم - بالنسبة للتقاليد العربية، حتى عاد على الفور، وأرسل وفداً من أبناء الجبل إلى القائد الفرنسي في السويداء يطلب منه الإفراج عن الرجل. ولكن القائد رفض السماع للوفد، ممّا حدا بسلطان باشا أن يرسل إلى السلطات الفرنسية في دمشق الإنذار التالي:

«مع الأسف أنكم لم تراعوا البند القائل أن فرنسا ستحافظ على أعرافنا وتقاليدنا العربية، ومعروف أن الضيف والقاصد إلينا هو واحد في نظر عشائرنا. فرجال حكومتكم لم يراعوا هذا البند. لذا أطلب من حكمتكم ألا تجعلوني مضغة في أفواه العرب، فأتخصص بالأهانة من أمثالي في سورية العربية. وإني أرى أن موتي أهون علي من إهانة ضيفي. . لذا فأنا أتوسط للرجل الذي اعتقلتموه من مضافتي وأن تفرجوا عنه وتعيدوه إليها سالماً معافى، إنقاذاً لشرفي ووطني».

ولكن السلطات الفرنسية لم تستجب لهذا النداء الحكيم، مما حدا بسلطان أن

يجمع رجاله محاولاً تخليص الأسير بالقوة. وحاصروا دار المستشار الفرنسي في السويداء، مطالبين بالإفراج عن الثائر. ولكن المستشار تمادى في غيّه وطلب قوة من دمشق، فحضرت على الفور كوكبة من الدبابات والمصفحات. وما أن وصلت هذه القوة إلى «تلّ الحديد» حتى تصدى لها أفراد الشعب بالرصاص وزجاجات البترول الحارقة، مما أدى إلى تعطيل ثلاث دبابات وفرار الباقي. في حين قتل قائد الكوكبة مع أربعة من الجنود وأسر خمسة. وعلى الأثر توجه إلى الجبل سرب من طائرات القتال وبدأ القصف والحرق والتدمير، في حين نقل أدهم خنجر إلى دمشق حيث جرى إستجوابه بطريقة خالية من العرف الإنساني، ثم حمل إلى بيروت وأعدم[٤].

وحاول الفرنسيون بعدها اعتقال سلطان باشا بصفته رئيساً للجنة الوطنية، ولكن محاولتهم باءت بالفشل. إذ أن الحملة التي ذهبت لهذا الغرض أبيدت عن آخرها، في معركة قصيرة سميت «موقعة الكَفْر» وكانت بقيادة الكابتن «نورمان». وكان من نتيجتها أن زحف المجاهدون إلى «صلخد» لحماية سلطان باشا الذي كان موجوداً فيها.

وتوالت الحملات، منها ما سميّ بـ «حملة ميشو» التي لقيت في «المزرعة» أكبر هزيمة عرفتها العسكرية الفرنسية منذ احتلالها لسورية. فقد قضي على معظم أفرادها، واستولى المجاهدون على أثقالها وأحمالها وعتادها ومؤنها»[٥].

. . . «تسلم سلطان باشا قيادة الثورة السورية في كل أنحاء البلاد، والتفّ الوطنيون حوله يساندونه ويشدون أزره. وشملت الثورة مختلف أنحاء البلاد حتى سنة ١٩٢٧»

«لقد دخل الفرنسيون إلى سورية ولبنان ليبقوا فيهما إلى الأبد، فالفرنسيون لا يمكنهم الاستغناء عن عاصمتهم، وسورية ـ في نظرهم ـ أثمن من باريس. ولكن الأحداث المتتالية، ونتيجة كفاح الشعبين غير المنقطع، خرج الفرنسيون من «فردوسهم المفقود» دون قيد أو شرط أو معاهدة ـ حتى معاهدة صداقة ـ ودون أن يكون لهم أي أمل بالعودة أو «تكحيل العيون». . .

. . . .

«الحرب لمن يريد الحرب والسلم لمن يريد السلم»

هذه العبارة، التي أصبحت فيما بعد مثلاً، كان أول من قالها المفوض السامي الفرنسي «هنري دي جوفنيل» مخاطباً بها الثوار من دروز الجبل في حوران، والثوار السوريين في دمشق والغوطة، والثوار من دروز لبنان في حاصبيا وراشيا والجنوب. قالها غاضباً متوعداً ومهدّداً»[٦].

المراجع :

(١) المرجع نفسه. ص ٢٠٣ .

(٢) المرجع نفسه. ص ١٨٩ .

(٣) المرجع نفسه. ص ١٩٢ .

(٤) المرجع السابق نفسه. ص ١٩٢-١٩٣ .

(٥) نفس المرجع. ص ٢٠٤ .

(٦) إسكندر الرياشي : «الأيام اللبنانية». شركة الطبع والنشر اللبنانية. بيروت (بدون تاريخ).

"أول منشور أصدره القائد العام" *

(سلطان باشا الأطرش)

«إلى السلاح، إلى السلاح.

يا أحفاد العرب الأمجاد . . هذا يوم ينفع المجاهدين جهادهم في سبيل الحرية والاستقلال عملهم. هذا يوم انتباه الأمم والشعوب، فلننهض من رقادنا، ونبدّد ظلام التحكم الاجنبي عن سماء بلادنا. لقد مضى علينا عشرات السنين ونحن نجاهد في سبيل الحرية والاستقلال، فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد أن سكت القلم، ولا يضيع حق وراءه مطالب.

أيها السوريّون . . لقد أثبتت التجارب أن الحق يؤخذ ولا يعطى فلنأخذ حقنا بحد السيف ونطلب الموت فتوهب لنا الحياة.

أيها العرب السوريون :

تذكروا أجدادكم وشهداءكم وتاريخكم وشرفكم القومي . . تذكروا أن يد الله مع الجماعة، وأن إرادة الشعب من إرادة الله، وأن الأمم المتحدة الناهضة لن تنالها يد البغي. لقد نهب المستعمرون أموالنا واستأثروا بمنافع بلادنا وأقاموا الحواجز الضارة بين وطننا الواحد، وقسمونا إلى شعوب وطوائف ودويلات، وحالوا بيننا وبين حرية الدين والفكر والضمير، وحرية التجارة والسفر حتى في بلادنا وأقاليمنا.

إلى السلاح !! أيها الوطنيون . . . إلى السلاح تحقيقاً لأماني البلاد المقدسة . . . إلى السلاح ! تأييداً لسيادة الشعب وحرية الأمة.

إلى السلاح . . بعد ما سلب الأجنبي حقوقكم واستعبد بلادكم، ونقض عهودكم، ولم يحافظ على شرف الوعود الرسمية، وتناسى الأماني القومية.

---

*فارس زرزور : المرجع السابق.

نحن نبرأ إلى الله من مسؤولية سفك الدماء، ونعتبر المستعمرين مسؤولين عن الفتنة. يا ويح الظلم !!...

لقد وصلنا من الظلم أن نُهان في عقر دارنا، فنطلب استبدال حاكم اجنبي محروم من مزايا الإنسانية بآخر من جلدته الغاصبين فلا يجاب طلبنا بل ويُطرد وفدنا كما تطرد النعاج.

إلى السلاح.. أيها الوطنيون.. ولنغسل إهانة الأمّة بدم النجدة والبطولة. إن حربنا اليوم هي حرب مقدسة، ومطالبنا هي:

١ـ وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالاً تاماً.

٢ـ قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الأمة سيادة مطلقة.

٣ـ سحب القوة المحتلة من البلاد السورية وتأليف جيش وطني لصيانة الأمة.

٤ـ تأييد مبدأ الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان في الحرية والمساواة والإخاء.

إلى السلاح.. ولنكتب مطالبنا هذه بدمائنا الطاهرة كما كتبها أجدادنا من قبلنا. الى السلاح والله معنا.

ولتحيا سورية العربية حرة مستقلة» [1].

سلطان الأطرش

القائد العام لجيوش الثورة الوطنية السورية.

المراجع:

١ - زرزور: المرجع السابق. ص ٢٠٦و٢٠٧

وكذلك: سلامة عبيد «الثورة السورية الكبرى» مطابع دار الغد ١٩٧١. ص ٣٤٥.

البيان الذي أذاعه القائد العام سلطان الأطرش*

رداً على المنشور الذي ألقته الطائرات الفرنسية على مناطق الثورة السورية في ٢١ أيلول سنة ١٩٢٥م، أذاع القائد العام للثورة، سلطان باشا الأطرش البيان التالي :

«تناولنا اليوم دعوتكم الكريمة إلى السلم مع القنابل المتفجرة المنصّبة علينا من طائراتكم، فلم يزدنا هذا التناقض الغريب إلا معرفة بنواياكم الصادقة. إن ما جاء في منشوركم من التهديد المشرب بروح العطف يلفت الأنظار إلى أن جيوشكم التي اقتحمت بها سورية العربية هي كطائراتكم، من عادتها ـ عند سنوح الفرص ـ أن تنفّذ بصمت خطط الفتح من غير أن تلتفت إلى عويل الأطفال وصراخ الأمهات . . .

تقولون لقد اقتربت الساعة التي نعرف فيها قوى جيشكم ونتحمل فيها نتائج الثورة، ونحن نقول : إن إنكار هدف الجيش الفرنسي عندما كان يدافع ـ في الحرب العامة ـ عن بلاده، هو إنكار الشمس في وضوح النهار. ولكن الجيش القادم لاستعمارنا ولتأمير أمثال الكابيتين كاربييه علينا، ولتنفيذ مشاريع الضغط والارهاب وسلب الحريات في أمة آمنة مطمئنة، هو غير الجيش الفرنسي الذي رأينا شجاعته في «الكَفْر» و «المزرعة» و «المسيفرة». وإن الرجال الذين قهروا جيشكم في هذه المواقع لا يأبون أن يتحملوا نتائج الثورة. إنكم تذكرون مضاء سلاحكم في «المسيفرة» ولا تذكرون مضاء العزائم التي غنمت هذا السلاح في عُقْر استحكاماتكم، وسحبت الخيول من أيدي فرسانها.

وإذا كانت فرنسا كما تقولون، لا تقاتل مدفوعة بعامل البغض، بل تعاقب المجرمين بحسب جرمهم، فثقوا أننا لا نقاتل إلا دفاعاً عن الشرف القومي الذي

---

*فارس زرزور : مرجع سابق. ص ٢١٢-٢١٣

وكذلك حسن امين البعيني «سلطان باشا الأطرش. مسيرة قائد في تاريخ أمة» منشورات لجنة الاعلام ـ الادارة المدنية في الجبل. ١٩٨٥ . ص ٢٠٦و٢٠٧

عبث به موظفوكم، وعن الحرية التي مات تحت أقدامها رجالكم المساكين. أما مسألة المجرمين الذين سوّدوا وجه الانسانية بسيرتهم الخصوصية والعمومية، وجعلوا اسم الانتداب عاراً وشناراً، فالأجدر أن نتركها إلى يوم الحساب القريب إن شاء الله.

إنكم تقولون أن الأشخاص من ذوي البصيرة الذين يتركون السلاح منذ الآن يكونون في مأمن على حياتهم. ألا تعرفون أن بين البصيرة وترك السلاح تناقض ما كنا لندركه لو لم يكن سابقة في عهد الحكومة الوطنية السورية، لما آمنت بوعود أسلافكم، فحلّت جيوشها في تموز ١٩٢٠، وحكم على زعمائها بالموت في آب، ـ أي بعد شهر واحد ـ. «إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين». وقبل الوقوع في مثل هذا الفخ. عليكم أن تبيّضوا الصفحات السود، وتعيدوا إلى الشرف حسن السمعة التي كنتم تتمتعون بها قبل أن تطأ أقدامكم هذا الوطن المقدس.

إنكم تدعوننا إلى القاء السلاح، وأن نتقلد بدلا منه المحراث، إننا ما حملنا السلاح إلا دفاعاً عن هذا المحراث لنحصد منه الخير لنا ولأولادنا. ولكن إذا كانت ثمرة أتعابنا ستذهب إلى بطون أمثال «كاربييه» ـ الذي غرّمنا عشرات الليرات الذهبية ثمنا لقطّته المدللة ـ، وصفعوا أخيارنا وأجدادنا وأشرافنا لاستنزاف أموالهم، إذا كان ذلك، فإن السلاح يكون خير ضمان لهذا المحراث.

إننا نرغب السلم من صميم الفؤاد، وإذا أنسْنا في خصومنا اليوم هذه الرغبة الأكيدة، فإننا نمدّ إليهم أيدينا، ولكن على الشروط التي أذعناها في منشوراتنا السابقة...».

«صقر يَغرب» *

(محرّر هذه الكلمة هو الأستاذ بشير النكدي، شقيق الشهيد عادل النكدي الذي آثر الدفاع عن كرامة الأمة العربية ووحدة سوريا على كل ما في باريس من مباهج، وما لشهادة الدكتوراه في الحقوق من طاقة في رفع حاملها إلى أعلى المناصب. . . والكلمة التالية صورة جليّة لما كان في نفس كاتبها الأديب الكبير من إصالة في الوطنية وتصميم على الجهاد.

لقد رأى في القائد العام للثورة السورية ما كان يراه كل وطني مؤمن بحقوق وطنه وكرامة أمته. فسلطان باشا الأطرش كان رمزاً لهذه الكرامة، ولا غرابة في أن يقابل عند عودته ورفاقه من الصحراء، بمثل ما ودّع به يوم لاقى وجه ربك الكريم).

«الميثاق»

وهذه كلمة الأستاذ بشير النكدي في سنة ١٩٣٧ :

«هذه الجموع المتدفقة كموج مصطخب، وهذه الأهازيج تقرع آذان الجوزاء، وهذه عاصمة أميّة، أتت تشهد مقدمك ومقدم رفاقك المغاوير، يا أبا طلال. أتت تتحقق عن كثب أنك بشر سويّ، لم يخلقك الله على غير ما خلق عليه غيرك.

كنت الثائر الأهوج، الغاضب لمجد قومه أن يمتهنه الظالمون بقوة النار والحديد والهواء. فخيّل للناس أنك فوق الناس، فإذا بهم يرونك رجلاً كالرجال شكلاً وخلقاً وتكوينا. علّمت بذلك قومك العرب أمثولة مثلى : إذ أن من يخلص إخلاصك، ويأبى إباءك، ويترفع ترفعك، يبلغ ما بلغته أنت، إذا بذل في سبيل فكرة العرب ما بذلت أنت وصحبك.

---

*مجلة «الميثاق» : الجزء الرابع. نيسان ١٩٨٢ . تصدر عن مؤسسة بيت اليتيم الدرزي. عبيه - لبنان.

«الكلمة للأستاذ بشير النكدي» بمناسبة عودة سلطان باشا الأطرش ورفاقه سنة ١٩٣٧ .

وكأن أشباح أسلافك الغزاة الفاتحين، والكماة الصّيد من صلب يعرب : هاني بن مسعود، خالد بن الوليد، المثنّى بن حارثة، وعقبة بن نافع، تطيف بركابك وتدخل معك مربض الأباة الميامين من آساد أميّة.

ماذا شهدت الشام، أيها النفر الأشاوس حين خرجت للقائكم ؟؟ لقد شهدت عودة البطل المغلوب.

ففيم إذاً هذا التهافت، وهذه الجموع المتدفقة، والنيران المنطلقة، والعزة المنبثقة، والخطب المنمقة ؟

هذا كله، يا سلطان، اعتزاز العرب بالبطل العزيز بانكساره، الأبي في هزيمته، الجلد على محنته.

وهذا فخر بالشريد المنفي المغيظ، يرهقه النأي والألم ومرارة الهزيمة، فيتغلب عليها جميعاً بصلب إيمانه ومرّ حفاظه. وهذا يا صقر يعرب، إعتزاز قومك بما حملته من ويل ومحن وبلاء ضنّا بكبرياء قومك ومجدهم.

بل إن هذا لعجبٌ لإبائك النادر، وصبرك الكريم، تقهر به الجوع والمرض، والسهاد والمضض.

حدّث يا أبا طلال. ألم تر وَسَنَاتك المريرة أرواح الشهداء فتحدثت إليها ؟ قُلْ، وأنت الصادق، ما الذي أسرّه إليك رفيقك فيصل الأكبر، وزميلك العظمة، وجنودك : فؤاد سليم، وحمد البربور، وأحمد المريود، وعادل النكدي، وعز الدين الجزائري، أولئك النفر من أبرار شهداء العرب ؟ ألم يكن وحي أرواحهم خطابك الجميل زأرت به في عرين أميّة ؟؟..

لا تكتم قومك حديث صحبك، فلقد بثثتَ فيهم جبروت الجلد وهم بحاجة لغذاء حقدهم القومي. حدّثهم عن انهيار مملكة العرب في الشام، وارو أحاديث الفئة القليلة الفقيرة المؤمنة تنهض لصراع من حاصروا أسوار فيينّا، وأملوا على ألمانيا معاهدة فرساي.

أنْشدْ هذه القصائد العلوية، بعد اثني عشر عاماً من العذاب والحرمان. أنشدها

فكلها عظات وشمم وإباء، فإنك وأنت البطل الشريد المقهور، أبلغ عظةً وأجلّ أثراً منك وأنت القائد الظافر المنصور.

كنت يا سلطان بطلاً مقاتلاً، فغدوت في منفاك رمز فكرة ضخمة طبقت الآفاق، وبثّت كريم العظات، يعتزّ بها ذوو النفوس الشماء، ويصغر عن إدراكها الأذلة الجبناء.

لقد كنت الفكرة العربية الخالدة، عدا عليها الظلم والنار، والحديد والسموم، واكتنفتها كل أنواع الشقاء فما زادت إلا مضاءً وما كسبت إلا علاء وجلاء.

يا ليث «جبل العرب» !!

لقد كنت عام ١٩١٨ الجندي الفاتح في ظل راية الحسين، فإذا بك عام ١٩٢٤ الثائر المنقضّ الغاضب، يمتشق حسامه ذا الشطب ولسان حاله يقول :

«ونحن» إذا الجبار صعّر خدّه   ضربناه حتى تستقيم الأخادع .

ويأتي عام ١٩٢٦، فإذا أنت الأسد الجريح، أودت به خيانة المارقين كـ «نابوليون» على صخرة القديسة هيلانة.

أما الآن، عام الف وتسع مئة وسبع وثلاثين، بعد نشوة الفتح والثورة، والهزيمة والانكسار، فقد غدوتَ علم فكرة سجّلتك في لوح الخالدين. دافعت عنها ثائراً شديداً عتيّا، وصنْت شرفها مغلوباً مشرداً منفيّاً.

فهنيئاً لك وبك، وأهلاً ومرحباً وسهلاً ! أقمْ في وطنك منتظراً وانشد :

«إن تبتدر غاية يوماً لمكرمة   تلْقَ السوابق منا والمصلّينا».

فإن جهادك لم يكمل، والتاريخ لا ينسى».

بشير النكدي : ١٩٣٧

عندما بكى الأمير شكيب ارسلان *

يروي هذه المناسبة الأستاذ عبد الله المشنوق، فيقول :

«. . . قلت للأمير : لماذا لا تكتب يا أميري مذكراتك ؟ لقد حضرت حربين وشاهدت عن كثب، خلال هذه الأعوام الأخيرة وأنت في سويسرا، أحداثاً جساماً يجب أن تدوّنها للعالم العربي ببيانك الساحر، في مذكراتك، ولعلك كتبتها.

ـ لا والله !! لم أكتب سوى أشياء بسيطة، وكنت أودّ أن أباشر تدوين مذكراتي الآن، ولكن هيهات، فأنا ممنوع عن الكتابة، ويدي لا تقوى على مسك القلم وخطّ كلمة واحدة.

قلت : أنت تُملي وأنا أكتب. فأجاب مبتسماً بمرارة : وهل أقوى على الحديث، وهو يتطلب جمع الأفكار وحصرها وتنسيقها ؟

ـ ولكن حرام أن يحرم العالم العربي، وهو على عتبة نهضته الجديدة، خلاصة تجاربكم واختباراتكم السياسية طوال ستين عاماً من الجهاد في سبيل العروبة.

صمت الأمير برهة يفكر، ثم نظر إلى القرى المنتشرة كالمصابيح في أعالي الجبال، وقال :

إني مريض، وأشعر بدنوّ أجلي، وأنا أحمد الله عزّ وجلّ الذي سّهل لي أن أفارق الحياة على أرض هذا الوطن الذي أحببته، وقاسيت من أجله التشريد والنفي والاضطهاد. أجل ! سأموت هنا قرير العين ناعم البال، فتختلط رفاتي بتربة هذا الوطن، بعد أن أتمّ الله نعمته عليّ فشهدته عزيزاً سيداً حراً. أنا سعيد أن أدفن في تربة طاهرة لا ترفرف فوقها راية أجنبية، وأنا سعيد أن ألاقي وجه ربي الكريم، فأعيد هذه الأمانة إلى بارئها، بعد أن تحققت أحلام طفولتي في هذه الجامعة العربية ـ حرسها الله ـ وسأخبر رفاقي في الجهاد بأن تضحياتهم لم تكن عبثاً.

محمد علي الطاهر : «ذكرى الامير شكيب ارسلان». الدار التقدمية ـ المختارة ـ بيروت ١٩٨٨ . ص ٥١٤ـ٥١٥ .

وهنا ذرفت عينا الأمير دمعتين كريمتين، ونهض عن كرسيه، وجذبني إليه، وقال :

لي وصية واحدة أودّ أن أوصي بها، فهل تعدُني بأن تنقلها إلى العالم العربي بعد وفاتي ؟

فأجبته : لك العمر الطويل إن شاء الله .

قال : لا ! بل تعدني بنقل الوصية .

قلت : نعم ! فطوّقني بذراعين مرتجفتين، وقال بصوت أجشّ كادت تخنقه العبرات :

ـ«أوصيكم بفلسطين . . . »

من أقوال الأمير شكيب أرسلان *

«. . . أما لبنان، وطني الذي نشأت على حبه، وتغنيت بجماله فهو قلب بلاد العرب ورمز نهضتها، وعزّ لسانها، وحامل رسالتها في الشرق والغرب.

أنا لبناني، وأعرف تمسّك اللبنانيين بحريتهم واستقلالهم، ولكن هذا الاستقلال لا يمكن أن يكون صحيحاً ثابتاً إذا كان محاطاً بجيوش الاستعمار والاستعباد، فتحرّر الأقطار المحيطة بلبنان هو شرط أساسي لحريته واستقلاله، وتضامنه مع الأقطار العربية المجاورة هو الضمانة الحقيقية لكيانه، والطريق الأمين لأداء رسالته ـ رسالة العلم والثقافة والحضارة ـ».

. . . .

«. . . ومن نصارى الشرق من يرجع أصلهم إلى الفينيقيين فخرٌ لهم، فإن الفينيقيين كانوا من أعظم أمم الأرض، وكانوا سادة البحار في عصرهم. . . وهم من الكنعانيين الذين أصلهم من السواحل العربية الواقعة إلى الغرب من الخليج الفارسي، أي من الشجرة العربية، ولغتهم مشابهة للغة العربية كسائر اللغات. فسواء أكان إخواننا نصارى المشرق من الغرب أو من سلائل الآراميين أو الفينيقيين، فإنهم راجعون إلى الأرومة الساميّة التي أعظم فروعها الأمة العربية. وبالتالي، فهم والعرب المسلمون من عائلة واحدة».

. . . .

«خير للمرء أن يكون راعي ضأن في عزّ قومه، من أن يكون السلطان الأعظم على قوم أذلاء. . . وهل من سلطان لمن سيطر عليه الأجنبي وقاده كما يقاد البعير؟ . . . »

---

* محمد شفيق شيّا: «شكيب ارسلان، مقدمات الفكر السياسي». معهد الإنماء العربي. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٨٣. ص ٢١٠-٢١٧.

** - «العرب أمة كاملة، أي أن لها جميع العناصر التي يقتضيها كيان الأمة من الوجهة السياسية والاجتماعية، فلها عرْق واحد ولسان واحد، ومنافع واحدة، وأكثرية دين واحد. كما أن لها مصالحَ واحدة وآمالاً واحدة، لكن الذي فتّ في عضد هذه الأمة وأضعفها وأفقرها وأقصاها عن السير في موكب المدنيّة والرقي هو تفكك حلقاتها واستعمار الأجنبي لها.

فأنا جندي من جنودها له ثلاثة أهداف جليّة واضحة - تمام الوضوح -: الأول هو الإتحاد، والثاني هو التحرّر، والثالث هو السير في موكب النهضة والعلم والبعث».

. . . .

- «يحسب كثير من شبابنا ان لا مانع من وجود إيمان وإلحاد، بدليل أنهما موجودان في أوروبا. ويا ليت قومي يعلمون أن أوروبا حين أسّست مدنيتها كانت مؤمنة، فاجتمع الإيمان والمدنيّة وتعاونا، ونتج عنهما النظام وضروب الثروة، وأسباب القوة. ثم طرأت على هذا الجسم الأوروبي المنيع بإيمانه ومدنيته جرثومة الإلحاد والزندقة. ويخشى عقلاء أوروبا أن تضعف المناعة من ذلك الجسم بضعف الدين والخلق المتين.

ولو بحثنا عن ضروب المناعة في جسم أمتنا لما نرى غير بصيص ضئيل لا يزال من نور الإيمان. ولذا نجد المستعمرين يريدون أن يطفئوا ذلك النور. والمرجو من أهل العلم والإخلاص أن يتعاونوا على تنمية ذلك البصيص وتقويته في النفوس. ذلك رجاء المؤمن الصالح لأمته، فهل من مجيب ؟».

- «إن الإفراط وعماية القلب، والوصول في كل شيء إلى الدرجة القصوى من دون تأمّل في العواقب، ولا تفكّر إلا في الساعة الحاضرة، هذا ضرب من الجنون».

** محمد علي الطاهر: «ذكرى الأمير شكيب». مرجع سابق. من الصفحات ٥٤٣-٥٤٧.

ـ «لا خير في حرب كلها حرب، لا يتخللها تفكّر في السلم، ولا توسّل إلى إزالة الأفهام الغالطة، ولا شيء من العمل بموجب العقل، بل السير على مقتضى الطبيعة الهائجة، دون تفكُّر بأي شيء آخر، كأن الإنسان أصبح حيواناً مفترساً لا يدرك غير نهش فريسته».

ـ «إذا أردت أن تقتل إنساناً فلا تطلق عليه رصاصة بل أطلق عليه إشاعة».

من قصيدة لأمير السيف والقلم *

الأمير عادل ارسلان

. . . «أبى الحرّ وابن الحرّ نفساً ومحتداً   بلاداً يرى الأحرار فيها مواليا

حواضرُ عاف المرء فيها مقامه   وفضّل مختاراً عليها البواديا

بأعداءَ جلاّبين للشرّ جهدهم   فما يصحبون الناس إلا أعاديا

إذا طولبوا بالحقّ جاشوا وجيّشوا   فحزّوا رؤوساً أو فجزّوا نواصيا

رمونا بديناميت حتى تقلقلت   جبالٌ على حوران كانت رواسيا

فما غيّروا القلب الذي كان مخلصاً   ولا أوهنوا العزم الذي كان ماضيا

وقد خبروا وقْع السيوف بواتراً   تفلق هامات الرجال مواضيا

ودبّوا بأبراج الحديد كأنها   سلاحفُ ما يمشين إلا تهاديا

دوارعُ يلقاها الفتى وهو حاسرٌ   يصادمها بالفأس جذلانَ حاديا [1]

. . . أقول لمن يبْلو لدى الخطب صبْرَنا   ترى الصبر فينا شيمة وتواصيا

ونركب للغايات قبل خيولنا   من العزم والإقدام جُرْداً مذاكيا

إذا الوطن المحبوب فاز بحقّه   وجدنا الرزايا في هواه تعازيا»

---

* سلامة عبيد : «الثورة السورية الكبرى». مرجع سابق. ص ٤٤٠ .

١- يشير الأمير عادل في هذه الأبيات إلى ظلم المستعمرين الفرنسيين أيام انتدابهم على سورية ولبنان، والى الثورة السورية الكبرى التي قادها سلطان باشا الأطرش، وكان الأمير عادل في مقدمة المجاهدين الأشاوس. هؤلاء المجاهدون الذي كانوا يصادمون الدبابات بالعصيّ والفؤوس، ويخوضون ببسالة نادرة معارك بالسلاح الأبيض، وقد استطاعوا الوقوف في وجه الجيش الفرنسي المستعمر رغم ضآلة عَددهم وعُددهم، وتكبيده أفدح الخسائر، بشهادة الجنرال ديغول نفسه .

القائد الشهيد المعلم كمال جنبلاط

كمال جنبلاط، غنيّ عن التعريف، إنه علم من أعلام الفكر وأهل التوحيد، «دخل المعترك السياسي بعد وفاة نسيبه حكمت جنبلاط عام ١٩٤٣، ولقد أعطى فكراً للسياسة وعقلاً للعمل السياسي، جاعلاً التنظيم والتنظير قوة متماسكة وفاعلة في مجرى التاريخ، كما أغنى المكتبة العربية بمؤلفاته السياسية والفلسفية والأدبية»[١]. «وحمل لواء العروبة، حيث ساند كفاح مصر ضد العدوان الثلاثي عليها سنة ١٩٥٦، ووقف إلى جانب مصر وسوريا والأردن في مواجهة العدوان الإسرائيلي حزيران ١٩٦٧، وأيّد القضية الوطنية العادلة للشعب الفلسطيني وساند نضاله»[٢].

كان رمزاً للعروبة والتحرر، حيث يقول: «حصانة العروبة هي في نضال العرب في انطلاقتهم التحررية ونهضتهم الإجتماعية الإشتراكية.. في خطى عبد الناصر يجب أن نسير، فننهج في ضوء التيار الإسلامي الإنساني المتطور الحقيقي، المنفتح الذي يعود بنا إلى النبي العربي الكريم، وإلى تصرّف الناصري، وإلى الصحابة من البعث الأول، وإلى هدي ونهج أقطاب الولاية ومصابيح الحكمة والوفاق»[٣].

كان خير نصير للفقراء والمستضعفين، يدافع عن حقوقهم وحقوق العمال، ليضمن لهم العيش الكريم والحياة الحرّة، بعيداً عن الاستغلال، وعن الحريات الفكرية والسياسية والصحفية. وقد سلك في حياته طريق الزهد والتقشف والإصلاح الاجتماعي، رغم كونه أرستوقراطي المولد والنشأة، وقضى شهيداً «في سبيل مبادئه وأفكاره التي كان يبشّر بها، ورهن حياته من أجلها»[٤].

أما نظرته إلى الحياة فكانت كما عبّر عنها أبلغ وأصدق تعبير بقوله: «إن غرض الحياة منا وفينا هو أننا أداة مكلفة في الواقع بتحويل التيار الحيّ الزاخر بالإمكانيات إلى فكر وشعور وإشراق، وقيم حق ومحبة وجمال. ولا يعقل إلا أن نكون مع التطور ومع الحياة، مع الحرية والوعي، فالوعي هو جوهر الوجود، والحياة حق

وحبّ أيهما تبتغي فأنت في الطريق.

فالفرح العظيم يكون بملاقاة وجه الحق الكلي المتجلّي في وهج قرص الشمس، والحب الإنساني الشامل يجعل الإنسان يتجلى في كل إنسان.

وتبقى المعرفة مرآة النفس، ويبقى الفرح الانتصار على الجهل لا في معرفة أشياء أكثر. وفي مرتبة تعلو الإنسان العادي، يصبح الحدس الشامل والعقل الأرفع هو المنطلق والقاعدة والقياس والنظام.

وما الصوفيّة الحقيقية في النهاية إلا اختبار هذا الحدس، وهذا العقل الأرفع لخير معرفة، للمعرفة الأخيرة وجها لوجه، وبذا يصبح للدين في استعلائه معنى، وتكمل به معرفة الدنيا فتضيء بسراج الحكمة والعرفان. ولقد تحول تطور الحياة بفضل الوعي والحرية إلى تطور إجتماعي وأخلاقي ونفسي، هدفه استنباط القيم، وإنشاء الأنظمة الاجتماعية والأخلاقية والروحية. هذا الاستقصاء والكشف الأخير عن حقيقة الوجود، هو الذي يتوجه إليه العلم الزمنيّ والعرفان الروحي، والعمل البشري والمسلك الإنساني، والدين والفن والأدب على السواء»[٥].

أما نظرته إلى الدين، فهي أن «الدين على حقيقته من حيث هو باب يشرف منه الانسان على حقيقته التي هي حقيقة الوجود، نور يبدّد عتمة المعتقدات ويتعداها.. فالدين مسلك وطريق، وليس غاية وقبْلةً ومحَجّة. وما التوحيد في كل دين إلا انطلاق المتعبد من قواعد الإعتقاد والسَنَن المجَاهدة، والعمل بالخير إلى مناجاة تلك الوحدة. فتعلّمتُ عن العقل الأعلى بالاختبار الصوفي، وهو الاختبار الذي من شأنه خلق الوحدة الحقيقية»[٦].

وفي هذا المعنى يقول ـ شعراً ـ

«شربنا المدامة حتى سكرنا فلما سكرنا طلبنا المزيدْ
أحبّك مولاي حباً يحطم مني قيد الألوهة وقيد العبيد»[٧].

المراجع :

(١) «كمال جنبلاط، مسيرة قائد وتاريخ شعب». المركز الوطني للمعلومات والدراسات. الدار التقدمية، المختارة. بيروت. طبعة أولى ١٩٩٠ . ص ٨

(٢) المرجع نفسه ص ٧و٨ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٠٢ . - (٤) وليد جنبلاط : نفس المرجع ص ٣ .

(٥) مسيرة قائد، المرجع السابق ص ٢٧٤ - (٦) المرجع نفسه ص ٢٨٠ .

(٧) المرجع نفسه. ص ٢٨٩ .

عندما بكى المعلم كمال جنبلاط

يقول الأستاذ وليد عوض في كتابه «عبد الله المشنوق يتذكر» : *

. . . «كان ذلك في أول وزارة شكلها الرئيس صائب سلام عام ١٩٦٠ ، بينما ولّي فيها الأستاذ جنبلاط مقاليد وزارة التربية. فجاء إلى إحدى جلسات مجلس الوزراء ومعه مشروع قرار تعيين خمسمئة معلم جديد من أصل مجموعة من الفائزين في امتحانات أجراها لهذا الغرض ، وكله رغبة في أن يصادق مجلس الوزراء على مشروع القرار ، فيأخذ طريقه إلى النور .

لم يستقبل الوزراء مشروع جنبلاط بالترحاب . . بل اعترض فريق منهم على تعيين خمسمئة معلم هكذا مرة واحدة ، بحجّة أن الخزينة خاوية ، وليس هناك اعتمادات كافية لتحقيق المشروع .

ولاذ كمال جنبلاط بالصمت ، بعد أن سقط مشروعه في مجلس الوزراء ، ووضع وجهه بين راحتيه . . . وكانت لحظات رهيبة !! .

فالرجل كان يبكي بصمت !!

ولما اكتشف أن عيون الجالسين ، من الرئيس فؤاد شهاب ، إلى رئيس الوزراء صائب سلام ، إلى الوزراء . . . قد استقرّت عليه تُسائلُ عما أصابه ، وتشاركه الدموع ، تحامل على نفسه وقال : أنا أبكي لأنني لم أكَن أنتظر منكم هذا الموقف السلبيّ على الإطلاق . أبكي لأن هناك أطفالا وأولاداً بلا مدارس ، وانتم ترفضون أن تؤمنوا لهم المدارس ، لماذا ؟ لمجرد أسباب غير مقنعة . . .

وتبدّل الموقف . . . وإذا الوزراء جميعاً يجمعون على إعطاء كمال جنبلاط ما يشاء من اعتمادات في سبيل أن يتأمن تعيين المعلمين الخمسمئة . لقد كانت دموع الرجل صادقة ، ولذلك أبكانا جميعاً دون استثناء ، بمن فيهم الشيخ بيار الجميل .

*وليد عوض : «عبد الله المشنوق يتذكر» . الدار الأهلية للنشر والتوزيع . بيروت . ١٩٨١ . ص ٩٤ـ٩٥

يومئذ اكتشفت جانبا جديداً من شخصية كمال جنبلاط . . إكتشفت جنبلاط الإنسان، بعدما اكتشفت جنبلاط السياسي . وهكذا عرفته إنساناً (أوريجينال)» .

شذرات للمعلم الشهيد كمال جنبلاط

. . . لا نجد أفضل من هذه اللوحة الجامعة لمفاهيم النداء والاستشهاد والمحبة، يتلاقى فيها سقراط شارب السمّ وهو يبتسم ويسخر، والناصري المصلوب، وهذا الوليّ المسلم الحنفيّ (*) السنّي الأصل، وقد واجه السيّاف وهو يقهقه ضاحكاً، ثم ارتفعت به المناجاة العجيبة:

«اللهم إنك المتجلّي عن كل ناحية، والمتخلّي من كل ناحية، بحقّ قيامك بحقّي، وبحق قيامي بحقّك، وبحقّ قدَمك على حَدَثي، وحق حَدَثي تحت ملابس قدَمك، أن ترزقني شكر هذه النعمة التي أنعمت بها عليّ، حيث غيّبت أغياري عما كَشفت لي من مطالع وجهك، وحرّمت على غيري ما أبَحْتَ لي من النظر في مكنونات سرّك. وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصّباً لدينك وتقرّباً إليك، فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم بما كشفت لي، ما فعلوا بي ما فعلوا. ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت به. فلك الحمد في ما تفعل، ولك الحمد في ما تريد» [1].

. . . .

«النصراني شريك المسلم، والمسلم شريك النصراني، شاء أم أبى. . . فبين الإسلام والنصرانية، في الشرق كما في الغرب، عقد لا ينفصم، في الواقع، أكان في اتجاه وحدانية الوجود وتوحيده، أم كان ذلك في الإشراك في العيش ونضال الحياة، وطلب المصير، أم كان ذلك في حقل الحضارة» [2].

. . . .

(على لسان غاندي): «إنني أؤمن بالتجليات الإلهية في بعض البشر، (وهو التجسّد لكن في معنى منعكس وخاص يماثل التألّه) وأؤمن بانتقال الأرواح وولادتها من جديد».

(*) الوليّ المسلم هو الحلاّج ـ الصوفيّ المشهور ـ.

ـ «العقل الذي أبدع العلم هو أعظم من العلم ذاته، والإنسان فينا الذي حوى العقل واستنبط شرائع المادة والكون هو أعظم من هذا العقل الصغير»(٣).

«الحضارة الخارجية ليست بحضارة. لا ينفع الإنسان أن يكون متمدناً متحضراً في خارجه، بل عليه أن يكون متحضراً متمدناً في داخله» (٤).

«بعضنا يتصور خطأً أن ذهنية التطور تفرض عليه أن يتبنّى كل جديد، ويسير في ركابه، ويسمي ذلك تقدماً وتقدمية، وأن يتنكّر لكل ماضٍ أو واقع قائم، ويسمي هذا رجعية وتخلفاً... التطور هو تطور الإنسان والإنسانية فينا نحو غاياتها الأخيرة.. إن التقدم لا يعني هدم البيت الذي عمّرته أجيال متتالية من البشر، لأجل بناء بيت جديد... بل التقدم يعني أن نفيد من إرث الأجيال واختبار البشرية التي سبقتنا، وذلك في جميع حقول التفكير والاعتقاد والشعور والفنّ وعادات العيش، وتُشذّب وتُصلح وتقوّم لتعود فيكتمل البناء وتزيد في قيمته وصلاحه وروعته» (٥).

«إن الحياة تولد من الموت على الدوام، ولا يوجد في هذا المستوى تناقض بين الموت والحياة. إنما كل شيء يتحول إلى عكسه، كأنما اليد الخفيّة، أو فكرة تصميم الطاقة المكوّنة، تأخذه لتعجنه من جديد وتنظمه في عقد الوجود الحيّ» (٦).

«على المسيحيين، أن يفهموا ويدركوا أن مقام عيسى ـ المسيح ـ هو ضخم وفي مرتبة الصدارة، وذو أهمية بالغة ـ وهو ذاته المهدي المنتظر ـ مسيح الحقّ، على حدّ تعبير إخواننا الموحدين، الذي سيأتي في آخر الأزمنة ليقضي على الظلم، وينزل ملكوت العدل والمساواة في جميع أنحاء الأرض ـ علّهم يفسحون في تصوراتهم وشواعرهم شيئاً مما يقتضيه هذا الانعكاس في القرآن للناصريّ ولأمه مريم من وفاء..» (٧).

«الإنسان الحقيقي ليس له وطن، وهو أخ للإنسان أينما كان».

«المحبة واحدة وهي ذاتها: محبة الله والتوجه إليه أو محبة الإخوان وخدمتهم، جوهرها واحد، وهدفها الباطن والبعيد واحد ـ ألم يقل الناصريّ: «أحبوا بعضكم

بعضاً» ؟ هي القاعدة الأولى والأخيرة والوحيدة، هي الشريعة والناموس»[٨].

. . . .

«البطولة شغف أصيل وجوع مقيم في النفس لا يرتضي إلا الأعمال البطولية طعاماً، وهي لا تولد ولا تنمو إلا إذا غرسنا أديم الأرض ببذور البطولة»[٩].

«إن الأقلية الوطنية الواعية هي وحدها التي تستطيع تطوير مفاهيم الأمة، ودفع المجتمع بطابع الحياة والتقدم والإيمان والقوة. ولا قيمة للأكثرية في وجه هذه الخميرة الفاعلة. والقوة في معناها «المزدوج» ـ القوة المعنوية والقوة المادية ـ هي «القاطرة» التي ترفع بالنضال الشعبي وبروحيته فوق مستواه العادي المتعثر، وتدفع بالشعوب وبالتاريخ أجيالاً إلى الأمام»[١٠].

«الإنسان المواطن لا يستطيع أن يعيش على أفضل ما يفتح عليه العيش من قيم إنسانية للحق والخير والشجاعة والفضيلة والانتظام المعنوي، إلا إذا تداخلت في حياته روح الجماعة، واستيقظت أفكاره وإرادته ونزعاته الخاصة وأفعاله إليها، فعاش وعمل وناضل ما أمكن لأجل الآخرين لا لأجل نفسه»[١١].

«كم يحلو لنا أن نرتقي بصغائرنا وما نحن عليه من أنانية إلى هذا المرتكز من الشعور والتفكير والعمل الذي نتخلى فيه من التصورات المتحجرة التي تداخلت في مفاهيمنا للايمان وللحياة، ومازجت وشوهت بصيرتنا عبر العصور . . . وأولها أن نقبل بأن نكون، وسط الثروة والبحبوحة وسهولة الأعمال، كمن يعيش وسط حلم من أحلام الدنيا والآخرة، عيْن على ما نحن فيه، وعين على ما هو عليه غيرنا من شقاء وجهل وانعدام. . وأن يقوم بيننا أو يكثر بيننا رجال دين ودنيا حقاً، يستطيعون أن يتجردوا من ملكوتهم الزمني، أو على الأقل تتعلق بهذا الملكوت (الفاني على حد تعبيرهم) لكي تتوفر لهم السلطة الفعلية والملكوت الايجابي الواقعي لنشر روح المحبة والتعاون والحقيقة والفضيلة»[١٢].

«إن الحقد الحقيقي ـ لا الحقد الفرديّ ـ لأجل الحق، أي الحقد المتجرد عن الأهواء وعن فرديّة الأنا، إنما هو في الحقيقة صلاة . . ولكن حذار أن ينسفل بنا الحقد

وننسفل به إلى مستوى أهوائنا، ومحدودية أنانيّتنا الظاهرة الفردية، فنكون قد وضعنا «الحقد الخيّر» في غير مقامه، فيأخذ في نفث سمومه فينا . . . وويْحٌ للعقائد التي تستخدم مثل هذا الحقد العادي المنسفل، في فلكها الهدام . . . فعلى البغضاء لا يقوم صرح، ولا ينبت زرع، ولا يستقيم منهج، ولا يرتوي عطش الإنسان الوجداني فينا»[١٣].

. . . .

«قضية الحرية هي قضية الإنسان منذ أن وُجد، تستقطبه ثم لا يلبث أن يستولي عليها، ثم يرهقها ويقيدها أو يعبث بها أو لا يقدّرها، أو يمارسها على غير هدى ودون إطار من التقدم المادي والحرمة المعنوية والمسؤولية الاجتماعية، فترتدّ لتنتقم منه، ثم يعود فيندرج في مسالكها وأسبابها، ثم يؤوب إلى استئثاره وعتبه، ثم ترجع هي لتتأثر باسم القيم الإنسانية الدائمة. وهكذا دواليك . . كأن التاريخ بأسره تناقض جدليّ قد صُنع من هذا الصراع بين الانسان وواقعه وبين الحرية»[١٤].

«خطيئتنا الكبرى هي أننا نتطلع دائما إلى الماضي الذي جعلنا منه صنماً في هيكل الأصنام الذي نتعبّد. لن تستطيع الشعوب العربية والشرقية أن تنهض وأن تتخلص إذا لم ترتفع بالأمل، وتتسوق بالنزعة إلى ما فوق الأوثان وما هو فوق المعتقدات والقوميات والعنصريات والتكتلات، وإلى ما هو أثمن من التراث ومن الفلسفة، والغنى والعلم لا يعادله إلا الوحي والإشراق ولولاه لما أنعم به الله ، وهذا الشيء هو الإيمان بالحياة. والإيمان بالحياة هو الإيمان بالتطور، فلولا التطور لما كانت الحياة» [١٥].

«الحرية الشخصية، حرية القول، حرية الاجتماعات الهادئة، حرية الفكر، حرية العبادة . . كل هذه الحقوق والحريات محببة وجميلة. ولكن يجب أيضاً أن نتمكن عملياً وواقعياً من التمتع بهذه الحقوق والحريات.

أعني أن نتمرّس بالحرية الشخصية، أن نبلغ منزلة من العيش والتثقيف، تفسح لنا في مجال التفكير والانتاج العقلي بغير رفاقنا من أبناء السبيل ومعوزي الأزقّة، وأخيراً، أن نقدر على رفع النفس للعبادة عندما نرى بؤسنا وبؤس أولادنا، وهم

نصف عراة، فيصعد من أعماقنا ـ رغم إرادتنا وأنانيّتنا ـ لعنة وحقد . . ». (أحاديث عن الحرية . مرجع سابق . ص ٨٤ ـ ٨٥ .

«القلم بالمعنى القرآني» أو «الريشة» بالمعنى التقدمي، يشيران إلى «العقل الأرفع» .

«في مسيرة التحرر الكبرى يتساقط الشهداء، وينطوي علم الأبطال المحدّد، تتزكّى بعبير دمائهم، وترتفع شعلتها بقرابين تضحياتهم، وتتقدم في سعيها مقاصدهم واستشهادهم» . . (احاديث عن الحرية). ص ١٨٥ .

ومن أقواله نقلاً عن كتاب «كمال جنبلاط واليوغا» لمؤلفه د . قيس غوش . (مرجع سابق) [١٦]:

«لا توجد إلا حكمة واحدة هي معرفة العقل، أي جوهر الأشياء الذي يقود الكل عبر الكل» .

«إن الأمراض التي تفتك بالانسان هي نتيجة أعماله السلبية وتجاوزه للنظام الكوني». ص ٤٠ .

. . « النور الحقيقي ليس ما تراه عيوننا من أشياء حسيّة، بل هو النور الذي ندركه ببصيرتنا . وكل امرئ يدرك حسب منظوره، وانفتاح مجال رؤيته، وحسب كثافة أو لطافة عقله». ص ٣٥ .

«إن طريق خلاص الإنسان هي في الترقي الروحاني، والترقي الروحاني بحاجة الى المعرفة والمحبة». ص ٢٠ .

«إذا أراد الطالب أن يرتقي عقله، وأن يصفو جنانه أكثر، وأن تدوم بهجته وتطول سعادته، فما عليه إلا بالتوحيد الحقيقي مسلكاً، أي بعرفان الحكمة» ص ٣٥ .

. . الموت غير موجود ـ بمنظور جنبلاط ـ فهو يعتقد بـ : «إن الروح خالدة غير قابلة للموت . وإنما الموت هو انفصال وقتي بين الجسد والروح، ويعود من جديد

متخذاً جسداً آخر . . . وإن هناك ارواحاً خيّرة وأرواحاً شريرة . كما أن العالم الأرضي يحفل بالخير والشر ، كذلك العالم السماوي . . كما أن كل كائن بشري فيه ميول ونزعات خيّرة وشريرة» . ص ٦٩ ، نقلاً عن مقال لكمال جنبلاط في جريدة الديار ١٤/ ١٠/ ١٩٧٤ عدد ٧٧ ص ٣٥-٣٦ .

«اللذة والألم هما كوجه العملة وظهرها» . ص ٢٢٤ (نقلا عن كتاب «أدب الحياة» لجنبلاط .

- ويقول جنبلاط في احدى قصائده في كتابه «فرح»

«أموت ولا أموت فلا أبالي فهذا العمر من نسج الخيال» . ص ٢١١ من المرجع السابق للدكتور غوش .

المراجع :

(١) - كمال جنبلاط : «فيما يتعدّى الحرف» . الدار التقدمية . طبعة ثالثة ١٩٨٧ . ص ٢٨
(٢) - المرجع نفسه . ص ٣٩
(٣) - المرجع نفسه . ص ٩٨
(٤) - المرجع السابق نفسه . ص ٨٠
(٥) - نفس المرجع . ص ٩٧و١٠٢
(٦) - نفس المرجع . ص ١٠٦
(٧) - نفس المرجع . ص ٢٥
(٨) - الحياة والنور . الدار التقدمية . طبعة ثانية ١٩٨٧ . ص ١٥
(٩) - كمال جنبلاط : «حقيقة الثورة اللبنانية» . الدار التقدمية . طبعة رابعة ١٩٨٧ . ص ٥٢
(١٠) - المرجع نفسه . ص ٦٨و٦٩
(١١) - المرجع نفسه . ص ٩٧و٩٨
(١٢) - المرجع نفسه . ص ١٠٥
(١٣) - كمال جنبلاط : «في الممارسة السياسية» . الدار التقدمية . طبعة ثانية ١٩٨٧ . ص ٨٧
(١٤) - كمال جنبلاط : «أحاديث عن الحرية» . الدار التقدمية . طبعة ثانية ١٩٨٧ . ص ١٦و١٧
(١٥) - المصدر السابق . «أحاديث عن الحرية» . ص ٣٨
(١٦) - د . قيس غوش : «كمال جنبلاط بين اليوغا والحكمة الهندية» . مرجع سبق ذكره .

خاتمة

دعوة إلى المحبة.

«لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» (صدق الله العظيم).

هذه إذاً مشيئة الله عزّ وجلّ، بأن يكون الناس شعوباً وأمماً وطوائف ومذاهب متعددة. غير أن الاختلاف والتعدّدية تجمعهما حقيقة واحدة، ألا وهي: أنه سبحانه وتعالى هو خالق السماوات والأرض، ومن وما عليهما، وأنه واحد أحد لا شريك له، «يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير».

فالأديان والمذاهب كالجداول تتجمع لتشكل نهراً واحداً يصب في مصبّ واحد، - وإن اختلفت التشريعات والعقائد - فجوهر الأديان جميعها هو عبادته تعالى والإيمان بوحدانيته وملائكته ورسله، والايمان باليوم الآخر وكتبه المنزلة. هذا ما أجمعت عليه كافة الأديان، وما احتوته الكتب المقدّسة المُنْزلة - اللهم إلا من كان ملحداً أو مشركاً -.

فما كان الانبياء والمرسلون إلا هداية للناس يرشدونهم إلى طريق الخلاص، وإن تشعّبت هذه الطرق إلى مفارق ومقاطع فالهدف واحد. وكلٌّ يسلك الطريق التي اختارها أو التي رُسمت له، ليصلوا جميعاً في نهاية المطاف الى الهدف المنشود: توحيد الخالق وإطاعة أوامره والابتعاد عن نواهيه، والقيام بالأعمال الصالحة التي ترضيه وترضي الناس، فتكون زاداً للآخرة ومفخرة في الدنيا.

ناهيك عما تأمر به جميع الأديان وتدعو إليه، وما تحتويه الكتب المقدّسة من حثّ على الخير والمحبة والإحسان، وتمسّكٍ بالفضائل والابتعاد عن الرذائل، وأمرٍ بالمعرّوف ونهيٍ عن المنكر...

ولقد اطلعت على كتاب «لقاء المسيحية والإسلام» لمؤلفه الكاتب الأديب نصري سلهب، ورأيت من الفائدة بمكان أن أختتم كتابي هذا ببعض ما ورد في الكتاب

المذكور حول هذا الموضوع، حيث أنه يتضمن دعوة خالصة وصريحة إلى «المحبة والانفتاح والاحترام المتبادل».

والكتاب عبارة عن مجموعة محاضرات للمؤلف ألقيت في مناسبات عديدة وأماكن عدّة. أما المحاضرة التي نحن بصددها فقد ألقيت في دير سيدة الكمال في ذوق مكايل بتاريخ الأحد ١١ أيار ١٩٦٩. واليكم بعض ما ورد فيها:

يقول المحاضر:

* ... «كانت المسيحية قبل الإسلام ببضع مئات من السنين، ولهذا السبب لم يكن للإسلام ذكر في الإنجيل، ولا في أي سفْر من أسفار العهد الجديد». وعندما أنزل القرآن الكريم وردت فيه سور وآيات كَثيرة عن المسيحية والمسيحيين، وعن المسيح ومريم العذراء والإنجيل. والآية التي أستطيب ذكرها (يقول المحاضر) هي التي تنبع سماحاً، إذ تقول:

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنّا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد فنحن له مسلمون (العنكبوت/ ٤٦/).

ذلك ما يقوله المسلمون للمسيحيين، وما يؤمنون به لأنه كلام الله إليهم ... وكتاب الله واحد (من حيث الجوهر) أنزله على جميع الأنبياء والمرسلين.

«كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيّين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه...» (سورة البقرة/ ٢١٣).

هذا الكتاب أنزله الله قرآناً كما أنزل، من قبل، التوراة والإنجيل:

«نزّل عليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدىً للناس وأنزل الفرقان» (آل عمران/ ٣و٤).

---

* نصري سلهب: «لقاء المسيحية والاسلام». دار الكتاب العربي. بيروت ـ لبنان. ١٩٧٠. ص ٥ـ٥٦ (بتصرّف).

ولهذا السبب يؤمن المسلمون إيماناً واحداً بالكتب المنزلة كلها. فبهذا أمرهم الله في قرآنه:

«يا أيها الذين آمَنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يَكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً» (سورة النساء/ ١٣٦).

وكما أن الكتاب واحد فالدين أيضاً واحد في جميع الكتب ومع جميع الأنبياء والرسل.

وهذا الدين الواحد هو الدعوة إلى الله، الإله الواحد، والآيات في هذا المعنى كثيرة. وهذه الدعوة إلى الله هي التوحيد أو الإسلام...

«أفَغَيْرَ دين الله تبتغون وله أسلم من في السماوات والأرض طَوْعاً وكرْهاً وإليه يرجعون. قل آمنّا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتيَ موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» (آل عمران/ ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٥.

فالإسلام هو التوحيد، هو دين الله، الذي يخضع له من في السماوات والأرض، والدين الذي أُنزل على الأنبياء جميعهم كما أنزل على النبي الكريم (صلعم). ومن يبتغِ غير الإسلام ـ غير دين الله، غير التوحيد ـ فهو من الخاسرين في الدنيا والآخرة.

... قال الأسباط ليعقوب:

«نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون» (سورة البقرة/ ١٣٣).

والمسيح وأنصاره الحواريّون هم مسلمون:

«فلما أحسّ عيسى منهم الكفر (أي من اليهود) قال مَنْ أنصاري إلى الله قال الحواريّون نحن أنصار الله. آمنّا بالله وأشهد بأنّا مسلمون»

(آل عمران٥٢/). (والحواريون هم أول المؤمنين بالمسيح).

. . . وهكذا يتبين من خلال القرآن، أن أهل الإنجيل وأهل القرآن كلهم مسلمون، أي موحدون، مؤمنون إيماناً واحداً بالله واليوم الآخر.

وإذا كان جوهر الدين واحداً ـ وهو الايمان بالله وباليوم الآخر ـ فلا يؤثر فيه اختلاف في الشريعة، وهو اختلاف أراده الله (سبحانه) عن قصد، وهو، على كل حال، لا يمسّ الجوهر. (ويدعو إلى التعارف والتفاهم بين الشعوب والقبائل واستباق الخيرات).

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (الحجرات/ ١٣).

«لكل جعلنا منكم شُرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن لِيَبْلُوكم فِّي ما آتاكم فاستبقوا الخيرات. . »(المائدة/ ٤٨).

وكذلك قوله تعالى :

«وقَفّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونور ومصدّقاً لما بين يديه من التوراة وهدىً وموعظةً للمتقين. ولْيحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» (المائدة/ ٤٦و٤٧).

. . . أما نظرة القرآن إلى المسيحي فهي نظرته إلى مؤمن يحظى عند الله بما يحظى به المسلم نفسه، وفيما يلي الدليل على ذلك :

«إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (البقرة/ ٦٢).

. . . وإذا كان التاريخ منذ نشوء الإسلام حتى اليوم، قد سجّل في صفحاته نزاعات وحروباً مؤسفة ومؤلمة وقعت بين مسيحيين ومسلمين، فليس من المحتوم أن تكون الأسباب العميقة والخفيّة لتلك الحروب ذوات طابع دينيّ، إنها السياسة

والطموح الزمني والأمجاد الباطلة وحب السيطرة والنفوذ، فيها وما بينها نفتش عن الأسباب.

ومهما يكن من أمر، فإذا كانت حروب وقعت بين مسلمين ومسيحيين، فإن حروباً أخرى أوسع نطاقاً وأعمق أثراً وأكثر عدداً وأبلغ ضرراً قد وقعت بين مسيحيين ومسيحيين، وهي، كما لا نجهل، أفظع الحروب على إطلاقها وأكثرها هولاً.

لقد تصارعت المسيحية والإسلام عبر التاريخ أكثر من مرة، وتعايشا وتحابّا وتفاهما خلال حقب طويلة. وفي النهاية أدرك المسيحيون والمسلمون أنهم جميعاً أبناء الله يؤمنون به وباليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف والرفق والإحسان وينهون عن المنكر والباطل والظلم والجور. واستقرّ في أذهان الجميع أن الدين والإيمان لا يمكن أن يشكلا سبباً للخلاف والتباعد، بل على العكس من ذلك، إنهما الحقل المشترك الذي يلتقي فيه الجميع.

وإذا كان التاريخ قد سجلّ على المسلمين تحويل بعض كنائس إلى جوامع، فإن أجمل جوامع إسبانيا قد حوّلت إلى كنائس. ولا ضيْرَ على هذه ولا على تلك، فكلها أماكن عبادة . . .».

ويختتم المحاضر بقوله :

. . . «ولما انطلقت في مطالعة القرآن وشروحاته، أدركت الحقيقة التي كانت خافية عليّ، ولمست أن الإسلام يكرّم المسيحية والمسيح ومريم، وأنه دين الله ينطوي على روحية كبرى. وهكذا بدأت المعرفة تُملي عليّ اللقاء. . . وأدركت السبب الذي يجعلني أشعر نحو المسلم بهَذه المحبة الخالصة. ذلك السبب هو أني، من مسيحي بالقول أصبحت مسيحياً بالفعل. وعندما أصبحت مسيحياً بالفعل أصبحت محبّاً وأصبحت وصية المسيح زادي في هذه الحياة : «أحبّوا بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم ليعلم الجميع أنكم تلاميذي».

«أحبّوا مبغضيكم، باركوا لاعنيكم. . »

فإذا كانت هذه وصية المسيح بأن نحب مبغضينا ونبارك لاعنينا، فما تراها تكون وصيته بالنسبة لأولئك الذين جاء قرآنهم يكرّم المسيحية والمسيح، ويمجّد العذراء مريم كما لم يمجدها كتاب على الإطلاق.

. . . لو كنت أنطق بلسان الناس والملائكة ولم تكن فيّ المحبة فإنما أنا نحاس يطن أو صنْج يرنّ. ولو كانت لي النبوّة وكنت أعلم جميع الأسرار والعلم كله، ولو كان لي الإيمان كله حتى أنقل الجبال ولم تكن فيّ المحبة فلست بشيء. ولو بذلت جميع أموالي لإطعام المساكين، وأسلمت جسدي لأُحرق، ولم تكن فيّ المحبة فلا أنتفع شيئا». (انتهى).

لقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: «لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك أن منهم قسّيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون» (سورة البقرة/ ٨٢).

فاليهود ـ الصهاينة ـ هم أعداء هذه الأمة منذ ظهور المسيحية ونشوء الاسلام وبعدهما، وما زالوا حتى اليوم يعيثون في الأرض فساداً، يثيرون الفتن والحروب، على اعتبارهم أنهم «شعب الله المختار» !! يبثّون السموم ويحرّفون الدين وفقاً لنزعتهم العنصرية، وبأحابيلهم السياسية التي لم تعد تنطلي على أحد ـ اللهم إلا على الذين يسيرون في فلكهم ـ من شعوب ودول ذوات مصالح خاصة ومنافع شخصية ـ، ضاربين بعرض الحائط مصالح الشعوب الأخرى وحقوقهم المشروعة، مغتصبين أرضهم ومنكّلين بأبنائها، تنفيذاً لمآربهم ومصالحهم الفردية، لا يرعون حرمة ولا يراعون قوانين ولا يردعهم ضمير. أما الذين قالوا إنا نصارى فهؤلاء هم أقرب الناس مودة للمؤمنين الذي آمنوا بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر.

فعلينا إذاً أن نعي هذه الحقيقة لتكون دستوراً لنا في حياتنا المشتركة، ومنهجاً لسلوكنا وتعايشنا، فننصهر جميعاً في بوتقة واحدة ـ وحدةٌ وطنية وتعايشٌ مشترك ـ حيث يجمعنا وطن واحد، ويوحد بيننا لسان عربي واحد، وأن نكون موحَّدين قولا وفعلاً، «ونتخطّى ما يعتور بعض النفوس من حقد وتعصب، فالمؤمن الحقيقي ـ مسلماً كان أو مسيحياً ـ لا يمكن أن يعرف التعصب إليه سبيلا، فالإيمان والتعصب

ضدان لا يجتمعان».

«وعلينا أن نتحرر من تلك الرواسب ونحطم قيوداً كبّلت أفكارنا قبل أيدينا لنسير في طريق جديد: طريق الانفتاح والتفاهم والمحبة بعيداً عن كل غلوّ ومغالاة وتطرف» (نصري سلهب).

إن الطائفية والتعصب الطائفي أو المذهبي يولدان البغض والحقد والكراهية، ويسببان الفتن والمنازعات التي تشلّ حركة التطور والازدهار، وتقف سداً في وجه الأمن والسلام والاستقرار، وبالتالي تقود إلى الخراب والقتل والتدمير.

ونحن اليوم - في لبنان خاصة والبلاد العربية عامة - بأمسّ الحاجة إلى التعاون وتوحيد الصف والكلمة - فعلاً لا قولاً -، وبحاجة إلى دعوات كهذه تنمّ عن روح المحبة والتفاهم والتسامح.

لقد خمدت نار الفتنة التي هبت على الوطن - مهما كانت أسبابها ودوافعها -، وسكتت المدافع، وجاء دور الإعمار والبناء، بعد أن عادت الحياة إلى شبه طبيعتها، وأمن الناس على أرواحهم وممتلكاتهم بفضل جهود المسؤولين والمخلصين، ووعي المواَطنين بالعودة إلى قيَمهم الأصيلة. فلْننبذ إذاً الأحقاد، ولْننسَ الماضي ومآسيه، لكي تعود المحبة إلى نفوس الجميع، ويرفرف علم الإلفة والوئام فوق رؤوسنا، سيما ونحن أمام استحقاقات مصيرية مشتركة، عليها يتوقف مستقبل الوطن العربي ككل ولبنان بالأخص، وعليها يتوقف تثبيت الأمن ومسيرة التطور والإزدهار. وعندها يطمئن المواطن وتعمّ الطمأنينة جميع النفوس، فينصرف الجميع إلى التعاون في سبيل بناء الوطن وازدهاره، يداً واحدة وقلباً واحداً. وفي هذا منتهى العيش الكريم والمستقبل الزاهر. و «لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم». وليكن شعارنا: «الدين لله والوطن للجميع»، إذ أن «الخلق كلهم عباد الله وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله».

مصادر الكتاب

ـ آدم فوكس : «أفلاطون والديانات السماوية». ترجمة شوقي تمراز. منشورات الأهلية للتوزيع والنشر. بيروت ١٩٩٤ .

ـ د. إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة د. عبد الغفار مكاوي : ترجمة لكتاب «المعتقدات الدينية لدى الشعوب» لمؤلفه «Geoffrey Perrinder». عالم المعرفة، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. العدد ١٣٧ . مايو/ أيار ١٩٩٣ .

ـ القاضي أمين طليع : «الواقع الدرزي وحتمية التطور» مجموعة محاضرات. منشورات رابطة العمل الاجتماعي. بيروت ١٩٦٢ .

ـ أمين طليع : «التقمص» منشورات عويدات. بيروت ـ باريس. سلسلة «زدني علماً».

ـ اسكندر الرياشي : «الأيام اللبنانية». شركة الطبع والنشر اللبنانية. بيروت. بدون تاريخ.

ـ بشير النكدي : «مجلة الميثاق» تصدر عن مؤسسة بيت اليتيم الدرزي. الجزء الرابع نيسان ١٩٨٢ .

ـ الشيخ جميل ابو ترابي : «مخطوط البستان». ٢٩/ ٦/ ١٩٨٣ .

ـ الدكتور جميل صليبا : «تاريخ الفلسفة العربية». دار الكتاب اللبناني. بيروت. طبعة ثانية ١٩٧٣ .

ـ حسن ابراهيم ود. طه أحمد شرف : «المعز لدين الله» ـ دون تاريخ ولا دار نشر

ـ حسن أمين البعيني : «سلطان باشا الأطرش ـ مسيرة قائد في تاريخ أمة» منشورات لجنة الاعلام في الإدارة المدنية في الجبل. ١٩٨٥ .

ـ حنا الفاخوري و د. جميل جبر : «تاريخ الفلسفة العربية» منشورات مؤسسة بدران. بيروت ـ لبنان (دون تاريخ).

ـ الذبياني : «التقمص» مطابع بيبلوس الحديثة. أول آذار ١٩٦٧ .

- د. سامي مكارم: «أضواء على مسلك التوحيد». المقدمة بقلم كمال جنبلاط، دار صادر. بيروت ١٩٦٦ .

- د. سامي مكارم: «الشيخ علي فارس» رضي الله عنه. المركز الوطني للدراسات والمعلومات الدار التقدمية - المختارة - والمجلس الدرزي للبحوث والإنماء. طبعة أولى ١٩٩٠ .

- د. سامي أبو شقرا: «عقيدة الدروز في عمق جذورها ومقوماتها وأعلامها». مطابع شركة الخدمات الصحافية والطباعية. بيروت ١٩٨٧ .

- سعيد حمود ملاعب: «حضارة الحكمة والحكماء عبر العصور» الجزء الثاني طبعة أولى ١٩٨٥ . دون ذكر لدار النشر.

- د. سعود المولى: «بنو معروف، أهل العروبة والاسلام». المجلس الدرزي للبحوث والإنماء. دار العودة - بيروت. طبعة أولى ١٩٩٠ .

- سلام الراسي: «جود من الموجود» مؤسسة نوفل - بيروت. طبعة أولى ١٩٩١ .

- سلامة عبيد: «الثورة السورية الكبرى» مطابع دار الغد - ١٩٧١ .

- شمس الدين الشهرزوري: «تاريخ الحكماء». تحقيق د. عبد الكريم شويرب. منشورات جمعية الدعوة الاسلامية العالمية. ليبيا ١٩٨٨ .

- د. صالح زهر الدين: «أسرار من التاريخ، الدبلوماسية السوداء» دار الكاتب. بيروت طبعة أولى ١٩٨٥ .

- د. صالح زهر الدين: «تاريخ الموحدين المسلمين الدروز» المركز العربي للأبحاث والتوثيق. بيروت. طبعة أولى ١٩٩١ .

- د. عارف تامر: «المنصور بالله» دار دمشق - دار الجيل. طبعة أولى ١٩٨٠ .

- د. عارف تامر: «الحاكم بأمر الله» دار الآفاق. طبعة أولى ١٩٨٢ .

- د. عارف ابو شقرا: عن مجلة «أوراق لبنانية» لصاحبها يوسف ابراهيم يزبك. المجلد الأول - الجزء الثالث. آذار ١٩٥٥ .

- عارف النكدي: عن مجلة «الميثاق» مصدر سابق. الجزء الرابع. نيسان ١٩٧٤ .

- د. عباس أبو صالح، بالاشتراك مع د. سامي مكارم: «تاريخ الموحدين الدروز

السياسي في المشرق العربي». المجلس الدرزي للبحوث والانماء بيروت. ط١ / ١٩٨٠ .

ـ الشيخ عبد الله يوسف زين الدين : «كتاب مفتوح، الردّ على الكاتب أنيس منصور». مطبعة زيد بن ثابت. دمشق. (بدون تاريخ).

ـ عفيفة صعب : محاضرة من كتاب «الواقع الدرزي وحتمية التطور». مصدر سابق.

ـ عبد الرحمن بدوي : «شخصيات قلقة في الإسلام» ـ وكالة المطبوعات ـ الكويت. طبعة ثالثة ١٩٧٨ .

ـ الإمام الغزالي : «المنقذ من الضلال» تعليق وتصحيح محمد جابر ـ من علماء الأزهر الشريف ـ. مكتبة الجندي. بدون تاريخ.

ـ فؤاد النجار : محاضرة بعنوان «القيم الأخلاقية في الريف اللبناني» من كتاب «الواقع الدرزي وحتمية التطور». مصدر سابق.

ـ فارس زرزور : «البطولات، معارك الحرية». طبعة ثانية ١٩٧٦ (بدون دار نشر).

ـ د. قيس غوش : «كمال جنبلاط بين اليوغا والحكمة الهندية». منشورات جروس برس طرابلس ـ لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩٥ .

– كمال جنبلاط : «فيما يتعدى الحرف» المركز الوطني للمعلومات والدراسات. الدار التقدمية. المختارة ـ بيروت. طبعة ثالثة ١٩٨٧ .

٢ـ «حقيقة الثورة اللبنانية». الدار نفسها، طبعة رابعة ١٩٨٧ .

٣ـ «في الممارسة السياسية». الدار نفسها، طبعة ثانية ١٩٨٧ .

٤ـ «أحاديث عن الحرية». نفس الناشر. طبعة ثانية ١٩٨٧ .

ـ محمد خليل الباشا : «معجم أعلام الدروز» المركز الوطني للمعلومات والدراسات. الدار التقدمية. المختارة. بيروت. المجلد الأول. طبعة أولى ١٩٩٠ .

ـ محمد خليل الباشا : «التقمص» دار النهار للنشر. بيروت ١٩٨٢ .

ـ د. محمد على الزعبي، بالاشتراك مع علي زيعور : «البوذية». المقدمة بقلم

كمال جنبلاط . طبع ونشر مطبعة الانصاف . بيروت ١٩٦٤ .

ـ د . محمد شفيق شيّا : «شكيب ارسلان ـ مقدمات الفكر السياسي» . معهد الإنماء العربي . بيروت . طبعة أولى ١٩٨٣ .

ـ محمود خليل صعب : «قصص ومشاهد من جبل لبنان» منشورات المجلس الدرزي للبحوث والانماء . بيروت - ١٩٨٠ .

ـ ملحم كرامي : «الست شعوانة ، وعبّاد الله في جبل لبنان» . بدون تاريخ ولا دار نشر .

ـ ميخائيل نعيمة : «في مهب الريح» مؤسسة نوفل ـ بيروت . ط . ٧ / ١٩٨٣ .

ـ محمد علي الطاهر : «ذكرى الأمير شكيب ارسلان» المركز الوطني للمعلومات والدراسات . الدار التقدمية ـ المختارة ـ بيروت ١٩٨٨ .

ـ محمد جواد مغنيّة : «الشيعة في الميزان» دار التعارف . بيروت . دون تاريخ .

ـ مارون عبود : «زوبعة الدهور» ـ أبو العلاء المعري . دار مارون عبود للنشر . طبعة ثالثة ١٩٧٠ .

ـ نصري سلهب : «لقاء المسيحية والاسلام» دار الكتاب العربي . بيروت ، لبنان . ١٩٧٠ .

ـ وليد عوض : «عبد الله المشنوق يتذكر» الدار الأهلية للنشر والتوزيع . بيروت ١٩٨١ .

ـ يوسف إبراهيم يزبك : «مجموعة اوراق لبنانية» . دار الرائد اللبناني . المجلد الأول.الجز آن السابع والثامن . تموز ـ آب ١٩٥٥ .

ـ يوسف ابراهيم يزبك : «وليّ من لبنان» منشورات أوراق لبنانية . ط . ٣ . ١٩٦٠ .

ـ يوسف ابراهيم يزبك : من مقدمة كتاب «الدولة الدرزية» تأليف «بيجيه دي . سان بيار» ترجمة «حافظ ابو مصلح» . المكتبة الحديثة للطباعة والنشر . بيروت . الطبعة الأولى ١٩٨٣ .

مصادر أخرى :

- القران الكريم .

- الشريعة الروحانية .

- رسائل إخوان الصفاء . اعداد وتحقيق د . عارف تامر . المجلدان الأول والخامس منشورات عويدات . بيروت - باريس . ١٩٩٥ .

- التربية التوحيدية : إعداد اللجنة الثقافية في مدرسة «العرفان» التوحيدية السمقانية - الشوف .

- فقيد العروبة الخالد «عارف النكدي» مطابع قدموس (دون تاريخ) .

- مجلة «الضحى» تصدر عن دار الطائفة الدرزية . بيروت . كانون الثاني ١٩٦٥ .

- مجلة «الأنباء» الناطقة بلسان الحزب التقدمي الاشتراكي . العدد ١٣١٣ . الاثنين ١٦ حزيران سنة ١٩٨٠ .

- مجلة «الميثاق» تصدر عن مؤسسة بيت اليتيم الدرزي . نيسان ١٩٨٢ . الجزء الرابع .

- مجلة «العربي» . تصدر عن وزارة الاعلام بدولة الكويت . العدد ٤٢٦ . مايو / أيار ١٩٩٤ .

- «كمال جنبلاط ، مسيرة قائد وثورة شعب» المركز الوطني للمعلومات والدراسات . الدار التقدمية . طبعة أولى . ١٩٩٠ .

- مجلة «الطريق» . العدد الرابع : تموز / اب ١٩٦٦ .

- مجلة «الموقف» العدد ١١٩ . نيسان ١٩٩٧ .

محتويات الكتاب :

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

مَناهِل الحُكَماء وَالأولياء

هذا الكتاب ما هو إلا ثمرة
من ثمرات الأقلام، جادت بها قرائح كتّاب وحكماء وأدباء، لهم مكانتهم في هذا المجال. وإن ما تضمنه من مقالات ومواضيع تحمل في طياتها أقوالاً حكيمة، ومواعظ بليغة، وسيراً للعديد من الحكماء والأولياء والتقاة، ولأعلام برزوا في هذا المضمار، وكانت لهم مآثر وحِكَمٌ ومحامد جديرة بالإكبار والتبجيل، سواء أكانوا روحيين تقاة ورعين، أم زمنيين كراماً أباة، فإنها تعتبر هذه الاقوال والمواعظ والمآثر، غذاء للعقول وللنفوس، وطريقاً للسعادة الحقيقية: سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، نظراً لما تحتويه من بليغ القول والحكم، وحميد السّير والمآثر.

«وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبّه بالكرام فلاح»

بطاقة المؤلف

نايف فرحان زهر الدين، مواليد كفرفاقود ـ الشوف ١٩٢٣.

ـ أنهى علومه الابتدائية في مدرسة عثمان ذي النورين، التابعة لجمعية المقاصد الخيرية الاسلامية ـ بيروت ـ ١٩٣٦.

ـ أكمل دراسته للمرحلة المتوسطة ـ التكميلية سابقاً ـ في المدرسة الداودية ـ عبيه ـ لبنان. ١٩٣٩

ـ مارس التعليم الخاص في مدرسة كفرفاقود التابعة لجمعية المقاصد الخيرية مدة سنتين. انتقل بعدها إلى التعليم الرسمي، ومارسه طيلة أحدى وأربعين سنة ونيّف، ابتداء من ١٥ آذار ١٩٤٦ حتى أول تموز ١٩٨٧، حيث أحيل على التقاعد، بعد بلوغه السن القانونية.

ـ أعدّ هذا الكتاب من خلال مطالعاته التي يملأ بها أوقات فراغه.